# نابليون

تأليف

هربرت فشر

وزير معارف انجلترا سابقاً

ترجمة

محمد نوفل

د. محمد مصطفى زيادة

الكتاب: نابليون

الكاتب: هربرت فشر

ترجمة: مُحَمَّد نوفل، د. مُحَمَّد مصطفى زيادة

الطبعة: ٢٠٢١

صدرت الطبعة الأولى ١٩٢٧

الناشر: وكالة الصحافة العربية ( ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

**E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com**



دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

فشر ، هربرت

نابليون/ هربرت فشر, ترجمة: مُحَمَّد نوفل, د. مُحَمَّد مصطفى زيادة

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٣٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٦ – ١٣٦ – ٩٩١ –٩٧٧ –٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٤٠٣ / ٢٠٢١

# نابليون





## مقدمة

هذا كتاب نابليون، ألفه "هربرت فشر" أستاذ التاريخ بجامعة شفيلد، ثم وزير المعارف بانجلترة سابقا. آثرنا ترجمته إلى اللغة العربية: لأنه من الكتب التاريخية، التي ألفت عن نابليون بالطريقة العلمية الخالصة– تلك التي تحلل الوقائع السالفة، ونبتني عليها حقائق تلتها، وتستنبط منها وقائع لحقتها، وتعتمد دائماً في أسلوبها على المنطق التاريخي، الذي يكوّن من حوادثه حلقات متصلة متناسقة، لا شذوذ فيها ولا اضطراب. على أن هذا الكتاب، مع صغر حجمه، يعتبر فتحا مبينا في عالم التأليف– تقرأ في صحائفه المعدودات تاريخ نابليون فتى وشيخا، وإذ هو بين الحالين رجل الدنيا وواحدها، فتقف بذلك على آثاره الجلي في تاريخ العالم، وتفهم نفسه الجبارة التي طالما غالبت الحوادث ففازت منها بخير نصيب. وإنما قصدنا إلى نابليون دون غيره من أعلام التاريخ لاعتقادنا أن التاريخ الحديث لمصر، وبعض بلاد الشرق الأدنى، يبتدئ يوم نزل الجيش الفرنسي مدينة الإسكندرية، بإشراف هذا القائد العظيم، فسلك مصر بين الدول، ووصل تاريخها بتاريخ العالم، وبعث فيها حياة علمية تعد بحق الجذوة الأولى لنهضتها الأخيرة..

وأمر آخر، وهو حرصنا على أن يكون بين أيدي قراء العربية كتاب يشرح جزءا فذا من تاريخ أوربا في القرن التاسع عشر، كي يستعين به طلبة التاريخ في زمننا هذا على كتابة المقالات التي يكلفونها، بدل طريقة الاختبار التحريري القديمة، التي تحصر المعارف في نقط أشبه بالرموز

الرياضية منها بالتحليل المعقول الوافي.

وقد توخينا في الترجمة كل عناية ودقة فخرج كتابنا العربي مرآة صادقة للأصل الانكليزي. وكثيرا ما حملنا أسلوب المؤلف الموجز على شرح كثير من النقط بالحواشي، التي في أسفل الصفحات، مع خلو الأصل منها جمعاء إلا حاشيتين نسبناهما للمؤلف بصفحتي (٢٧١ و٢٨٣) وكذلك أضفنا إلى الكتاب سبع مصورات وثلاث صور ليست بالأصل.

وإنا لنقدم في الختام جميل شكرنا للأستاذ أحمد الشايب أفندي لتفضله بمراجعة الأصول وللأستاذ مصطفى السقا والأستاذ أحمد الناقص أفندي لمراجعة الصورة التي طبع الكتاب عليها.

ونرجو أن نكون قد وفقنا إلى ما قصدنا إليه من مجاراة الروح العلمي الحديث بمصر، وإمداده بما يناسب خطته ويساعد في نضوجه والسلام

محمد نوفل

محمد مصطفى زيادة

الإسكندرية في أول مايو سنة ١٩٢٧

## الفصل الأول

# صباه

إذا ذكرنا نابليون بونابرت فكم يحضر الذهن من الأخيلة والذكريات! من ذا الذي يجهل ملامح أكبر فاتحي العصور الحديثة، وقائد قوادها، بجسمه الصغير الذي يكادي جعله في عداد الأقزام، ورأسه المستدير، وخده الزيتوني الشاحب، وحاجبيه الكثيفين، وأنفه وشفتيه وكأنها منحوتة مثل أجمل تماثيل القدماء، وعينيه الغائرتين البراقتين الرماديتي اللون يتطاير منهما شرر كهربائي تارة، وطوراً يغمرهما تفكير لا يعرف مداه؟ وقوامه لا شك مألوف أيضاً، كما كانت مألوفة تلك الملابس التي طالما لذ المصورين رسمه بها. من ذا الذي لا يعرف تلك القوة الهائلة التي تتمثل في صدره وكتفيه، وتلك الصولة الباهرة التي تتم عليها كل إشارة وحركة منه، وتلك الأسنان البيضاء، واليدين الدقيقتين، وتلك القبعة المونقة، والمعطف الطويل الرمادي اللذين طالما سار بهما إلى الظفر؟ من ذا الذي لم ير صورته بطلا نحيلا صغيرا يقود الطلائع في واقعة أركولا، أو إمبراطورا جاثيا أمام محراب كنيسة نتردام رافلا في الحلل الطويلة الفاخرة التي أعدت لحفل تتويجه، أو قائداً عابسا على رأس كوكبة فرسان شاحبة تمشي متعثرة على ثلوج الروسيا في الشتاء المهلك، أو شبحاً في عباءة واقفاً على ظهر سفينة بكتفين مقوستين وذقن مرتخ ونظرة في الفضاء مملوءة أسى تنبعث من عينين كئيبتين؟ أن الأفكار والعواطف التي تذكو لسماع ذلك الاسم المجيد، لتشبه في تباينها و تضاربها ما لقيه نابليون نفسه في أدوار حياته، كما نراها في صور المصورين. ومن المعتذر أن نعثر في التاريخ كله على رجل مثل

نابليون أثار عواطف متضاربة، أو ملك، وهو على قيد الحياة، مشاعر الإعجاب في الناس، كما ألقى في نفوسهم الرعب، فحق عليه غضبهم. ولم يقف الأمر عند المعجبين به، والناقمين عليه؛ فإن أكثر النقاد تبصراً لينظرون إلى تاريخ حياته، لا بآراء متباينة فقط بل بشيء من الحيرة أمام ما حوته من مواقف العظمة والدهاء، التي كان منها ما هو حقيقي وما هو مزيف. فهو في نظر هؤلاء الذين يتعبهم الفحص النفسي، عبارة عن رجل عملي أتى بالمعجزات، قام ولا جاه له ولا ثروة، وارتقى إلى ذروة الأطماع البشرية، فدحض بذلك الدعوى القائلة: أن السياسة سر لا يدركه إلا قليل من ذوي الأنساب والألقاب. على أن ذلك الرجل الذي قالت عنه مدام دي ستائل[1] أنه "لم يبق لبني الإنسان من مخلفات قوته الهائلة سوى معرفة بعض أسرار جديدة في فن الاستبداد"، هو

---

(1) ولدت مدام دي ستائل (Madame de Stael) سنة ١٧٦٦ في باريس وهي ابنة نكر (Necker) وزير المالية الشهير في فرنسا قبيل الثورة. نشأت في العز وأعجب رواد صالون أبيها بذكائها وهي في سن الحادية عشرة. ولقد بدأت تشتغل بالأدب والكتابة وهي بنت يافعة، وتزوجت سنة ١٧٨٦ من البارون ستائل سفير السويد في باريس فيما بعد. عاشت مدام دي ستائل ملكة صالونات باريس حتى قامت الثورة، وتطرف زعماؤها فهاجرت مع المهاجرين إلى انجلترا. ثم رجعت إلى فرنسا سنة ١٧٩٥ واشتغلت بالسياسة والأدب، لكن حكومة الإدارة لم ترض عن مبادئها فهجرت فرنسا ثم عادت سنة ١٧٩٧ حين كان نابليون في بدء حياته العظيمة. إلا أن نابليون لم يعجبها فلم تحدث بينهما صداقة، ونقلب تعارفهما كراهية اضطرت معها إلى ترك فرنسا.

رجعت مدام دي ستائل سنة ١٨٠٢، فأصبح صالونها بسرعة مجمع الحاقدين على نابليون والساخرين منه، واستمر كذلك حتى عيل صبر الإمبراطور سنة ١٨٠٤. عند ذلك ابتدأ نابليون يضطهدها، ولا شك أنه صغر من شأن نفسه باستمراره على ذلك، إذ طردها غير مرة من فرنسا، وصادر مرة أحد كتبها. ولما سقط نابليون رجعت إلى باريس حيث لقيت كل حفاوة من لويس الثامن عشر غير أنها اضطرت للهروب لما رجع نابليون من إلبا. ولم ترجع مدام دي ستائل إلى فرنسا بل ماتت في إيطاليا سنة ١٨١٧.

أيضاً وليد الثورة الفرنسية، وأنصع دليل على صحة المبدأ الديموقراطي. الذي نادى به ناصحاً بفتح أبواب الحياة في كل مجتمع لأصحاب المواهب. هذا، وما دام الناس يقلبون صحائف الماضي بحثاً عما يحرك القلوب من تقلبات الزمن، أو حبا في استقراء عظيم حوادث السياسة، أو رغبة في الاطلاع على أمثلة من أعمال القوة والإرادة البشرية، أو استقصاء لأسرار ذوي العواطف الحارة، أو جريا وراء إدراك القوى البشرية التي تسيطر على العالم، فإنهم سيواصلون درس حياة نابليون، وسيجدون فيها دائماً قصة، لا تقل في عجائبها عن أساطير الجبابرة والجن، يظهر فيها أكبر انفجار للقوى البشرية: ذلك الانفجار الذي أحدث في العصور الحديثة تغييراً كبيراً في حياة الإنسان المتمدن.

ولد نابليون في "أجاكسيو" في **١٥** أغسطس سنة **١٧٦٩**، وكان ثاني أولاد شارل ماري بونابرت وماري ليتيشيارامولينو. وأبوه من أصل فلورنسي له فروع في بلدتي سار زانا وسان منياتو في تسكانيا[١]. غير أن أجداد نابليون استوطنوا منذ عام **١٥٢٩** جزيرة قرشقة[٢]، هناك بين المناظر الساحرة التي أودعتها الجبال الوعرة والغابات الكثيفة الحافلة بشجر الكستناء، والسماء الصافية، والبحار الزرقاء، عاش آل بونابرت موضع احترام جيرانهم. وعلى الرغم من قلة ثرائهم، فإنهم بمحافظتهم على نسبهم، وبموازنتهم بمستوى من حولهم الضاربين في السذاجة وشظف العيش، كانوا معدودين أحسن أسرات أجاكسيو حالا. ولقد خدم في مجلس الجزيرة خمسة من آل بونابرت في أوقات مختلفة، غير أن الأدلة تثبت أن سلف نابليون من جهة الأم كان أكثر مقدرة من

---

(١) انظر مصور رقم **٣** إيطاليا.

(٢) انظر مصور رقم **١** جزيرة قرشقة للتحقق من مواقع البلاد الواقعة في تلك الجزيرة والمذكورة هنا في هذا الفصل من الكتاب.

سلفه من جهة الأب. نعم كان أبو نابليون رشيقاً ذكياً ميالا إلى الشعر والبلاغة، شأن كل إيطالي، لكنه كان مسرفاً مضطرباً في أحواله المالية، مغامراً للحصول على ما يريد من المال. أما أم نابليون فكانت امرأة مقطوعة النظير، وكانت جميلة حفظت لآخر عمرها جمال وجهها وهيبتها، اللذين كانا يكسبانها إعجاب الناس في كل مكان. وكانت ذات عقل سليم خال من الرياء والتصنع. وظلت تلك المرأة طول حياتها لا تتكلم الفرنسية، أو تنطق بها، بدون أن تغلط غلطات فاحشة. وكانت مقتصدة لدرجة الشح، وعلى خلق قويم راسخ كطود من الصوان؛ فقابلت تكاليف الحياة أول أيامها بثبات، ولم يغيرها ما وجدت نفسها فيه من العز فيما بعد. وليس أدل على كل ما تقدم من أن باؤولي[1] دعاها في سنة ١٧٩٣. باسم كورنيليا[2]، مشيراً إلى أن تلك المرأة الريفية الحسناء ذات الذكاء والعزم، خليقة بأن تكون أماً للأبطال.

في منتصف القرن الثامن عشر كان من الشرف أن يكون الإنسان من أهل قرشقة. وكان كل شغوف بالحرية يتتبع أخبار النضال المجيد الذي قام به سكان

---

(1) باسكالباؤولي (**Pasquale Paoli**) بطل تاريخ جزيرة قرشقة. ولد فيها سنة ١٧٥٥ وكان زعيم حركة تحريرها من حكم جمهورية جنوا. ثم ابتاعت فرنسا الجزيرة سنة ١٧٦٨. ولقد أبى باؤولي تسليم الجزيرة للفرنسيين حتى غلب على أمره عام ١٧٦٩. عند ذلك فر الزعيم إلى انجلترا ثم عاد إلى وطنه سنة ١٧٨٩ إبان الثورة الفرنسية. بيد أن أعمال الحكومة الفرنسية لم ترضه، ونفرته من وظيفة الحاكم العام، فنظم ثورة غرضها سلخ الجزيرة عن فرنسا وضمها إلى انجلترا. ثم أخفق في مسعاه وعاد ثانية إلى انجلترا سنة ١٧٩٦ كسير القلب، ومات قرب لندن في سنة ١٨٠٧. وقد نقل رفاته إلى قرشقة عام ١٨٨٩. هذا وسيمر القارئ بكثير من أخبار باؤولي مفصلة في متن الكتاب.

(2) كورنيليا (**Cornelia**) امرأة أحد مشاهير قواد الإمبراطورية الرومانية في القرن الثاني قبل الميلاد. ولقد خلفت من زوجها ابنين وابنة وترتكز شهرتها على حسن تربيتها لأولادها الذين خدموا روما خدمات جليلة بعد أبيهم.

الجزيرة الصغيرة، أولا ضد حكم جنوا الممقوت ثم ضد سلطان فرنسا. في تلك الآونة كان اسم باسكال باؤولي- بطل حرب استقلال الجزيرة وزعيم الأمة وواضع شرائعها- مشهوراً في كل عواصم أوربا. وكان أوصاف الجزيرة البعيدة، موضع إعجاب السياح والسواس الذين أثار بعدها في خيالهم أخبار بطولة أهل العصور القديمة. لذا كانت قرشقة في نظر أوربا كاليونان فيما بعد وهي تحارب الأتراك، أو كجمهوريات البوير في جنوب أفريقية وهي تقاوم الإمبراطورية البريطانية. أما نابليون الذي ولد في تلك السنة التي انضوت فيها الجزيرة إلى فرنسا نهائياً، فإن سني حداثته كانت مملوءة بحوادث ذلك النضال، ولابد أن أخبار مخاطرات تلك الحرب الطاحنة كانت تترى عليه من كل ناحية. من تلك أن أباه كتب مرة منشوراً ثوريا لأهل قرشقة، وأن أمه، قبل ميلاده بأيام، طوردت في الغابات والجبال، حيث شاركت الجيش الوطني في مخاطراته. إنما كان باؤولي في أثناء تلك الفترة المثل الأعلى في عين نابليون، ولذلك كان أقصى أحلامه أن يكتب تاريخ الجزيرة مسقط رأسه، أو أن يكون سبب تحريرها من الفرنسيين.

اشتهر أهل قرشقة بالرزانة والشجاعة والإقدام، وكان كره العدو عند القرشقي فضيلة، والانتقام واجبا، والعفو عاراً، وكان يشعر بواجبه نحو عشيرته، كما يشعر به ساكن الجبال في اسكتلندا، أو الألباني أو الزولو[1]. وكان يتيه فخراً وثقة. وكان ذا حذر وفراسة في حكمه على أخلاق الناس، داهية في التصنع إلا إذا أثيرت حفيظته فأفسدت كل شيء. وكان شرفه يمنعه من السرقة، ويأمره بالكرم وحسن معاملة المرأة لكدها في المنزل والحقل معا، فالقرشقي بوجه عام كان شديد العزم، رزيناً لا ينغمس في الملاهي، وقد يجلس ليلعب الورق فلا

---

([1]) الزولو فرع من جنس البانتو المنتشرة في جنوب افريقية.

ينبس ببنت شفة، ويتحمل التعذيب دون أن يظهر ضجراً. لكنه كان مع ذلك إذا استهواه الحديث ينطلق بالكلام كالسيل، مما يدل على تلك الهمة النزاعة الوثابة التي لا تطيق صبراً، والتي كانت حلية القوم كلهم. بتلك الصفات، وبعض صفات أخرى، كان نابليون قرشقيا لحما ودما.

قضى نابليون معظم أيام المدرسة في فرنسا، فلم ير مسقط رأسه، ولا وجه أمه لمدة سبع سنوات وتسعة أشهر: غادر أجاكسيو في ١٥ ديسمبر سنة ١٧٧٨ ليتعلم اللغة الفرنسية في أوتان (**Autun**)[١] بفرنسا وكان عمره إذ ذاك تسع سنين؛ ولما رجع إليها بأجازة في سبتمبر سنة ١٧٨٦ كان عمره سبعة عشر عاما، وضابطا في آلاي من آلايات المدفعية. مع ذلك كان غيابه الطويل مثيراً لوطنيته، مذكيا لنار الحماسة في فؤاده. والسبب أنه كان يشعر دائماً أيام تلمذته في برين (**Brienne**) وأيام أن كان طالبا بالمدرسة الحربية في باريس، أنه في أرض معادية، يتكلم بلغة غير لغة أهله، ويضطر لمخاطبة صبية يحتقرونه للكنتة الأجنبية وماله القليل وحسبه المعدوم. أدى به ذلك الشعور بالغربة إلى التفكير في سريرته كثيراً، حتى أنه بعد أن كان أيام طفولته عربيداً مشاغباً، أصبح عبوسا غير محبوب بين زملائه "جافا كالقضيم"- كما قال هو عن نفسه- تجيش في صدره الأطماع.

لم يكن نابليون قديراً في حذق اللغات؛ لكنه أظهر منذ طفولته ميلا للعلوم الرياضية شحذه فيه أساتذته الفرنسيون. كان أبوه يريد من أول الأمر أن يلحقه بالبحرية، لكن الفكرة تغيرت- وربما كان هذا نزولا على رغبات نابليون نفسه- قبل أن ينتهي من حياته الدراسية في برين. وقر الرأي على أن يدخل المدفعية،

---

(١) انظر مصور رقم ٢ فرنسا للتحقق من مواقع البلاد الفرنسية المذكورة في فصول الكتاب.

لأنها الفرع الوحيد من فنون الحرب الذي ترجح فيه كفة الذكاء وحب العمل كفة ضآلة الشكل والجسم. ولقد أظهر نابليون من أيام طفولته ميلا للحياة الحربية، فكان وهو في طريقه إلى المدرسة الصغيرة في أجاكسيو يستبدل بخبزه الأبيض خبزا أسمر خشنا من جرايات المعسكر، قائلا أنه يروض نفسه على حياة الأجناد.

أما الدلائل التي تشهد على نموه العقلي والخلقي في ذلك الطور من حياته، فإنها مقنعة في ذاتها على رغم قلتها. من تلك أن رسائله إلى أهله من المدرسة كانت جدية جلية. إليك مثالا مما كتبه وهو في الرابعة عشرة، يصف أخلاق أخيه الأكبر يوسف قال ما معناه: إن ولعه بالهزل لا يهيئه لحياة الجيش فليكن قسا. ولما علم بموت والده، كتب وهو في الخامسة عشرة خطابا مملوءاً شعوراً ناضجاً قال "لقد فقد البلد مواطنا فطينا متنوراً أمينا، لكن هكذا قدر المولى تعالى". أمام ذلك الجد وتلك الرزانة نسائل أنفسنا هل كان نابليون صبيا أيام صباه– أيام رأى أن مهنة الحرب ليست مجال المظاهر الخلابة، بل أنها العلم الذي يحتاج استيعابه إلى الانهماك في الدرس حتى ينال صاحبه العظمة السياسية. لذلك كانت دراسة التاريخ والجغرافيا أحب الأشياء إليه، وطالما خيل إليه أنه أحد أبطال قصص بلوتارك[١]، وكان كتاب "بحث في تاريخ العالم" الذي كتبه بوسيوه[٢] وسرد فيه تاريخ تعاقب الدول، أول ما حرك في نفسه الأطماع.

---

(١) بلوتارك (**Plularch**) كاتب يوناني عاش في القرن الأول الميلادي وأشهر كتبه "الموازنة بين العظماء" الذي يحتوي على تراجم كثير من مشاهير اليونان والرومان في القصر الذي قبله.

(٢) ولد جاك بوسيوه (**Jacque Bossuet**) في فرنسا سنة ١٦٢٧ ودرس العلوم الدينية ونبغ فيها. ثم ذاع صيته حتى استدعاء لويس الرابع عشر الموعظ في كنيسة اللوفر سنة ١٦٦١.

في ٢٨ أكتوبر سنة ١٧٨٥ ترك نابليون المدرسة الحربية في باريس ليلتحق بآلاي لافير الذي كان مرابطا عند فالنس. وكان إذ ذاك في السادسة عشرة من عمره، لا يملك مالا ولا أصدقاء، ولا يعرف أحداً من ذوي النفوذ يستعين به على الرقي في الجيش. مات أبوه، ومات كذلك ماربو وبوشبورن الموظفان الفرنسيان في قرشقة، اللذان كانا يتعهدان بالعناية أسرة نابليون بعد وفاة عائلها. وضاق بأمه الحال بينا كان راتبه الأسبوعي وهو في وظيفة ملازم ثان، لا يتجاوز الخمسة والثمانين قرشا مصريا، فإذا قعد نابليون أمام تلك الحال ساكنا فإنه ينتظر ست سنوات حتى يصبح ملازما أول، وستا أخرى حتى يصير يوزباشيا. وإذا استمر على ذلك المنوال فقد يجد نفسه، وهو في مقتبل العمر، من المحالين على الاستيداع، وحينئذ لا يكفي راتبه لسد رمقه. لكن ذلك المستقبل المظلم شدد من عزمه، فاستعان على حاله بالقصد في المعيشة؛ ولما كان غير قادر لقلة ما بيده على الانغماس في الملاهي الدنيئة أكب على الدرس والمطالعة. وصف نابليون فيما بعد تلك الأيام قال: "كنت أشعر دائما أن الوقت من ذهب حتى في الأوقات التي كنت فيها خلواً من العمل".

كان في فرنسا في ذلك الوقت مجموعة من الأدباء، امتازت كتابتهم على ما سبقها في تاريخ الأدب الأوربي بدقة وسمو مراميها، واستهوائها القارئ للاستزادة مما حوته من الجمع بين الأمل والعواطف والفكاهة. أولئك الكتاب هم الفلاسفة الفرنسيون في القرن التاسع عشر، الذين قاموا ينادون بتحكيم العقل والإنسانية في أمة بدأت تشعر أنها تعيش تحت أنظمة هي في الحقيقة بقايا غير صالحة من أزمنة همجية تسودها الأوهام. هاجم أولئك الفلاسفة كان ركن

---

وبقى بوسيوه في باريس، وعين أستاذا لولي العهد، ويقال أنه كتب من أجل تعليمه كتابه المذكور الذي يعتبر فخر مؤلفاته.

من أركان النظام الفرنسي، مستعينين بأوسع المبادئ، موجهين استفهامات محرجة، شارحين للملأ ماذا يكون في الحياة من سعادة لو قضى على ظلام النظام القائم واستعيض عنه بنظام مسير بحزم وتفكير. ولقد جاد كل كتاب العصر على اختلاف مذاهبهم وأمزجتهم على تلك الحركة الأدبية، وإليك فولتير وأسلوبه الممتع وكتابته الرشيقة، وترجو وسياسته الفلسفية الرصينة، ورينال وموهبته في الأسلوب الخطابي، وروسو ومقدرته الفذة على أن يكتب بلغة موسيقية اعترافات نفس حساسة وتصورات عقل منطقي. لا جرم أن مطالعة كتب أولئك الأدباء في الغرفة الحقيرة الموحشة، التي كان يسكنها نابليون، وهو ملازم ثان فقير معدم، كانت بمثابة تربية عقلية واسعة النطاق. ولا غرابة أن يفتتن نابليون، وهو في السابعة عشرة من عمره، بأمثال روسو ورينال، وأن يراض على الترحيب بثورة سياسية في فرنسا.

أتيح لنابليون مدة السبع السنين الأولى في الجيش فرص كثيرة للمطالعة، إذ كانت أعماله قليلة وأجازاته كثيرة طويلة. وكان يتأجج في قلبه نار حب الاستفادة، شأن الذين تنشرح صدورهم لأول مرة. كتب لأمه يصف حياته في ذلك الوقت قال: "ليس لدي ما يشغلني غير عملي. وأني أنام قليلا، إذ أذهب إلى مضجعي الساعة العاشرة مساء، وأصحو الساعة الرابعة صباحاً، وآكل مرة واحدة في الساعة الثالثة كل يوم، نتج عن كثرة مطالعة نابليون لكتابات الفلاسفة المتقدمين أن أصبح يحتقر الرهبان، ويكره الملوك، ولا يؤمن بمذاهب الديانة المسيحية. غير أن الفلسفة لم تصادف هوى في نفسه، ولم تستهو أخلاقه، لأن عقله من الصنف الذي لا تؤثر فيه العلويات، يلذه قراءة الوقائع والأرقام، ويمعن في مطالعة كتب التاريخ والجغرافيا والرحلات، ابتغاء معرفة الحال السياسية في العالم الذي يعيش فيه. هذا ويظهر من كراساته المدرسية

كيف كان ماهراً في علم الحساب، إلا أن ولعه بالملموس كانت تشوبه عواطف روحية، غير مقصورة على ما يخالج ضمائر الشباب الثائر، بل خاوية لما تصبو إليه أفئدة ذوي الأغراض والمطالع. لذلك كانت حاله أشبه بمن يحلم بالعظمة ويصبو إليها، وهو لا يزال كلفا بمواجهة الحقائق ورؤية الأشياء واضحة والرجال على أشكالهم المجردة. فكان يرى في أوسيان[١] وفرتر[٢] مثلين في حب التعمق في أسرار الكائنات وما وراءها، وفي كورني وراسين[٣] كيف يبلغ الفرد أوج عظمته المدنية. كما رأى أن التاريخ ليس دائرة معارف وحقائق فقط، "بل أساس العلوم الوضعية ومنارة الحق والعامل على قطع دابر التحيز"؛ لذلك كان مطمحه أن يضع تاريخ بلاده، ليشهد العالم على ما ثارت ضده من الاستبداد الذي ترسف في أغلاله. أراد ذلك ولو أنه شحذ قلمه غير مرة في كتابة مقالات وقصص صغيرة، شأن من يدرب نفسه على كتابة الروايات الخيالية. وفي سنة ١٧٨٧ شرع يكتب "رسائل عن قرشقة"، وبعد ذلك بقليل جمع معلومات كثيرة وهو في أجاكسيو، ليؤلف تاريخاً مفصلا عن الجزيرة.

جاءت الثورة الفرنسية، ففتحت أبواب الأمل لكل فقير ومحروم في فرنسا. أما نابليون فلم يحلم إلا بقرشقة، وظن أن اقتربت الساعة لتحرير بني وطنه من

---

(١) شاعر أيرلندي قديم نظم قصائد في وصف أبطال الجنس الغالي الذي نزح من اسكتلندا إلى ايرلندا وسكنها لأول مرة في الأزمنة القديمة. وقد ترجمت قصائد أوسيان إلى الانجليزية سنة ١٧٦٣.

(٢) آلام فرتر قصة ألفها الكاتب الألماني جيته سنة ١٧٧٢، ترجمها إلى العربية الأستاذ أحمد حسن الزيات أفندي. والقصة نفسها تعطي صورة واضحة عن الحركة الأدبية في أوربا في القرن الثامن عشر.

(٣) كان كورني وراسين (Corneillle, Racine) أكبر الكتاب المسرحيين في فرنسا في أواسط القرن السادس عشر، وظلت رواياتهما حية حتى منتصف القرن التاسع عشر.

ربقة البيروقراطية[1] الفرنسية. لذلك حصل على أجازة في سبتمبر سنة ١٧٨٩، وذهب مع أخيه الأكبر يوسف إلى قرشقة، وأوغل في ثورة القرشقيين[2]، فخطب في الأندية، وألف عرائض ثورية مهيجة، وساعد على إنشاء حرس أهلي، حتى أصبح في أجاكسيو بلدة الصيادين رأس الحركة ضد القساوسة والأشراف. وفي سنة ١٨٩٠ نجح بوسائل غير مشروعة في انتخابه قائداً ثانيا لفرقة من المتطوعين القرشقيين، معتقداً أن الانتخاب لا يتضارب مع وظيفته في الجيش الفرنسي. ولقد وقف نابليون بحكم وظيفته الجديدة على أسرار قيادة الجيوش غير النظامية؛ إنما طرأ تغيير على أفكاره السياسية حينما ألغى النظام الحكومي في قرشقة (٣٠ نوفمبر سنة ١٧٨٩)، وأصبحت الجزيرة مديرية من مديريات الملكية الديموقراطية الجديدة في فرنسا، بعد أن كانت مستعمرة من مستعمرات التاج. ذلك أن حبه القديم لقرشقة لم يتغير، بيد أن عداءه لفرنسا أخذ يزول، ولاسيما أن الجمعية الأهلية في باريس اعترفت بمزايا مواطنيه، وأذنت لباؤولي بالعودة إلى بلاده ورخصت بتمثيل قرشقة في النظام النيابي الذي اعتزمته فرنسا.

لكن أبى القدر أن يكون نابليون حاكم شعب من رعاة الأغنام ورواد التلال الخضراء. وذلك أنه لما نشبت الحرب بين أوربا والثورة، وأصبحت الحكومة في باريس في أيدي اليعقوبيين، اتهم باؤولي زعم القرشقيين، (وكان من

---

[1] البيروقراطية والأرستوقراطية والأتوقراطية والديموقراطية كلمات صاغتها اللغات الغربية للدلالة على أنواع مختلفة في حكم الأمم. والبيروقراطية معناها نظام الحكم القائم على المركزية للدرجة التي يكون فيها الموظف مسئولا أمام رئيسه المباشر فقط.

[2] قامت الثورة الفرنسية في الجزيرة أيضا باعتبارها من ولايات فرنسا التي ثارت ضد النظام القديم.

أول أمره من دعاة الملكية الدستورية ومدينا لانجلترا لإكرامها أباه أيام نفيه) بأنه من حزب المعتدلين الممالئين لانجلترا. قوى تلك التهمة خيبة حملة بحرية فرنسية أرسلت إلى مادالينا وهي جزيرة صغيرة على مقربة من سردينيا[1]؛ إذ أتهم باؤولي بأنه السبب في فشلها، لتهاونه وفتوره في قيادتها، مع أن السبب الحقيقي حدوث فتنة بين البحارة. انتهز تلك الفرصة لوسيان بونابرت أخو نابليون، الذي رفض باؤولي مرة أن يعينه ناموسا له، وكان سنه إذ ذاك ثمانية عشر ربيعا، وقال أن باؤولي خائن، وكتب لليعقوبيين أن زعيم قرشقة لا يصلح إلا للمقصلة. قبلت الحكومة في باريس بدون تمحيص قول ذلك الشاب الثوري، وقررت في ابريل سنة ١٨٩٣ القبض على باؤولي، وعهد لمندوبي المؤتمر الأهلي في باستيا[2] في إنفاذ القرار. قامت قيامة أهل قرشقة عند وصول أخبار تلك الإهانة التي لحقت برجل يعتبرونه أبا لهم وزعيما حقبة من الدهر. أما باؤولي فإنه احتمى بحصن كورت[3] الجبلي، حيث التف حوله المخلصون من رجاله الرعاة، وأعلن استعداده لملاقاة كل ما تنويه فرنسا نحوه: عند ذلك أضحت الجزيرة على باب فتنة داخلية، وأصبح مركز آل بونابرت حرجا بسبب الفعلة الطائشة التي أتاها لوسيان.

أما نابليون فقد تغيرت حماسته الأولى نحو الثورة الفرنسية، لأنه مضى صيف عام ١٧٩٢ في باريس، وشاهد الهجوم على قصر ألتويلري في ٢٠ يونيه من السنة نفسها، ومذبحة الحرس السويسري في ١٠ أغسطس، فكبر على تربيته العسكرية أن ترى الغوغاء تعيث فساداً، وأن ترى فرقة منظمة تمزق،

---

([1]) انظر مصور رقم ١ جزيرة قرشقة.

([2]) انظر مصور رقم ١ جزيرة قرشقة.

([3]) انظر مصور رقم ١ جزيرة قرشقة.

لعدم وجود قائد حازم مقدام. قال دهشا لصديقه بورين[1] بينما كانت الجموع تتدفق نحو قصر الملك في ٢٠ يونيه: "ما أجبنهم! (يعني القائمين بالدفاع عن القصر) كيف يسمحون لهؤلاء الرعاع بالدخول؟ أليس في مقدورهم القضاء على أربعمائة أو خمسمائة من تلك الجموع بقوة المدافع فتلوذ البقية بالفرار؟" وفي أثناء مذبحة ١٠ أغسطس ذهب إلى حدائق التويلري، وتمكن مصادفة بعبارة خلابة أن يقف أحد أهل مرسيليا عن ذبح رجل قائلا: "أي رجل الجنوب! جدير بنا أن نخلص هذا التعيس". بالجملة شفت تلك المناظر نابليون من أحلامه الأولى، فكتب إلى أهله أن اليعقوبيين قد أصابهم جنون، وأن الحكم بيد شرذمة من الدساسين السفلة، وأن الناس إذا فحصنا عن أعمالهم وجدناهم لا يستحقون الجهود التي تبذل لإرضائهم. في وسط ذلك الإرهاب، وجد نابليون سلوة في دراسة علم الفلك الذي اعتبره "العلم السامي".

رجع نابليون إلى قرشقة في خريف سنة ١٧٩٢ برتبة يوزباشي؛ وعلم أن أسرته مغضوب عليها من باؤولي ملك قرشقة غير المتوج، الذي حال دون انتخاب يوسف بونابرت للمؤتمر الأهلي في باريس، لأن باؤولي سياسي قديم لا

---

(1) لويس بورين (Louis Bourrienne) زميل نابليون في المدرسة الحربية في برين. التحق بالخدمة في الوظائف الدبلوماتية، وفي سنة ١٧٩٥ رجع بورين إلى فرنسا فوجد نابليون قائداً في الجيش الفرنسي وحاكما حربيا على باريس ومن ذوي النفوذ فيها. وفي سنة ١٧٩٦ طلب نابليون من صديقه لن يكون ناموساً له فقبل، وبقى مستودع أسرار نابليون حتى بعد أن أصبح إمبراطوراً. ثم عزل لاتهامه بالتلاعب في الأعطية الخاصة بميرة الجيش. وفي سنة ١٨٠٧ عفا عنه نابليون وعين ملحقا سياسيا لسفارة هامبورج، غير أنه ارتكب جريمة التلعب ثانية، فأعيد إلى فرنسا، وحكم عليه بدفع مليون فرنك غرامة للخزينة الفرنسية. لم يغفر بورين لنابليون ذلك الحكم القاسي، وبقى من ذلك الحين حتى مات سنة ١٨٢٩، وصف فيها نابليون في جميع أدوار حياته، وذكر دخائل أطماعه.

يعتقد في كفاية شبان أسرة بونابرت اليعقوبيين الذين أعانوا عليه أعداءه. وعلى الرغم من ذلك لم يقطع نابليون علاقته بالرجل الذي ظل زعيم النابهين من أهل الجزيرة فتولى تحت زعامته قيادة المدفعية في تلك الحملة التسعة إلى مادالينا. ولما حملت الأنباء إلى أجاكسيو قرار القبض على باؤولي كتب نابليون عريضة للمؤتمر الأهلي في باريس، يحتج بلهجة شديدة على المعاملة السيئة المجحفة بوطني عظيم شريف مثل باؤولي. بيد أن الفتنة التي قامت في قرشقة كانت أشد من أن تهدئ ثائرتها رسالة مهما تبلغ عبارتها من الحماسة؛ لأن البونابرتيين كانوا أصدقاء ساليتشتي (**Salicetli**) حاكم الجزيرة من قبل فرنسا، وأنهم بذلك أعداء باؤولي. ولما شاع خبر طيش لوسيان في بلدة كورت، استحال بذلك عمل أي ترضية، وأصبحت المسألة حرباً بين أهل بونابرت ومن يمالئونهم وبين أهل الجزيرة. حدث في أثناء تلك الشحناء أن أخذ نابليون أسيراً في قرية بوكونيانو (**Bocognano**) الجبلية، ثم تمكن من الهرب، واختفى في أجاكسيو، ومنها فر إلى شمال الجزيرة. وحدث ذات ليلة؛ بعد ذلك بقليل، أن أوقظت أم نابليون في جوف الليل، لتهرب بأربعة من أولادها إلى وادي الزيتون الجميل قرب بلدة ميللي (**Milelli**)، ومن هناك إلى حصن كابيتلو على البحر. وحدث أن أنصار باؤولي صبوا جام غضبهم على آل نابليون والمنتمين إليهم، فأحرقوا لهم ستة بيوت وطاحوناً وبستانين؛ فما كان من نابليون إزاء تلك المطاردات، إلا أن سافر هو وأسرته على ظهر سفينة، قامت من ميناء كالفي في ١٠ يونيه سنة ١٧٩٣، ووصلت طولون بعد ثلاثة أيام. كل تلك الحوادث يمكن استيفاء تفاصيلها من بطون الكتب الكثيرة، أو من أحاديث أهل الريف الحاليين في منازل قرشقة الحجرية.

كان ذلك الصيف حافلا بالحوادث في فرنسا: ففي الغرب قام الملكيون

في وجه الحكومة، وفي نورمنديا قام الجيرونديون[1] (Girondins) أيضاً، كما قاموا في بردو ومرسيليا؛ وفي ليون قامت ثورة خطيرة. واسترد الحلفاء بلجيكا، وأجلو الفرنسيين عن مراكزهم الحربية على الحدود مثل ماينس وكونديه وفالنسين، فأصبحت فرنسا مهددة بزحف جيوش الحلفاء إلى داخلها. وفي ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٣ وصل طولون، الميناء الحربية المهمة على البحر الأبيض المتوسط، أسطول انجليزي يخفق عليه علم لويس السابع عشر. لم تشهد الحكومة وقتاً أشد خطراً على كيانها، وعلى وحدة فرنسا، من ذلك الوقت الذي ترك المعتدلين المتوسطين حيارى لا يعرفون أي منقلب ينقلبون، إذ كانوا بين عوامل متضاربة: حكومة ملطخ اسمها بقتل الملك، وبتجاوز الحد في أحكامها العرفية، وعلم أبيض يخفق رمزاً للرجعية، وجيوش للحلفاء تتقدم وتتوغل في البلاد تحمل لها الإهانة والعار.

لم يجد نابليون صعوبة في تخير طريقه: رأى من صالحه أن ينضم للحكومة القائمة رغم احتقاره لساسة باريس القابضين على زمام الأمور، فأعلن في صراحة، أن حياة فرنسا متوقفة على حزب الجبليين[2] بعد ذلك بقليل، أي في

---

([1]) انقسمت الأحزاب في الجمعية التشريعية من بادئ الأمر إلى ثلاثة، وهي الحزب اليعقوبي المتطرف، وأشهر أعضائه جماعة الجيرونديين، نسبة إلى إقليم الجيروند الذي انتخبوا عنه. وكان الحزب اليعقوبي حزب اليسار، ينقم على الدستور الفرنسي الجديد، بعكس حزب الفويان الذي كان يعاضد الدستور ولذلك كان هو حزب اليمين. أما الحزب الثالث فكان اسمه حزب الوسط اشتمل على أفراد عرفوا بالحذر والتردد فكانوا يخدمون الحزب بعد الآخر دون اتخاذ خطة سياسية معينة، اللهم إلا خطة الميل للأغلبية، وهذا أضعف الإيمان في السياسة.

([2]) لما اتخذ المؤتمر الأهلي بعد الجمعية التشريعية في سبتمبر سنة ١٧٩٢ كانت الأحزاب المبينة في الحاشية السابقة قد تغيرت أوضاعها ومبادئها: إذ أصبح الجيرونديون حزب اليمين وأصبح بقية الحزب اليعقوبي حزب اليسار. وكان في الحزب قلة شديدة التطرف أخذت مقاعدها في

**١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٣، التحق عملا بنصيحة صديقه القرشقي ساليتشي كقائد للمدفعية بجيش الجمهورية المعسكر أمام طولون، حيث ظهرت صفاته العسكرية لأول مرة. ذلك أنه رأى قبل أن يخطر ببال أحد أن نجاح الحصار يتوقف على إرغام الأسطول الانجليزي على ترك الميناء الداخلية، وأن أحسن وسيلة للوصول إلى ذلك الغرض هو حصن ليجيات (L'Eguillette) الواقع في نهاية الطرف الغربي من رأس كير (Caire). وبعد مضى ثلاثة أشهر قضاها نابليون بعزيمة لا تكل وشجاعة لا تفل توجت أعماله بالنجاح التام؛ إذ دخلت جيوش المؤتمر الأهلي طولون ظافرة في ١٩ ديسمبر سنة ١٧٩٣، وأتت من أعمال الانتقام الشنيعة ما أنسى الناس فظائع أيام الحصار. لا جرم أن الحكومة– وعلى رأسها روبسبيير[١]– أصبحت مدينة للضابط الشاب الذي تسبب في ذلك الانتصار الباهر، في وقت ما كان أحوج الحكومة إليه. لذلك كافأته بالترقية إلى رتبة لواء، وفي ربيع سنة ١٧٩٤ أوفدته– بناء على طلبه– إلى جنوا بحجة المخابرة لتوريد مواد غذائية، والغرض الحقيقي درس الجهة تمهيداً لإعلان الحرب.**

**لا يخفى أن حياة أي قائد من قواد جيش الجمهورية، مهما يكن إخلاصه**

---

أعلى شرفات المجلس فلقبوا بالجبليين (**Montagnards**) وكان بين حزبي اليمين واليسار حزب ثالث عرف أعضاؤه باسم السهل (**La Plaine**) وكانوا يتبعون رأي الفريق الأقوى.

(١) ولد مكسمليان روبسبيير (**Maxmilian Robspierre**) سنة ١٧٥٨ في باريس وتربى في كلية بها حيث تعرف بديمولان (**Desmoulins**) الذي كان له بعدئذ شأن كبير في الثورة الفرنسية. وفي سنة ١٧٨١ أصبح روبسبيير محاميا، وانتخب سنة ١٧٨٩ لمجلس طبقات الأمة، وصار بسرعة أحد زعماء حزب اليسار، وظل نفوذه يزداد حتى أيام المؤتمر الأهلي وحكم الإرهاب، حين عين عضوا في "لجنة الأمن العام"، ثم انفرد بالسلطة، وأصبح الحاكم المطلق في فرنسا لمدة ثلاثة شهور من ابريل إلى يوليه سنة ١٧٩٤.

وقدره، كانت متوقفة على وشاية واش أو كيد كائد. مثل ذلك أن نابليون كان صديقا لروبسبيير، والرسول السري لحكومة الإرهاب[1]، ومع ذلك اشتبه في اشتراكه في ثورة ترميدور[2]؛ ولما رجع من جنوا مزوداً بالمعلومات الجغرافية، اتهم بأنه كان الرأس المفكر لروبسبيير، ونزعت منه درجته الحربية، وزج في أعماق سجن حصن كاريه (**Carre**) قرب أنتيب (**Antibes**) في ١٢ أغسطس سنة ١٧٩٤ غير أن أوراقه لم يوجد بينها ما يثبت عليه التهمة، لأنه كان يتجنب

---

(١) بعد أن حوكم السادس عشر ملك فرنسا، وحكم عليه بالإعدام في ١٧ يناير سنة ١٧٩٣، رأى زعماء الثورة أنه قد تحتم عليهم المضي فيما شرعوا فيه من الإرهاب، سواء أرغبوا في ذلك أم كرهوا، حتى لا تسنح الفرصة للرجعيين وأنصار الملكية بالثأر منهم. وكانت الظروف كلها قد تهيأت لهم لتحقيق أغراضهم فقد أحاطت بالبلاد إذ ذاك أخطار عدة نشأت عن حالة الفزع التي أوجدها قتل الملك في داخل البلاد وخارجها.

(٢) تفصيل ثورة ترميدور أنه لما خاف كثير من أعضاء المؤتمر الأهلي على أرواحهم من فتك روبسبيير الذي أصبح الحاكم بأمره في فرنسا، وبدأوا يحسون إلا حاجة للإرهاب وإراقة الدماء، تآمروا على روبسبيير وانتهى الأمر بإرساله إلى المقصلة في ٢٩ يوليه سنة ١٧٩٤ الموافق ١٠ ترميدور بحسب لقويم الحرية الفرنسية.

هنا يجدر ذكر شيء عن تقويم الحرية الفرنسية، الذي وضعه المؤتمر الأهلي، ليحل محل التقويم الجريجوري، على أن يكون مبدؤه تاريخ إعلان الجمهورية في يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢. وقد وضعت في التقويم أسماء جديدة للأيام والشهور والفصول، ومحى نظام الأسابيع: فقسمت السنة إلى اثني عشر شهرا وهي فندمير وبرومير وفرميرونيفوز وبليفوز وفنتوزوجرمينال وفلوريال وبريرال ومسيدور وترميدور وفريكتيدور. والمتأمل في معاني تلك الأسماء في اللغة الفرنسية يجد أنها تدل على المواسم الزراعية والجوية المختلفة في فرنسا. وكان كل شهر بحسب ذلك التقويم يحتوي على ثلاثين يوما مقسمة إلى ثلاثة أقسام، كل قسم منها عشرة أيام. وكانت أسماء الأيام عددية ومبنية على اللاتينية، وكان اليوم العاشر دائماً يوم عطلة ليحل محل يوم الأحد في التقويم الجريجوري. ولكي يوفق بين سنة تقويم الحرية الفرنسية والسنة الشمسية اتفق على إضافة خمسة أيام في آخر كل فركتيدور ليكتمل عدد أيام السنة ٣٦٥، على أن تكون تلك الخمسة الأيام عطلة.

التدخل في الأمور مع ذلك الحاكم الراحل. يثبت ذلك أنه لما عرض عليه مكسمليان روبسبيير قيادة الجيش الداخلي في باريس رفض اعتقادا منه أن ليس لأي عنق نجاة من المقصلة في تلك المدينة، وأن آونة اكتساب أكاليل النار فيها لم تحن بعد. أفاد ذلك الحذر نابليون، إذ لم تثبت عليه التهمة الموجهة إليه، فأطلق سراحة في ٢٠ أغسطس، وأعيد إلى رتبته الحربية بعد ذلك بقليل. وسرعان ما برهن نابليون من جديد على عظم مواهبه، لما شتت عن بلدة ديجو (Dego)، في ٢١ سبتمبر ، شمل فرقة من النمسويين، حاولت قطع المواصلات بين فرنسا وجنوا، وكان الفضل في ذلك للحركات الصائبة التي دبرها بصفته قائد المدفعية.

منذ ذلك الوقت أصبح نابليون شغفا بتولي قيادة الجيوش في إيطاليا، لإلمامه بطبيعة أرضها، ولأنه كان قد رسم خطة يمكن بتنفيذها القضاء على الجناح الأيسر للتحالف الأوربي ضد فرنسا. لكن الحكومة حالت بينه وبين ذلك، واستدعته ليذهب مع الجيش المكلف بإخماد الثورات في غرب فرنسا برتبة أمير لواء المشاة. رأى نابليون أن لو أطاع الأمر، فإنه سيلقي عملا لا يدري مداه، وأنه سيخوض غمار حرب أهلية كلها مخاطر، ليس من ورائها فائدة، ضد عصابات غير نظامية من الأشراف والفلاحين الملكيين. ولذا ذهب إلى باريس، وامتنع بجرأة عن تنفيذ ما كلف به، بحجة المرض، معتمدا على معاضدة بارا (Barras) وفريرون (Freron) زعيمي حزب الأغلبية، اللذين شاهدا بإعجاب مقدرته في حصار طولون. ظل الحظ باسما لنابليون فترة من الزمن، فاستشارته لجنة الأمور الحربية ليرسم خطة جديدة للقتال في إيطاليا ففعل، وقبلتها الحكومة، وبعثت بها لتنفذ في ميدان القتال. غير أن المقادير شاءت أن يحال دولسيه بونتكولان (Doulcet Pontecoulant) على

المعاش، وكان ظهير نابليون وصديقه في الدوائر الرسمية. بذلك أصبح نابليون ولا عضد له، وتنبهت وزارة الحربية لمعاندته القديمة، وفي ١٥ سبتمبر سنة ١٧٩٥ بينما كان ينتظر أن يوفد إلى القسطنطينية لتنظيم قوات المدفعية في جيش السلطان، شطب اسمه من قائمة القواد.

أنقذ نابليون من تلك السقطة قيام ثورة في باريس: ذلك أن المؤتمر الأهلي الذي أصبح مكروها بحق من كل المنتمين للملكية، ومن كل المعتدلين، أثار غضب الناس لما قرر أن يكون ثلثا الأعضاء في الهيئة التشريعية المقبلة تحت نظام حكومة الإدارة الجديدة من أعضائه. أخذ الناس يقولون إن قرارا كهذا، ليدل على أن كل ما عمل للخلاص من حكم الإرهاب، ولمنح فرنسا حكومة منظمة محترمة، ليس إلا كلاما ما لا قيمة له. وقالوا أيضاً ما فائدة الدستور الجديد ومجلس الإدارة الخماسي، مجلس الشيوخ، ومجلس الخمسمائة، وما إلى ذلك من الاحتياطات التي اتخذت لمنع تسلط الغوغاء- إذا ظلت دفة الأمور في يد تلك العصابة التي وقفت جامة أمام مذابح سبتمبر[1]، والتي نفذت حكمي إعدام الملك والملكة، والتي حولت باريس إلى مجزرة، والتي أزهقت روح ولي العهد بإيداعه سجن الهيكل بضع سنين؟ عزم الحرس الأهلي المؤلف من ثلاثين ألفا على الانتقام من تلك الهيئة التي قررت "قانون الثلثين" الممقوت؛ ولما كان الجيش الموالي للمؤتمر لا يزيد على خمسة آلاف، باتت الحكومة في خطر

---

([1]) كانت أواخر أيام الجمعية التشريعية. أغسطس سنة ١٧٩٢ أياماً عصيبة في فرنسا لاقتراب الأعداء من الحدود. لذلك قررت الجمعية القبض على الأشراف حتى يأمنوا شر الخيانة فامتلأت بهم السجون. ولما وافت الأخبار بسقوط فردان في يد الأعداء استولى الجزع على الجميع وطافت بالسجون عصابات مسلحة وأودت بحياة كل من كان فيها. استمرت هذه المذابح حتى ٥ سبتمبر وبلغ عدد من قتل أثناء نحو ١٥٠٠، لذلك لقبت بحق (مذابح سبتمبر).

شديد.

تخلص المؤتمر من ذلك المأزق الحرج يوم ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٥ بفضل مدافع القائد نابليون، الذي عين ثانياً بوساطة بارا الذي لم ينس صداقته ومقدرته، والذي عين في الليلة السابقة قائداً لجيش باريس. ولما لم يكن بارا جندياً، فقد آل أمر الدفاع عن المؤتمر إلى نابليون الذي أبلى بلاء حسناً. قال تيبو يصف نابليون في هذه الحادثة: "كان نشاطه يدهش الألباب، حتى خيل إلينا أنه حاضر في كل مكان في وقت واحد. وقد أدهش الناس بأوامره الوجيزة السريعة الواضحة، حتى أعجب الكل بنشاطه في عمله، وتحول إعجابهم ثقة به، وثقتهم حماسة لعمل ما يأمرهم بأدائه". ولما كان نجاح حرب الشوارع متوقفا على المدفعية، فإن مجيء مورا[١] بالمدافع من ميدان السابلون حقق النصر للمؤتمر. ذلك أن الجموع كانت كلام تقدمت من ميدان كنيسة سان روش نحو قصر التويلري حصدتهم نيران المدافع حصدا؛ وسرعان ما انجلت الواقعة عن انتصار جيوش المؤتمر، وكانت خسائر الطرفين لا تتجاوز المائتين من النفوس.

لا شك أنه لو جاءت النتيجة على عكس ذلك لهوت فرنسا من جديد إلى حضيض الفوضى والفتنة الأهلية. هذا ومهما تكن صحائف المؤتمر سوداء، ومهما تكن أعماله شنيعة، فإنه كان لا يقل في شرف أغراضه عن كثير من

---

[١] ولد يواقيم مورا (**Joachim Murat**) سنة ١٧٧١. وهو من أكبر قواد نابليون وأخلصهم له؛ تزوج كارولين أخت نابليون وعين سنة ١٨٠٨ ملكا على نابلي. وقد رافق مورا الإمبراطور نابليون في الحملة الروسية سنة ١٨١٢ وكان قائد الخيالة في موقعة ليبزج سنة ١٨١٣. بيد أنه حصل تنافر بين نابليون ومورا حوالي ذلك الوقت. فخاير مورا الحلفاء في الانضمام إليهم، بشرط الاعتراف به ملكا على نابلي. ولما رفض الحلفاء طلبه، عاد مورا إلى نابليون وحارب معه في فترة "المائة يوم"، إلا أنه هزم في إيطاليا، كما هزم نابليون في واترلو وخسر كل منهما جيشه وتاجه.

مناوئيه، بل يزيد عليهم، لأنه كان يمثل المصالح الكبيرة في فرنسا، ويعمل للمحافظة على ثلاثة أمور كانت تصبح في خطر لو قضى عليه في فندمير[1]: تلك الأمور الثلاثة هي التسوية العامة التي أنتجتها الثورة، واتحاد الأمة، وحماية الحدود من الغزو الأجنبي. كوفئ نابليون بتعيينه قائدا للجيش الداخلي، ولا يخفى أنه بإنقاذه المؤتمر لم ينقذ لفرنسا نظامها الاجتماعي الجديد القائم على المساواة فقط، بل أنقذ حكومة ملوثة يدها بدم الملك، وعازمة على مواصلة القتال ضد المغيرين على حدود بلادها.

في تلك الآونة التي زها فيها الحظ، وقع نابليون أسير حب امرأة من أصدقاء بارا وتاليان[2]، وهي أرملة المركيز اسكندربوهارنيه الذي كان قائدا في جيش الجمهورية، والذي دقت المقصلة عنقه أيام حكم الإرهاب، كما دقت أعناق كثير من الأبرياء والمخلصين مثله. ولدت جوزفين بوهارنيه في جزيرة مارتينيك من جزائر الهند الغربية سنة ١٧٦٣، وكانت على جانب عظيم من الرقة والجاذبية شأن سكان الجنوب ذات صوت خافت رنان، هيفاء القد، حلوة اللسان، رشيقة الحركة. وكان حسن ذوقها في المحافل، لا يقل عن حسن محياها. وكانت قادرة على إخفاء ما نقص من تربيتها العقلية والمدرسية، حتى لم يك في مقدور أكبر رواد الصالونات تأنقا أن يعيب عليها شيئاً.

أما نابليون القائد الشاب، الذي لم يكن في اصفرار وجهه وقصر قامته وخشونة مظهره ما يحبب النساء فيه. فإنه وقع في حب وتلك الأرملة

---

(1) فندمير أول شهور السنة في تقويم الحرية الفرنسية، وقد وقعت الفتنة المذكورة في اليوم الثالث عشر منه.

(2) ولد جان لامبيرتاليان **Jean Lambert Tallien** في باريس سنة ١٧٦٩. وهو أحد زعماء الثورة في أول أدوارها، ويرجع إليه الفضل في تدبير المؤامرة التي انتهت بإعدام روبسبيير.

الأرستوقراطية التي زادت عليه بست سنين. ولم يثنه عن حبها فقر تشكوه وطفلان تعولهما؛ لأن صداقتها المتينة مع يارا ذي النفوذ الكبير، رجحت على كل الاعتبارات الأخرى؛ هذا إذا سلمنا جدلا أن للتفكير والتقدير مجالا مع الحب المبرح.

أما جوزفين فكانت من الرزانة والروية بحيث ملكت عواطفها؛ غير أنها لم تلبث أن خضعت إرادتها لتلك الشجاعة والثقة بالنفس وسعة العقل، ولتلك النظرة المتغلغلة التي كأنما ينبعث منها شرر تخشع منه الأبصار، ولتلك النار الكامنة في طيات ذلك الحب المبرح. وكيف تعجز جوزفين أمام كل ذلك عن إدراك أن الأيام تكن مستقبلا زاهراً لنابليون؟ تم الزواج آخر الأمر في ٩ مارس سنة ١٧٩٦؛ وقبل ذلك بيومين عين نابليون قائداً للحملة الإيطالية بناء على اقتراح كرنو[1] في مجلس الخمسمائة؛ إذ أدرك ذلك الرجل المجرب، الذي كان المحور الأكبر في انتصارات الثورة في الخارج، قيمة الخطة التي وضعها نابليون في صيف السنة السابقة، وقدمها إلى لجنة الأمور الحربية، وأشار بأن يعهد إلى الجنرال بونابرت إنفاذ الخطة التي وضعها.

---

([1]) ولد لازار كرنو (**Lazarre Carnot**) عام ١٧٥٣، ودخل الجيش الفرنسي مهندسا سنة ١٧٩١، وانتخب عضواً في الجمعية التشريعية وفي المؤتمر بعدها حيث كان من المتطرفين الذي صوتوا في جانب إعدام لويس السادس عشر. وفي تلك الأثناء عين كرنو في "لجنة الأمن العام" ونيط به إدارة الشؤون الحربية. ولا يكاد التاريخ يعرف لذلك الرجل مثيلا في قدرته العجيبة على تنظيم الجيوش وتجهيزها، ولم يحل الحول على تعيينه حتى كانت هزائم فرنسا قد انقلبت انتصارات.

## الفصل الثاني

## الحملة الإيطالية

ظلت الحرب قائمة بين الثورة الفرنسية وملوك أوربا نحو أربع سنين كانت الجيوش الفرنسية في أولها تعبث بها آفات الجبن والفتنة. ثم ما لبثت أن أدهشت العالم بشجاعتها وإقدامها؛ ففتحت بلجيكا وهولندة وسافوي ونيس، وغزت غير مرة بلاد الألمان، وفازت في عهد العلم ذي الثلاثة الألوان بما كانت تحلم به– ولا تناله– في زمن علم الملكة البربونية الأبيض. وبلغ مجد فرنسا شأوا جعلها تعتبر استرداد حدود الغال القديمة[1] الممتدة إلى الرين وجبال الألب شرطا جوهرياً في سياستها لا يقول للسلام قائمة بدونه. لم يكن السبب في ذلك التغالي التحقق من تفوق الجيوش الفرنسية فقط، أو كمال المعدات التي جعلتها أحسن جيوش أوربا، بل حماسة الأمة الفرنسية التي بدأت تتدرج في مضمار الحرية. لذلك السبب وجدت الملكيات القديمة، الشحيحة بدماء جيوشها المرتزقة، نفسها قبالة دولة مستعدة لتضحية آلاف من أبنائها كل أسبوع؛ وراعها ذلك البذل الذي فاق ما بذله فردريك الأكبر ملك بروسيا من النفوس في مواقعه. فنتج عن ذلك أن أخذ تحالف ملوك أوربا[2] يتفكك، نظراً لتكاثر

---

(1) الغال هو الاسم الذي كان يطلق على بلاد فرنسا الحالية من بحر المانش وخليج بسكاي إلى نهر الرين وجبال الألب قبل دخول قبائل الفرانك في القرن الخامس الميلادي وتسميتهم تلك البلاد باسم مشتق من اسمهم أي فرنسا.

(2) هذا التحالف معروف في تاريخ أوربا أثناء الثورة الفرنسية باسم التحالف الأول.

الصعوبات في وجهه، فضلا عن أن التحالف نفسه لم يكن من أول الأمر وثيقاً. لذلك انسحبت بروسيا من الحرب سنة ١٧٩٥، وجرت وراءها كل شمال ألمانيا، وحذت أسبانيا حذوهما. أما الروسيا فبقيت معادية، ولكنها لم تحرك ساكنا لاشتغال جنودها في بولندا، ولمرض القيصرة مرضاً قضى على حياتها.

لم يبق إذا من الدول الكبرى في حالة حرب مع فرنسا سوى انجلترا والنمسا، اللتين أصرتا على عدم الاعتراف بالحدود الفرنسية الجديدة. لذلك أصبح استمرار الحرب البرية متوقفا على موقف النمسا ومقدرتها. أما انجلترا فلعلمها أن الثورة قد أفسدت نظام البحرية الفرنسية، رأت أن في استطاعتها الاستيلاء على مستعمرات فرنسا والتربص بأساطيلها التجارية، وإرسال جيوش للإغارة على ممتلكاتها ولا جرم أنه كانت هناك صعوبات متنوعة في محاولة فرنسا الحصول على اعتراف رسمي من هاتين الدولتين بحدودها الجديدة؛ لأن الاعتراف بنظرية الحدود الطبيعية معناه أن تصبح فرنسا حاكمة بلجيكا بما فيها نهر الشلت، ذلك المجرى المائي ذي الأهمية التجارية العظيمة، الذي طالما أثاره الغيرة بين هولندة وانجلترا، حتى أدى الأمر إلى عدم استعماله للملاحة، فضلا عن أن بلجيكا فيها أيضاً ثغر أنفرس العظيم الذي إذا استولت عليه دولة قوية، أمكنها مزاحمة لندن في سيادتها التجارية، ثم أنه كان يستحيل أن تتخلى النمسا عن أرضها البلجيكية لفرنسا بدون تعويض، فوق أن انجلترا تستهين بالحرب عشرين سنة عن أن ترى العلم الثلاثي الألوان يخفق على أنفرس. على أن مسألة البلجيك، التي كانت موضع اهتمام الوزارة الانجليزية، لم تك موضع الخلاف الوحيد بين فرنسيس الثاني إمبراطور النمسا وبين الجمهورية الفرنسية؛ لأن ذلك الإمبراطور الشاب العنيد القعير النظر، كان عاقداً العزم بصفته ابن

أخي ماري أنطوانيت[1] وحليف ملوك بربون، على أن ينتقم لما حل بأسرته من الأذى، وبمقام الملوك من الإهانة، ولما له من الحق في حماية المصالح الألمانية على نهر الرين بصفته إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، ولما عليه من واجب المساعدة لسردينيا التي انتزعت منها سافوي ونيس، إذ أن ملك سردينيا يعد حارس أبواب إيطاليا الغربية، وليست إيطاليا نفسها إلا من لوازم النمسا، ومصلحتها في أن تكون إيطاليا بعيدة عن تأثيرات الثورة الفرنسية أكثر من مصلحتها فيا لمحافظة على أنفرس أو حماية نهر الرين، أو الانتقام لضحايا المقصلة من الملكيين.

كان يهم نابليون أن يفوز في إيطاليا ويحصل على صلح شريف. وقد رسم الخطة لذلك في مذكرة بديعة، كتبها في يوليه سنة ١٧٩٤ لروبسبيير- الذي كان أصغر منه سنا- أشار فيها إلى ضرورة اتخاذ خطة الدفاع على الحدود الأسبانية وخطة الهجوم العنيف على الحدود الإيطالية. أما وقد أصبح بيده قيادة الجيش في إيطاليا، فإن خطته كانت أن يسير من سهل الرفييرا عابرا جبال الابنين، ليقطع حلقة الاتصال بين الجيوش النمساوية والسردينية المنتشرة على الممار الواقعة شمال بلدة سافونا، حتى إذا تم له فصلهما أمكنه إخراج النمساويين من إيطاليا وعبور جبال التيرول إلى بافاريا، أو التقدم من عند تريستا شمالا حتى يتصل بالجيش الفرنسي عند الرين، ثم يتقدم ظافراً بالجيشين نحو فينا فيملي شروط الصلح عند أسوارها.

من المعلوم أن فن الحرب متمش مع التقدم العلمي والمادي: ففي القرن السابع عشر لما كانت البنادق تحشى من فوهاتها، ومدفعية الميدان ثقيلة الحمل

---

(1) زوجة لويس السادس عشر ملك فرنسا، قتلت بعد زوجها في أكتوبر سنة ١٧٩٣.

صعبة الاستعمال- حتى أن اثني عشر مدفعاً كانت تعتبر كافية للجيش، وست قذائف كافية لأي ملحمة- في ذلك الزمن كانت الغلبة في الحرب للسيف وأسنة الحراب. وكانت الملاحم على ندرتها قصيرة حاسمة. وفي تلك الملاحم كان تعيين مراكز حملة الحراب وحملة البنادق ورجال المدفعية والخيالة يستغرق معظم اليوم، كما كان تغيير المراكز عند الحاجة يستغرق ساعات كثيرة. أمام كل تلك الظروف لم يكن في مقدور أي قائد حازم أن يقسم القوى التي تحت إمرته، أو يخاطر بالاشتباك مع جيش يفوق جيشه عدداً؛ كذلك كان من المستحيل أن يرغم أي جيش، مهما يكن متفوقاً، جيشاً آخر على الاشتباك معه، مادام الآخر لا يريد ذلك؛ وكان في مقدور القائد الحازم أن يخفى مركز جيشه لمدة أسابيع، وأن يقوم بعمل مناورات بدون أن يشتبك في موقعة لقرابة سنة.

شهد القرن الثامن عشر ثورة في فن الحرب بإدخال سلسلة من التحسينات في الأسلحة النارية: فما وافت سنة ١٧٢٠ حتى كانت بندقة الجندي في فرقة المشاة تصلح لإطلاق أكثر من طلقة واحدة في الدقيقة؛ ثم اخترع مدفع للميدان خفيف الحمل سهل الاستعمال؛ ثم جاءت المدفعية التي تجرها الخيل (المدفعية الراكبة). وأخيراً جاء اختراع جريبوفال (**Gribeauval**) عام ١٧٦٥، وكان ضابطاً في جيش لويس الخامس عشر، وهو عبارة عن مدفع للميدان عظيم المنفعة، خفيف الوزن. ولم تقتصر نتيجة تلك التحسينات على المدفعية، التي أصبحت على جانب عظيم من الأهمية في الحرب إذ صار المدفع لأول مرة عاملا مهماً في حركات المشاة، بل تغيرت كل قوانين خطط القتال وتدابيره، حتى أصبح من الممكن تجزئة الجيوش إلى فرق، ما دام في استطاعة الفرقة الواحدة أن تدفع عن نفسها ضد قوة متفوقة إذا كانت في موقع حسن، أو أن تسلم بنفسها على الأقل إذا وقعت في مأزق بسلسلة حركات ساقية.

ومن ثم أصبحت مسألة المسائل أمام رجال الحرب كيف يستفيدون من تلك الطريقة الجديدة، وهي سهولة القيام بمناورات حربية على طول الخط الأمامي بقوة يمكن تغيير أوضاع فتائها تدريجاً. وكذلك انقضى نظام إبقاء الجيش كتلة واحدة، ونظام اصطفاف الجيوش للقتال؛ وصار في مقدور القواد تسيير الجيوش من نقط متباعدة إلى خطوط النار، وإرسال فرقة لشد أزر القوى المغلوبة أو لتحويل نظر العدو عن نقطة الهجوم الحقيقية. وأصبح من الضروري معرفة طبيعة الأرض وانحدار الطرق حيثما كثرت وحدات الجيش. وبات من الممكن كسب موقعة باستخدام المصورات والبوصلة، وتقرير مصير معركة بانقضاض فرقة واحدة على جيش مختل مفلول الكتائب، بشرط أن تظاهر الفرقة المهاجمة نيران المدفعية مجتمعة.

أدرك الكتاب الحربيون الفرنسيون الذين عاشوا قبل الثورة مبادئ فن الحرب التي بنيت على التغييرات المتقدمة، وأوضحوها في كتاباتهم، ووفوها حقها من البحث، قبل أن تسنح فرصة لتجربتها في ميادين القتال. مثل ذلك أنهم عرفوا قيمة الحركات الهجومية، وضرورة السرعة في تواصل فئات الجيش قبل القتال، واستخدام المدفعية كتمهيد لهجوم الكتائب كتلة واحدة. وعرفوا أيضاً أهمية المدفعية الراكبة في نجاح الحركات الساقية؛ بل ونصحوا في كتاباتهم بضرورة خفة حركة الجيوش، ذلك الأمر الذي يستلزم الاستغناء عن فرق لنقل المؤن والذخائر، وإرهاق القرى والبلاد المجاورة للمعسكرات بما يحتاجون إليه. وبالجملة فقد كانت كل أصول فن الحرب: مثل وجوب مضايقة العدو باستمرار، وإخراجه من استحكاماته القوية، ومفاجأته تحت جنح الظلام، وإرباكه بهجمات عنيفة على مواطن ضعفه– كل تلك الأصول كانت معروفة لكل من درس مؤلفات الكتاب الحربيين جيبير (**Guibert**) وجريبوفال وبورسيه (**Bourcet**)

ودي تي (**Du Teil**). وعلى ذلك كان بونابرت ملما إلماماً تاماً بكل القواعد الجديدة في فن الحرب؛ إنما يرجع له الفضل في تطبيقها، وإثبات أثرها الفعال.

اتبع نابليون تلك القواعد الجديدة، على أنه لم يزد عليها؛ وليست الجيوش الفرنسية مدينة له إلا بأنه هو الذي قادها للنصر المبين: ذلك أنه لم يخترع آلة حربية جديدة، ولم يبتكر نظاماً جديداً، ولم يضع قواعد جديدة لحركات الهجوم والدفاع، بل انتهج ما وضعه غيره من طرق التسليح وتدريب الجنود، وطرق الحرب التي كانت متبعة في الجيش الفرنسي القديم، الذي قضى فيه أيامه الأولى. إنما كان نابليون يفضل من طرق الهجوم النظام المزدوج، الذي أوصى به جيبير، للجمع بين تأثير نيران الخطوط الأمامية وتأثير قوة الكتائب المتراصة الهاجمة، باستخدامها بالتعاقب. لكنه لم يتبع تلك الطريقة دائما، بل كان يقصرها على ذلك الجزء من الميدان الذي يريد تطويق العدو فيه، حتى إذا ما سنحت الفرصة للانقضاض عليه نيط الهجوم بكتل متراصة. ومع ذلك فكان نابليون يترك لضباطه إدارة الخطط الفرعية، أما "الخطط العامة"– كما سماها– المختصة بتوزيع الفرق على الميدان، واختيار نقط الضعف في صفوف العدو التي يجب مهاجمتها، وتصويب كل نيران المدافع نحوها، فكانت من اختصاصاته، وفي تلك قلما طاش سهمه. غير أن طريقة هجوم الكتائب المتراصة التي اتبعتها جيوش الثورة الفرنسية، كان نجاحها متوقفاً على عدم ثبات الصفوف التي تهاجمها؛ لأنه يشترط أن يدب الخلل في صفوف الجيش المواجه لها بفعل المدافع أو مناورات الطلائع، حتى يكون لمفاجآت الكتائب أثر فعال. أما إذا كانت جيوش العدو مكونة من رماة لا يعرف الروع لنفوسهم سبيلا، تحميهم من نيران المدفعية طبيعة الأرض المرابطين بها، ففي تلك الحالة لا يجدي هجوم الكتائب شيئاً، لأن نيران الرماة تحصد جبهة الكتيبة فتضيع الواقعة قبل أن تتمكن قوة

تلك الكتيبة من الانهيال بأجمعها على خصمها؛ وهذا سر انتصار الجنرال ستيوارت الانجليزي في موقعة ميدا سنة ١٨٠٦، وانتصارات ولنجتون في حرب شبه الجزيرة[١]. غير أنه لا يفوتنا أنه لما تسلم نابليون قيادة الحملة الإيطالية سنة ١٧٩٦ كانت طريقة هجوم الكتائب المتراصة غير معروفة القيمة، لأنه حتى تلك السنة لم يقف أي جيش أمام القوات الفرنسية، وأظهر الثبات والسداد في ضرب النار اللازمين للتحقق من مزاياها.

يلاحظ أن الجيش الفرنسي، الذي كان أحسن جيوش أوربا في أواخر عهد لويس السادس عشر، بلغ درجة أعلى من القوة بسبب الانقلابات السياسية التي حدثت في فرنسا. ذلك أنه على الرغم من مهاجرة كثير من ضباطه، ظلت قوته الحربية كامنة فيه لبقاء معظم رجال الجيش الملكي في مدفعيين ومهندسين في خدمة العلم الثلاثي الألوان؛ فضلا عن أن جيش الوطن والشعب أصبح لا يجزع للتضحية معهما تعظم، وقادراً على خفة في الحركات الحربية التي لم تكن معروفة من قبل. ولا غرابة فقد أصبحت أبواب الرقي مفتوحة لكل جدير بها، بعد أن كانت موصدة إلا في وجه الأشراف، حتى صار من الممكن لرجل قادر أن يصبح في بضع سنين في مصاف عظماء القواد. زد على ذلك أن النفوس رخصت في سبيل الوطن، وأصبح الجيش ذخراً في الملمات، بعد أن كان معتبراً متاعا للملك يجب المحافظة عليه؛ وسرت حمية الأمة إلى ثكنات الجيوش، فأصبح كل جندي مستعداً لملاقاة الصعاب وتذليلها في سبيل ذلك الجهاد الذي لم يسبق أن وقفت أمة حياتها لنيله.

لما تولى نابليون القيادة في إيطاليا، لم يكن معروفا لدى كبار ضباطه الذين

---

(١) سيأتي الكلام على حرب شبه جزيرة أسبانيا والبرتغال في الفصل التاسع.

زعموا أن ذلك الشاب الصغير، ذا الوجه النحيف، والقامة الضئيلة، والذي أبرز إليهم صورة عروسه مفاخراً بها، لا يمكن أن يكون تعيينه إلا نتيجة المحاباة وتدبير المكايد. "لكنه بعد أن وضع قبعة القيادة، ظهر كأنما زاد في الطول قدمين"، كما لاحظ مسينا[١] الذي قال عنه أيضاً: "بدأ يناقشنا في مراكز فرقنا وفي الروح المعنوية والقوة الحربية السائدة في كل فرقة، ثم رسم لنا الخطة التي نسير عليها. بعد ذلك أعلن أنه سيقوم في الغد باستعراض الجيش، وأنه سيبدأ مهاجمة العدو في اليوم التالي بعده". كان مسينا وبرتييه[٢] وأوجبيرو[٣] أكبر من

---

(١) ولد أندريه مسينا (Andrea Massena) في سنة ١٧٥٨ من أبوين فقيرين. بدا حياته جنديا إبان الثورة وارتقى بسرعة، وأبلى بلاء حسناً في الحرب الإيطالية حتى لقبه رئيسه نابليون (Enfant cherie de la vicloire). وظل مسينا يكسب لنفسه الفخار حتى أصبح مارشالا سنة ١٨٠٤، وبقى يعمل في ميادين القتال حتى أيام حرب شبه الجزيرة حين غضب عليه نابليون. ولما رجعت الملكية البربونية دخل مسينا في خدمتها حتى مات سنة ١٨١٧.

(٢) ولد اسكندر برتييه (Alexandre Berthier) سنة ١٧٥٣. وكان أبوه جندياً فأدخله الجيش سنة ١٧٧٠. ارتقى برتييه بسرعة حتى صار رئيس أركان حرب الجيش الفرنسي في الحملة الإيطالية، وقد رافق نابليون إلى مصر بالوظيفة نفسها. ولما أصبح نابليون قنصلا سنة ١٧٩٩ تقلد برتييه وزارة الحربية، وظل يعمل حتى سقط نابليون سنة ١٨١٤. عند ذلك اضطر برتييه إلى الخضوع للملكية الجديدة في فرنسا، غير أنه لما رجع نابليون من إلبا لم يطق برتييه البقاء في فرنسا، فاحتجب عن الناس، وأقام في بلدة على الحدود حيث كان يتتبع حوادث وطنه. وفي أثناء الحرب النهائية بين نابليون وأوربا سنة ١٨١٥، كان برتييه يطل يوما من شباك بيته، فرأى فرقة من الجيوش البروسية الظافرة تتقدم نحو الحدود الفرنسية، فلم يطق المنظر فألقى بنفسه من الشباك إلى الشارع فمات.

(٣) ولد بيير شارل وأجيرو (Pierre Charles Augerean) سنة ١٧٥٧. وكان أبوه بائع فاكهة في باريس. خدم أول حياته في الجيش الفرنسي، ثم اشتغل كأستاذ في المصارعة، وفي سنة ١٧٩٢ دخل جيش الثورة الفرنسية، وترقى في أقل من ثلاث سنوات إلى رتبة قائد فرقة.

نابليون سناً؛ لكن القائد الجديد كان يتكلم بتؤدة ووقار وروية، حتى أقنع كل من سمعه بأنه جدير بقيادة الأبطال وكانت الأمة المتأججة فيها الحماسة، التي أثارها فيها حب نصرة الشعوب مستعدة للسير وراء قائد مثله، ذي عزيمة ماضية وإرادة حديدية ومهارة في فن الحرب وأسراره، إلى فصاحة وقوة خيال، وحب للصيت وقدرة على مس أوتار القلوب ببضع كلمات في بلاغ أو نشرة حربية.

ولقد تعد فاتحة حروب نابليون في إيطاليا بحق نموذجا من نماذج فن الحرب: إذ طارد القائد الشاب الجيوش النمساوية إلى ما وراء نهر إلبو، وأرغم السردينيين على مهادنته في أقل من عشرين يوماً– أحرز كل ذلك بأربعة وعشرين مدفعاً من المدافع الجبلية الخفيفة، وعدد قليل من الخيالة وجيش من المشاة، ينقص في العدد عن جيوش أعدائه قليلا، فضلا عن سوء حالته وقلة ميرته، بيد أن مقدرة نابليون في سرعة تحريك جيوشه جعلها تفوق في العدد جنود الأعداء عند كل معركة مهمة؛ ولا عجب فإن الحرب كانت بين الشباب الناهض الوثاب وبين الشيخوخة والهرم، بين دقة الإلمام بتفصيل ميدان القتال والجهل المطبق[1]. ولا يفوتنا أن من أسباب نجاح نابليون دربة الجيش الفرنسي على القتال في الأراضي الجبلية قبل أن يقوده هو، وكان حزم القائد الشاب لا يقل في الاعتبار عن صولة جنوده. مثل ذلك أنه لما فصل جيوش الأعداء عند

---

وقد رافق نابليون إلى إيطاليا، وبقي يرقى حتى صار من أكبر وأخلص القواد الذين التفوا حوله نابليون، ومات سنة ١٨١٦.

(١) المقصود هنا مقارنة بين الشاب نابليون والقائد النمساوي الهرم بوليو (**Beaulieu**).

منتنت[١] (**Montenolte**)، ولم يقتف أثر النمساويين الذين ولوا الأدبار إلى سهول لمبارديا، بل تحول شرقاً لاقتفاء البيدمنتيين[٢]، حتى يتمكن بالقضاء عليهم من بقاء مواصلاته مع فرنسا. وقد انتصر عليهم في مندوفي (**Mondovi**) وتشيفا (**Ceva**)؛ ولو كان في مكانه قائد عادي لزحف على تورين عاصمة بيدمنت، ليملي بها شروط الصلح. لكنه لم يفعل ذلك، بل عقد مع البيدمنتين هدنة عند تشراسكو (**Cherasco**)، حصل بمقتضاها على كل ما يحتاج إليه: إذ استولى على ثلاثة معاقل، وعلى جميع الطرق الحربية التي تخترق بيدمنت. بذلك دل نابليون على أن السر في قوته هو عدم إضاعة الوقت في إحراز انتصارات صغيرة تافهة، وإلمامه التام بجميع ما يلزم لعمله في نواحي ميدان القتال. ثم اقتحم نابليون جسر لودي في ١٠ مايو من السنة نفسها، ولم تمض خمسة أيام حتى كان في طريقه إلى ميلان.

كان أهم شيء في الأعمال الحربية التالية حصار مدينة مانتوا القوية، التي كان فيها من المئونة ما يكفي لمدة أربعة أشهر، ومن الحاميات ما يبلغ ثلاثة عشر ألفاً. ذلك أنه مادام العلم النمساوي ذو النسر الأسود، يخفق على تلك المدينة الحصينة المشرفة على نهر المنشيو (**Mincio**)، فلن يستطيع الفرنسيون التقدم شمالا نحو التيرول، ولا شرقا إلى تريستا، لاسيما وأنهم لا يمكنهم أن يأتنموا الدويلات الإيطالية الصغيرة التي كانت تعطف على النظام القديم، وتعتبر

---

(١) انظر مصور رقم ٢ إيطاليا للتحقق من مواقع البلاد التي نشبت عندها الحروب في ذلك الفصل من الكتاب.

(٢) البيدمنتيون نسبة إلى مملكة بيدمنت، ويسمون أيضاً بالسرديليين، لأن بيدمنت وسردينيا سمان على مسمى واحد، وهي المملكة الواقعة في الشمال الغربي من إيطاليا وتحتوي على بيدمنت وجزيرة سردينيا.

دخول ذلك الملحد وجيشه الجمهوري في بلادهم ذات الثقافة القديمة مبرراً كبيراً للفوضى. أرسل النمساويون جيوشهم أربع مرات لفك الحصار عن مانتوا، وصدهم نابليون في الأربع المرات؛ وهنا أيضاً كان عدد الفرنسيين أقل من عدد النمساويين، غير أن نابليون أدار حركات جيوشه بمهارة كانت تجعلها في أحرج ساعات القتال، حول الأماكن المهمة، أكبر من أعدائها عدداً. فقد بلغ عدد أول جيش أرسلته النمسا لفك الحصار عن مانتوا خمسين ألف مقاتل تحت قيادة فرموز (**Wurmser**)، وكان كل ما أعده له نابليون اثنين وأربعين ألفا منهم عشرة آلاف تحت قيادة سروريه (**Serurier**) مشغولين باستمرار الحصار.

وكان المنتظر إذن أن يفوز فرموز بالمعركة، لكن النمساويين أخطئوا في تقسيم قواتهم: إذ سار فرموز ونهر الأديج على رأس اثنين وثلاثين ألف مقاتل متتبعاً الطريق بين بحيرة جاردا والنهر، على حين سار القائد النمساوي الآخر كوازدانوفتش (**Quasdanovitch**) متتبعاً الشاطئ الآخر للبحيرة على رأس ١٨.٠٠٠ مقاتل. وعلى الرغم من ذلك الخطأ كان الجيش الفرنسي كان كاف للقيام بما ألقي على عاتقه، حتى أنه قر قرار المجلس الحربي الذي عقد في روفر بلا (**Roverbella**) في ٣٠ يوليه سنة ١٧٩٦، على ترك الحصار وترك المعدات التي كانت مهيأة له، وحشد كل القوات الفرنسية لصد الجيوش النمساوية الآتية لفك الحصار. وسواء أكان هذا العزم بناء على اقتراح أو جيرو أم غيره، فإنه كان موافقاً لروح المخاطرة السائدة في الجيش الفرنسي، متمشياً مع بعد نظر نابليون. ذلك أن الخسارة التي تنجم عن ترك الحصار وتضحية معداته، ليست شيئاً بجانب الخسارة المعنوية التي تحل بالجيش إذا اضطر إلى التقهقر، أو إذا حلت به الهزيمة في الميدان. وكان كل غرض نابليون أن يقضي

القضاء المبرم على كل قوات العدو قبل أن تتجمع وحداته جنوبي بحيرة جاردا؛ فصد كوازدانوفتش أولا بالقرب من لوناتو في ٣ أغسطس؛ ثم وجه قواته إلى فرموز الذي سير جيوشاً جديدة لنجدة مانتوا فهزمه في كاتسليونه (**Castiglione**) بعد قتال عنيف، ورده إلى التيرول بخسارة ستين مدفعاً وعشرة آلاف مقاتل. بذلك خرج نابليون من ذلك المأزق الحرج فائزاً، ورأى أن ينتظر وصول نجدات جديدة وأخبار انتصارات الجيوش الفرنسية في جنوب ألمانيا[١].

في سبتمبر استأنف النمساويون الهجوم لفك الحصار، لكنهم كانوا أقل نظراً وأكثر تفككا من قبل: شطر فرمزر جيشه شطرين أحدهما تحت قيادة دافيدوفتش (**Davidovitch**) مخترقا التيرول، والآخر تحت إمرته بصفته القائد العام، متخذاً وادي البرنتا طريقا له. وفي ٤ سبتمبر انهزم جيش دافيدوفتشر المؤلف من ١٠.٠٠٠ مقاتل عند روفريدو (**Roveredo**) أمام قوة ضعف عدده بالضبط تحت قيادة مسينا وأوجيرو وفوبوا (**Vaubois**). أما نابليون الذي أوغل في وادي البرنتا، في طريق بين الجيشين النمسويين، فإنه بعد أن قطع

---

(١) كانت خطة الحكومة الفرنسية لمحاربة النمسا ترمي إلى مهاجمة فينا من ثلاث جهات بثلاث جيوش منفصلة: يسير الجيش الأول بقيادة جوردان من جهة وادي المين، ويسير الثاني بقيادة مورو من طريق الدانوب، ويسير الثالث بقيادة نابليون من سهل لمبارديا. سارت الجيوش الثلاثة وعندما هزم نابليون القائد فرمزر عند كاستليونه، كان الجيشان الآخران مرابطين في وادي الرين، وكانا على باب الاتصال معا للزحف نحو أعالي الدانوب، إلا أنهما أخفقا وتقهقرا. وفي ربيع سنة ١٧٩٧ تسلم هوش القيادة بدل جوردان، ونجح في عبور الرين، غير أن مورو عجز تلك المرة عن العبور لقلة المراكب. وهكذا لم تصادف الجيوش الفرنسية في وادي الرين نجاحا. ثم مات هوش في سبتمبر من السنة نفسها، فزال بذلك أحد مزاحمي نابليون.

٥٧ ميلا في ستين ساعة، لحق بفرمزر واشتبك معه في ٨ سبتمبر، وحمله خسارة فادحة تقهقر على أثرها إلى مانتوا، فزاد الطين بلة بانضمام جيش كبير كهذا لحامية قد تفشي الوباء في أفرادها. ولما كان من المتعذر متابعة الحرب في ذلك الوقت من السنة، تركهم نابليون يقاسون هول الأوبئة، وهي كفيلة بالفتك بهم. ثم أرسل إلى باريس غير مرة يطلب المدافع والنجدات ليواصل الحصار عن كثب، حتى لا يضطر إلى الاقتراب من مستنقعات مانتوا، التي كانت مباءة الأمراض.

كانت فترة الستة الأسابيع، بين صد المحاولة الثانية لفك الحصار عن مانتوا وبين المحاولة الثالثة والآخرة، من أكبر ما وعاه التاريخ الإيطالي: ففي أثنائها استقبل جيش الجمهورية الفرنسية بأسماله في ميلان، ورحب به نفر من أهلها المتنورين، الذين كانوا قد تأثروا بما جاءت به الثورة الفرنسية من التعاليم الحرة، فأصبحوا يعتبرون الديانة الكاثوليكية ديانة عقيمة والبابا دجالا والحكومة النمساوية شبحاً من أشباح الاستبداد. عرف نابليون أن أمثال هذه العواطف كانت محصورة في الطبقات التي حظيت بدراسة القانون أو الطب أو الآداب، وأن السواد الأعظم من الإيطاليين لا يزال جاهلاً ساذجاً. لذلك رأى من حسن السياسة، بصفته قائد جيش جمهوري، وبشير المبادئ الجمهورية، أن يشجع هؤلاء الإيطاليين الذين شغفوا بالحرية، وتطلعوا إليه ليدلهم على مواردها. فلما أظهرت ولايات رجيو ومودينا وفرارا وبولونيا ميلا للديموقراطية، باركها نابليون وكون منها جمهورية ما وراء البو[١] التي ضم إليها شطراً من الولايات البابوية– فعل ذلك ولم ينتظر موافقة حكومته. وفي كتاب بعثه لأهالي رجيو أعلن أنه

---

(١) اسم هذه تلك الجمهورية بالانجليزية (**Transpadane Republic**)، لأن نهر البو اسمه في اللغة اللاتينية (**Padanus**).

"حان الوقت الذي ينبغي أن تصبح فيه إيطاليا من الأمم القوية الحرية" ثم طلب الذخائر والرجال من أهل إيطاليا، وسار في ربوع البلاد يجمع لنفسه ولقواده وجنوده وحكومته النفائس الغالية.

بعد ذلك كتب نابليون، بخبرته الحربية المطبوعة، إلى حكومة الإدارة[1] شارحا سوء عاقبة الدخول في حرب مع الولايات البابوية أو مع مملكة نابلي بما تحت إمرته من الجيوش القليلة، وضرورة إبرام صلح مع نابلي ومشاغلة البابا بمفاوضات حتى تنقشع غيوم الجيوش النمساوية المهاجمة، ولاسيما أن تطلع الولايات الشمالية الإيطالية للحرية جعلها في جانب الفرنسيين. بذلك أصبحت حكومة الإدارة– التي كانت اختطت لنفسها مشروع غزو جنوب إيطاليا، وعقد صلح مع النمسا على قاعدة ضم لمبارديا إليها مقابل بقاء بلجيكا لفرنسا– وقد فشل مشروعها كله بما أحدثه نابليون؛ وأضحى محتما عليهما أن تحمي النظم الجمهورية التي أقيمت في لمبارديا وأميليا، وأن تصبر على بقاء حكم البابا في ولاياته، والملكية البربونية في نابلي، وعرفت أنه لا يمكن الاستغناء عن جندي واحد من جيش الشمال لأن النمسا جمعت ٦٠.٠٠٠ مقاتل في التيرول وتريستا استعداداً لفك الحصار عن مانتوا للمرة الثالثة بعد فشلها في المرتين السابقتين.

برهن الفصل الثالث من قصة فك الحصار عن مانتوا على نهاية مهارة نابليون: إذ كان الجيش النمساوي الجديد تحت قيادة الفنتزي (**Alvintzi**)، وكان جندياً مدرباً كسابقيه، بل يفضلهم، لأنه– على حسب قول نابليون– كان أقوى من نازلهم وأشدهم ثباتا، لا ينقصه إلا حماسة الشباب، ولذا انتصر عليه

---

(1) هي الحكومة التي قامت بفرنسا في أكتوبر سنة ١٧٩٥ بعد حوادث الإرهاب والمؤتمر الأهلي.

نابليون، ورجحت كنفته في حرب كانت في الواقع سجالا.

ومن الغريب أن النمساويين قسموا تلك المرة أيضاً قواتهم الزاحفة على مانتوا كأن لم يتعلموا من الدروس السابقة خطر التقسيم؛ فزحف الفنتزي من تريستا، وتقدم القائد النمساوي الآخر دافيدوفتش من التيرول. أما خطة نابليون فملخصها أنه أراد اجتناب ذلك الهجوم المزدوج، بأن يزحف بنفسه شرقا للقضاء على الفنتزي عند نهر البرنتا، وبأن يسرع بجيشه متتبعا مجرى أعالي النهر في التيرول حتى يواجه مؤخرة جيش دافيدوفتش، الذي تقرر بشأنه أيضا أن تذهب فرقة فرنسية تحت إمرة فوبوا لإيقافه عن التقدم على نهر الأديج– ولم يكن تنفيذ تلك الخطة هيناً، لأن القائد الحربي مهما تكن مهارته، لا يمكنه أن يعتمد على إنفاذ كل تفاصيل خطته كما يريد بالضبط. لذلك كانت أول ملحمة عند أركولا (**Arcola**) سلسلة من المصائب على جيش نابليون؛ أضف إلى ذلك أن فوبوا لم يوفق لإيقاف دافيدوفتش، وأن أوجيرو ومسينا أخفقا في عبور نهر البرنتا. وفي ١٢ أكتوبر ظهر جيش الفنتزي على تلال كالدييرو (**Caldiero**) مهدداً أبواب بلدة فيرونا (**Verona**)؛ ولما خرج نابليون ليرده إلى الوراء، وجد أن الإقدام الذي اشتهر به جيشه في إيطاليا لم يجد نفعاً أمام عدو في مركز حصين؛ وأسفر القتال الذي دام طول النهار عند صد الفرنسيين على طول خط القتال، وردهم إلى البلدة خائبين. أصبح مركز نابليون حرجاً: لأنه إذا تقهقر إلى مانتوا فإن الجيشين النمساويين يتصلان بعضها ببعض، وإذا بقي في فيرونا فمن المحتمل أن يحاط به وهو فيها، وإذا حاول مرة ثانية أن يهاجم الجيوش المرابطة على تلال كالدييرو فإنه يلقى ما لقيه في المرة الأولى. لكن بصيرته العبقرية أملت عليه خطة فحواها أن يدور بجيشه حول معسكر الفنتزي، ويستولى على معدات النقل والمدفعية الاحتياطية، ويشتبك معه في

قتال قبل أن يتمكن دافيدوفتش من الوصول لنجدته. على ذلك ترك نابليون ٣٠٠٠ مقاتل في فيرونا، وخرج هو بالبقية متتبعاً نهر الأديج. ثم عبر النهر عند رونكو (**Ronco**) في ١٥ أكتوبر، واخترق أرض المستنقعات الواقعة بين نهري الأديج والألبونة.

اعترض تقدم الفرنسيين عائق غير منتظر: ذلك أن الجسر القائم على نهر الألبونة عند أركولا كانت تحميه كتيبتان من الكرواتين[1]؛ لكن نابليون ضرب لجنوده مثلا حسناً لما حمل علماً وتقدم نحو الجسر ليحذو الجنود حذوه، ويقتحموا القنطرة. لكنه عبثاً حاول، لأن النمساويين كانوا يمطرونهم ناراً حامية من شبابيك بيوت القرية الواقعة على الجانب الآخر للنهر. اضطر الفرنسيون إلى التقهقر؛ وفي وسط زحام المتقهقرين سقط نابليون في النهر، ولم ينج إلا بعد عناء. وفي اليوم التالي كان جيش الفنتزي كله محيطا بأركولا؛ وهنا نشبت معركة استمرت حتى ليلة ١٧، كان المتقاتلان في أثنائها يتناوبان الهزيمة والنصر. ثم اقتربت ساعة الفصل: وذلك أن عدداً من الفرسان، وعلى رأسهم عبد أسود من فرقة الكشافة، التفوا حول مؤخرة الجيش النمساوي، وهم ينفخون في الأبواق، ليوهموا النمساويين أن هناك هجوماً عنيفاً، فكانت النتيجة أن دب الاضطراب في صفوف النمساويين. وانتهز أوجيرو الفرصة، وكان يقود ميمنة الجيش الفرنسي، وانقض على النمساويين حتى ألجأهم أصيل اليوم إلى الانسحاب من مراكزهم، بعد أن دافعوا طول النهار دفاع الأبطال عن قلعة أركولا.

---

(١) الكرواتيين نسبة إلى الكروات اسم علم لبعض فرق الجيش النمساوي في القرن التاسع عشر، وهم من الجنس الكرواتي أحد الأجناس التي كانت تحت إمبراطورية النمسا والمجر حتى الحرب العظمى. ويسكن ذلك الجنس جمهورية يوجوسلافيا الحالية.

جاء ذلك الانتصار في وقت أحوج ما كان الفرنسيون إليه، لأن فوبوا انجلى في اليوم نفسه عن ريفولي، وأصبح الطريق إلى فيرونا مفتوحا أمام دافيدوفتش. ولو أن دافيدوفتش تحرك بسرعة وعزم، لتمكن بلا شك من تعويض هزيمة أركولا، لأن الفنتزي انسحب يوم ٢١ أكتوبر إلى مرتفعات كالدييرو، وأصبح في مركز يسمح له بمعونة دافيدوفتش. لكن من حسن حظ نابليون أن دافيدوفتش لم يكن صلب العود؛ ولما أجلى عن مرتفعات ريفولي، تقهقر مذعوراً أمام المطاردة العنيفة التي قام بها فربوا ومسينا.

بعد ذلك بأربعة أشهر، جاءت الساعة التي بُت فيها في مسألة فك الحصار عن مانتوا على هضبة ريفولي: وذلك أنه في ١٣ يناير وجد القائد الفرنسي جوبير (**Joubert**) نفسه عند ريفولي في وجه جيش تحت قيادة الفنتزي، يتقدم من الشمال ويفوق جيشه عدداً. فأرسل جوبير في طلب الإمداد، وإلا اضطر إلى الانسحاب من مواقعه؛ ولم تمض الساعة الثانية من صباح اليوم التالي، حتى وصل إليه نابليون من فيرونا، وأبصر على ضوء القمر معسكرات النمساويين الخمسة، ونارها تضيء الليل ما بين البحيرة ونهر الأديج. استخلص نابليون مما رأى أن المعدات تهيأ لنشوب موقعة حوالي الساعة العاشرة، وأن عدد النمسويين يبلغ ضعف عدد الفرنسيين. لكن موقع ريفولي يمتاز بأن كل جيش يأتي لمهاجمة البلدة من التيرول، لا يمكنه إجلاء حاميتها عن مراكزها إلا بتسلق القمم العالية المشرفة على الهضبة، كما لا يمكنه تسلق القمم العالية قبل أن يترك وراءه كل خيله ومدفعيته. فنتج عن ذلك أن أعان الفرنسيين، على قلة عددهم أثناء الواقعة التي نشبت، ستون مدفعاً وفرق كثيرة من الخيالة، على حين كان النمسويون معتمدين على المشاة وحدهم. أضف إلى ذلك نشاط نابليون، ووصول مسينا بنجدة بعد مسيرة ليلة كاملة،

وهنا ترى كيف تأكد النصر للفرنسيين. فلم تكد الشمس تميل عن كبد السماء حتى اندحر النمسويون، ولولا تراكم الثلج في الطريق لطاردهم الفرنسيون إلى ما بعد بلدة ترنت. بعد ذلك بثلاثة أسابيع، كان العلم الثلاثي الألوان يخفق على مانتوا، وزال الحجر الذي كان عثرة في سبيل نابليون.

التفت نابليون إلى البابا ليسوي حسابه معه، قبل أن يواصل الزحف إلى الأمام. وهنا أيضاً رفض نابليون أن يحيد قيد أنملة عن جادة النجاح طوعا لإشارة الوزارة الفرنسية التي كان يحتقرها، أو طمعاً في انتصارات هينة لا تؤثر شيئاً في نتيجة القتال. كانت الحكومة البابوية معادية للجمهورية الفرنسية التي نبذت المسيحية، وألحت على بونابرت أن يرى القساوسة مقامهم في النظم الجمهورية. وكان من السهل جدا على الجنود، التي عرفنا حنكتها، وأن تتقدم ظافرة إلى روما نفسها، حيث تقضي على حكومة هي أضعف الحكومات؛ إلا أن تلك التجربة، مهما يكن فيها من الإغراء، لا تستهوي السياسي المحنك أو الحربي القدير: إذ ليس من الحكمة أن يكدر شعور الكاثوليك في وقت كان الفرنسيون في حاجة إلى ولائهم وعطفهم. هذا فضلا عن أنه كان من الحماقة الحربية الكبرى، أن يزحف القائد العام على روما، والجيوش النمساوية لم يقض عليها بعد القضاء الحاسم. لذلك اكتفى نابليون بأن عقد مع البابا معاهدة تولنتينو (**Tolentino**) في ٢٩ فبراير، حصل فيها على جزية وصور ثمينة ومقاطعات، دون أن يعرض مركزه الحربي للأخطار. والحقيقة أنه رأى ألا يقطع العلائق مع البابا، حتى يصبح سقوط مانتوا محققا؛ ولذا اختار لمصالحة البابا الوقت الذي أراد انتهازه للقضاء بسرعة على جيش نمساوي جديد يحتشد على نهر تاليامنتو (**Tagliamento**). وكذلك كان اهتمام نابليون بكر الدقائق اهتمامه جعله يترك لسروريبه تسلم مانتوا وتسلم سيف القائد العام النمساوي

في سبيل كسب بضعة أيام لتكميل الحملة على روما.

ولقد امتاز آخر دور في تلك الحرب بتتابع انتصارات الجيوش الفرنسية على عدو أقل دربة، تطرق عدم النظام إلى صفوفه: فبينما جوبير يتقدم نحو الشمال والشرق مخترقا ممري برنر (**Brenner**) وبوسترتال (**Pustherthal**) في التيرول، هزم نابليون الأرشيدوق شارل عند نهر تاليامنتو، الذي عبره بعد ذلك عند جبل تارفس (**Col de Tarvis**) إلى بلدة فلاخ (**Villach**). وفي ٧ ابريل وصلت طلائع الجيش الفرنسي بقيادة مسينا إلى مدينة لويبن (**Loeben**)، على بعد مائة ميل تقريباً من فينا؛ وفي لويبن هذه ابتدأت المخابرات في طلب الصلح، وتم التوقيع على هدنة بين الطرفين. رأى نابليون بثاقب نظره، الذي اتصف به طول مدة الحرب الإيطالية، الظرف الملائم للوقوف عن التقدم، والظرف الملائم للانقضاض على العدو؛ ورأى أن من المخاطرة حقاً، أن يتقدم أكثر مما فعل، لا لاحتمال جمع شتات الجيوش النمساوية فقط، بل لأنه علم أن لا أمل في وصول أي مساعدة من جيوش الرين[1]، وأن من المحتمل قيام ثورات بين فلاحي البندقة والتيرول فتقطع عليه خط الرجعة.

قدم نابليون إلى النمسا، على سبيل الاستهواء في أثناء المفاوضات التمهيدية في لويبن، جزءاً من جمهورية البندقية القديمة، تلك الدولة المطمئنة، التي لم تفكر في مناوأة فرنسا، والتي لم يكن نظام حكومتها استبدادياً بدرجة تبرر تقويض أركانها. إنما يجدر قبل البحث في موضوعها، أن نذكر أن صاحب فكرة تقديمها طعمة للنمسا هو بونابرت دون سواه، وأن صاحب فكرة قبول تلك

---

([1]) راجع الحاشية رقم (١) ص ٤٤.

الطعمة هو توجوت (**Thugut**) رئيس الوزارة النمساوية. ذلك أن نابليون اختار في تلك الآونة سياسة لا هي جمهورية ولا هي ملكية، بل كان غرضه أن يعقد صلحاً مع النمسا بسرعة مهما يكلفه الأمر؛ وعرف أن أقرب طريق لحمل النمسا على التنازل عن بلجيكا ولمبارديا هو منحها البندقة في مقابلهما. ولم يأبه نابليون لشهرة تلك الدولة الصغيرة، التي كانت سوق اللهو للأغنياء والمقامرين، ولم يحرك ضعفها السياسي في قلبه الشفقة بل الازدراء. ومن الغريب أنه اعتقد أنه عمل ما فيه الكفاية في سبيل تحرير إيطاليا، وأن حرمان البندقية من حريتها ليس بالثمن الباهظ الذي يقدم لشراء حرية لمبارديا. لذلك عقد النية على خلق مشكلة بينه وبين البندقية بأي شكل من الأشكال، وليس ذلك بالأمر العسير: فإن البندقية كانت من الضعف بحيث لم يمكنها أن تحمي حيدتها، أو أن تخمد المظاهرات التي قامت فيها ضد المبادئ اليعقوبية.

على ذلك اتخذت حادثة قيام فتنة في فيرونا ذريعة لنشر الثورة في البندقية نفسها، فسقطت الحكومة العتيقة كمن يسقط مغشياً عليه. وانقلب أهل البندقية انقلابا عجيباً، إذا أصبحوا مملوئين حماسة نحو العلم الثلاثي الألوان وشجرة الحرية والقلنسوة الحمراء وكل شعائر الثورة. لكن سرعان ما انقضى ذلك الجنون الصيفي، ولم تحل ثلوج أكتوبر على قمم الجبال حتى رأى نابليون أن الوقت قد حان لإمضاء المعاهدة(1)، وحتى علم البنادقة أن شجرة الحرية والقلنسوة الحمراء والعلم الثلاثي الألوان لم تمنع وقوع أكبر المصائب التي يمكن أن تحل بدولة. كذلك قسمت الجمهورية ورفرف العلم النمساوي المكروه ذو النسر الأسود على بحيرات البندقية.

---

(1) يعني المعاهدة بينه وبين النمسا بشأن إيطاليا بما فيها تقسيم البندقية.

إذا كان من البدهيات أن ما عمل نابليون كان خاليا من الإنسانية فإن وصف نابليون بالرجل الفظ، ليس من الصحة في شيء: حكى أن ثلاثة من النبادقة أرسلوا سراً إلى فرنسا، لرشوة رجال حكومة الإدارة، ثم قبض عليهم في الطريق بأمر القائد العام، وأعيدوا مهانين إلى ميلان؛ فلما مثلوا أمام نابليون، تكلم أحدهم واسمه داندولو (**Dandolo**) وأفصح عما في قلبه حتى حرك دموع نابليون، وجعله يبذل ما في جهده لإقناعه أن فعلته لم تكن إلا شيئاً مؤقتاً، أملته الضرورة القصوى، ووعده خيراً؛ وكانت تلك العبرات صادقة حقا، وقد بر نابليون بوعده بعد موقعة استرلتز[١].

ليس القضاء على البندقية أشهر الأعمال السياسية التي قام بها نابليون في إيطاليا، بل هناك ما هو أهم منها وهم تأسيس جمهورية الألب الشمالية (**Cisalpine Repubic**). وكثيرا ما قضت دول على دول، وأقرب الأمثلة عهداً بولندا، التي قضى على حكومتها وقسم أهلها إرضاء لمطامع جيرانها. أما قيام جمهورية في شمال إيطاليا، كوليدة الدولة الفرنسية وتلميذة ثورتها، فقد كان باعثا لروح الحرية القومية في إيطاليا، وإهانة للأسرات الملكية التي لا يتفق وجودها مع تلك الحرية القومية. وقدي قول النقاد أن الجمهورية الجديدة كانت خليطا غير متجانس، مكونا من لمبارديا وجهات ما وراء البو وأقسام صغيرة من البندقية وسويسرا؛ فهي والحالة هذه لن تعمر طويلا، لما بين أجزائها من الفوارق. إلا أنه من المهم ملاحظته أن الجمهورية الجديدة ضمت أكثر سكان إيطاليا نشاطا وتقدما، وكانت حاضرتها ميلان ذات المجد القديم، وأنها ضمت أيضا مقاطعة

(١) في ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٠٥، تنازلت النمسا بمقتضى معاهدة برسبورج، التي تلت هزيمتها في استرلتز على يد نابليون، عن جميع ما حصلت عليه بمعاهدة كامبوفروميو، ثم ضمت تلك الأراضي إلى مملكة إيطاليا.

بولونيام مهد العلم ومعقل الوطنية الحارة، وأنها لم تؤسس على مثال الجمهوريات الإيطالية الصغيرة التي اضمحلت في أواخر القرن الخامس عشر، بل أسست على قاعدة تقييد المصالح المحلية، التي كانت قديما سببا في خراب إيطاليا. هذا، وكم من أسرة قام أبناؤها بأدوار عظيمة في تحرير إيطاليا في القرن التاسع عشر، فكان تأسيس جمهورية الألب الشمالية وما بعث بعد ذلك من الآمال والمصالح، السبب الأول في تطلعها إلى المسألة القومية الكبرى وهي تحرير إيطاليا.

يكاد الإنسان يعتقد أن نابليون لى داعي لحمه ودمه، لما أقام تلك المدرسة لتربية إيطاليا تربية سياسية. ولم لا؟. ألم يك نابليون في الأصل إيطاليا؟ ألم يهتف له الإيطاليون كما يهتفون لأحد أبناء وطنهم؟ ألم يتكلم لغتهم ويعرف مكنون قلوبهم؟ لكن إذا كان في عمله أي عاطفة من جانبه، فإن تلك العاطفة لم يولدها فيه الغرور؛ لأنه كان عارفا تمام المعرفة عيوب الطبائع الإيطالية، ومدركا أن قوما بلا غرض ولا عزم في الحياة، مرت عليهم دهور لم يمارسوا فيها الواجبات العامة، ليسوا أهلا للحرية السياسية. قوى هذا الاعتقاد في نفسه ما رآه من أنصار المبادئ اليعقوبية من أهل ميلان، ولذلك بالرغم من منحه الجمهورية الجديدة دستورا على نمط الدستور الفرنسي، فإنه عين بنفسه الوزراء والقضاة والنواب وكبار الموظفين، وأخبر الحكومة في باريس أن جمهورية الألب الشمالية أسست بمساعدة الجيش، وأنها لا تستطيع تسيير شؤونها إذا سحب منها الجيش. أما عن المستقبل، فكان نابليون واثقاً من أن حياة الخدمة العسكرية الإجبارية ستعلم أهل تلك الجمهورية مزايا الاتحاد والتماسك السياسي والمسئولية القومية. هذا وكان نابليون عارفا أن الفلاحين يكرهون الحكومة التي تستحل أخذ محصولاتهم الجيدة بأوراق مالية منحطة القيمة. لذلك كله أكد نابليون لحكومة الإدارة أنها إذا سحبت الجنود الفرنسية، عرضت للضياع حياة كل من أعانه

على إقامة الجمهورة الجديدة.

وفي ربيع وصيف سنة ١٧٩٧، بينما كانت المفاوضات دائرة مع النمسا، وبينما كانت إيطاليا تتعود نظام الجمهورية الجديدة، كان نابليون يعيش عيشة الملوك في قصر مومبلو الفخم (**Mombello**) الذي يبعد اثني عشر ميلا عن ميلان. هناك كان لا ينقص نابليون إلا التاج؛ إذ كان يستقبل سفراء الدول ويقيم المآدب العامة، وإذا ركب سار في معيته حرس بولندي. واتبعت حاشيته نظام رسميات دقيق، وانهالت عليه القصائد والأناشيد الإيطالية، التي دعته بطل الزمان، ومشيد أركان السلام، وهنيبال الجديد، ورسول الإنسانية، ومنقذها من براثن الاستبداد وعسف الطبقات الممتازة. والتف حوله ثلة من صغار الضباط الأذكياء، الذين كانوا يتميزون فرحاً بما نالوه من الانتصارات، وبما أمامهم من الآمال في المستقبل، لم يفرق الحسد بينهم بعد، تجمعهم رابطة الحرب التي تصفو فيها القلوب للقلوب. وكان إلى جانبه جوزفين المملوءة بشاشة، تداعب زوجها المملوء غيرة عليها، ومعها أخوات نابليون الثلاث، ترعاهن أمهن وكلهن في بحبوحة العز المقيم. وبين هؤلاء كان نابليون باشا متواضعاً لكل أخصائه، على رغم عبوسه وكبريائه في ساعات العمل. وكل الذين حوله كانوا معجبين بفكاهته التي تشرح الصدور، وبشاشته الطبيعية، وبعلمه الواسع عند بحث المسائل الأخلاقية أو السياسية. وزاد إعجابهم به لما وجدوا أنه شفيق، يستنيم للمشورة، مجد في عمله، قادر على استدعاء النوم في أي وقت. وكان يخيل إليهم أحياناً أن ليس هناك حد لأعماله وأغراضه؛ فتارة يجلس مع رجال أركان الحرب مصغياً

لأبحاث مونج[١] في الهندسة؛ وتارة يجلس في حلبة يقص حكايات خرافية. أما ثقة نابليون بنفسه فكانت لا حد لها، وأما عظمته فكان لا ينكرها أحد: كان يمشي ذات يوم في حدائق قصر مومبلو مع الشريفين الإيطاليين ميو (**Miot**) وملزي (**Melzi**)، فأفضى إليهما بشيء من أطماعه. قال مستفهما: "هل تعتقدان أني أنتصر في إيطاليا لأبني مجد رجال حكومة الإدارة؟.

غير أن "الكمثرى كانت غير ناضجة" كما قال نابليون؛ وهو وأن كان يحتقر رجال الحكومة في فرنسا، فإنه أدرك أن ليس في مقدوره القضاء عليها بل بالعكس، ولما كادت أمور الدولة تؤول إلى الملكيين ثانية، كان نابليون السبب في تخليصها. فلقد كانت هناك ثلاثة أسباب راجحة تجعله يعمل على منع رجوع آل بربون إلى باريس: الأول أنهم لابد سيبدءون الصلح مع أوربا؛ الثاني أنهم سيتولون زمام الأمور في فرنسا؛ الثالث أنهم لا شك سيستغنون عن خدماته. أضف إلى ذلك أن حكم ثلة ممن قاموا بقتل الملك، كان على الأقل خيراً من أيام النظام القديم، لوجود رجال أمثال بارا ممن يمكن رشوتهم وكتم أنفاسهم. لذلك لما جاءت الأخبار من باريس تنبئ بنجاح كثير من الملكيين في الانتخابات، عمل نابليون منشورات جمهورية، وأرسلها إلى باريس باسم الجيش في إيطاليا، كما أوفد أوجيرو لإلقاء الرعب في نفوس الباريسيين، ولتطهير المجلسين النيابيين من الأعضاء الرجعيين. وانتهى الأمر بانقلاب فركتيدور[٢]

---

(١) ولد جاسبار مونج (**Gaspard Monge**) عام ١٧٤٦. وهو عالم فرنسي شهير في الرياضة، انتخب عضوا في الأكاديمية الفرنسية سنة ١٧٨٠، وفي إبان الثورة عين وزير للبحرية الفرنسية. ثم أوفدته حكومة الإدارة إلى إيطاليا حيث تعرف بنابليون.

(٢) فركتيدور هو الشهر الثالث من تقويم الحرية الفرنسة، وقد وافق الانقلاب يوم ٤ سبتمبر سنة ١٧٩٧.

الذي نجح نجاحا مبيناً في إخماد أنصار الملكية، وتأسيس حكومة عنيدة ضعيفة في آن واحد. ثم زها الطالع لنابليون: فإنه في الخريف الذي حصل فيه الانقلاب خرج من الميدان أكبر مزاحميه ذكاء وهم هوش (**Hoche**) وبشجرو (**Pichegru**) ومورو (**Moreau**)؛ إذ مات الأول وهو في ريعان الشباب، واتهم الآخران بالعمل ضد انقلاب فركتيدور. وهكذا بلغ نابليون ذروة المجد، وزادت شهرته كأكبر دعاة الجمهورية، واعترف الكل بحكمته في السياسة المعتدلة التي اتبعها في إيطاليا. هذا، وفي ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٧ وقع على معاهدة كامبو فورميو مع النمسا، فبرهن أنه لا يقل دهاء عن كوبنتزل (**Cobentzel**) رئيس المفوضين النمسويين، وأكبر سواس أوربا وأكثرهم حنكة في ذلك الوقت. وبمقتضى تلك المعاهدة تنازلت النمسا على جلالها عن بلجيكا وعن حدود الرين لفرنسا، واعترفت بجمهورية الألب الشمالية، وأخذت في مقابل ذلك الجزء الشرقي من البندقية. أملى نابليون تلك الشروط، أما فرنسا والنمسا فكان عليهما أن تقبلاها على أي شكل كان.

## الفصل الثالث

# مصر والشام

نتج عن عقد معاهدة كامبوفورميو، أن بقى من خصوم فرنسا الستة عدو واحد هو انجلترا، التي بقيت لآخر لحظة معادية لنابليون دون الدول الأخرى. وكانت انجلترا في نظر نابليون أصلب أعدائه عوداً، لما كانت عليه من الثروة واتساع المستعمرات والقوة البحرية، ولأنها كانت لا تألو جهداً في بث الفتنة في فرنسا. أما النمسا فإنها وإن كانت قد أبلت في ميادين لمبارديا، إلا أن علمها لم يخفق على مكان بفرنسا، كما خفق العلم البريطاني على ميناء طولون أو على خليج كويبرون. على أن انجلترا كانت ملاذ اللاجئين من دعاة الملكية الفرنسية، ومحور التحالف الأوربي ضد فرنسا، والمتسلطة على البحار. وما دامت انجلترا على تلك الحال، فسيظل النظام الذي أقامته الثورة في فرنسا مهدد الأركان. وفي هذا الصدد كتب نابليون في ١٨ أكتوبر سنة ١٧٩٧، قال: "يجب علينا سحق انجلترا وإلا سحقتنا، وللقضاء عليها يجب توجيه كل قوانا نحو البحر، فإذا نجحنا أصبحت أوربا تحت أقدامنا".

لا يخفى أنه لو كانت فرنسا عازمة على سحق انجلترا، لوجب عليها تنظيم بحريتها سريعاً؛ لأن الثورة، وإن كانت بعثت في جيوشها البرية روحاً جديداً، فإنها أحدثت أثراً سيئاً في قواها البحرية. وذلك أن البحرية، على ما يلزم لها من مهارة فنية وخبرة طويلة في كل نواحيها، قد غشيها الفساد لشيوع مبادئ الثورة، التي لا تعبأ بالنظام ولا تعرف لاختلاف درجات الرجال معنى؛ فقامت

الفتن في أحواض السفن، واستغنى عن خدمات رجال المدفعية البحرية المدربين، واضطر كثير من الضباط الكفاة أبناء الأسر العريقة إلى ترك الخدمة. ولذلك أصبحت البحرية الفرنسية، التي أبلت بلاء حسنا أثناء الحرب الأمريكية، مختلة النظام لدرجة لم يمكن تلافيها حتى في أوج عظمة نابليون. وإنه لمن أسعد مصادفات التاريخ أن تلك الدولة الحربية، التي لم يظهر لها مثيل في أوربا، كانت ضعيفة في بحريتها، حتى أن آمالها في بسط نفوذها على ربوع آسيا واستراليشيا وأفريقية وأمريكا ضاعت بتغلب القوى التي قامت لمناضلتها حفظا لكيانها، وانتصاراً للحرية السياسية.

كان من المحتم أن يناط أمر منازلة انجلترا إلى نابليون القائد الشاب الذي توج انتصاراته الباهرة بصلح مبين. ولم يكن نابليون يعين على رأس الجيوش الموجهة ضد انجلترا، حتى بدأ يتفقد شواطئ بحر المانش في فبراير سنة ١٨٩٧، فأدرك استحالة غزو انجلترا قبل إعداد المعدات الكافية التي يستغرق إعدادها وقتا طويلا. على أن انجلترا لم تكن في نظر نابليون جزيرة فقط، بل دولة ذات سلطان واسع، تستمد معظم قوتها من تجارتها الواسعة وممتلكاتها في الهند، يجد طرقا عدة لمهاجمتها؛ فإذا امتنع طريق بحر المانش، كان هناك البحر الأبيض المتوسط، حيث يمكن تسيير حملة على مصر، تحمل انجلترا على توزيع قواها البحرية– الأمر الذي يستحيل بدونه الزحف على لندن.

ولقد كانت هناك بواعث أخرى تبرر غزو مصر: فإن نابليون منذ حداثة سنة كان يحلم بجمال الشرق وعظمته وما يحويه من الأسرار، يسهله عليه أن رواد البحر من أهل قرشقة كانوا ملمين تمام الإلمام بساحل تونس المجاور لهم، وتونس قريبة من مصر، ومن مصر يسرح الخيال إلى مكة وطهران، وإلى صحاري العرب وحدائق الورد ببلاد العجم، وإلى المعابد البيضاء على ضفاف

الكنج المقدس. ولقد فكر نابليون وهو في سن الشباب، أن يندمج في سلك الجيش البريطاني في الهند؛ وكاد يوما، وهو قائد صغير، يذهب إلى تركيا ويبدأ فيها حلقة من سلسلة حياته الحربية[1]؛ وفي أثناء الحرب الأوربية اشتدت عقيدته في قوة القضاء والقدر، لما أحرزه من النصر تلو النصر، وشعر كأن قوة خفية تجذبه نحو الشرق. وكان يتحدث بذلك لأصدقائه في كثير من الأحيان، حتى أصبح يعتقد أن إيطاليا ليست نهاية أحلامه، بل هي نقطة الابتداء؛ وأن شكلها الجغرافي الممتد في البحر، وسواحلها الكثيرة التعاريج، ستسهل عليه الاستيلاء على أصقاع البحر الأبيض المتوسط، وما وراءها من البلاد. لذلك استولى على أنكونا، ليكون له ميناء مشرفا على الشرق؛ واستولى أيضاً على جزر أيونيان، وسيطر على جنوا. وأسس الجمهورية الليجورية بها، لتكون له قواعد على البحر الأدرياتي، واعتمد على الحظ لإثارة الفتنة في اليونان وللقضاء على تركيا قضاء مبرما.

لا يخفى أنه لو نجحت الحملة في الاستيلاء على مصر، لكان من المحتمل أن يختل التوازن الدولي: إذ كان من الممكن أن يترك نابليون الأسطول الانجليزي يروح ويغدو على مقربة من الإسكندرية، ويعود هو إلى المانش، فينقض على الشواطئ الانجليزية، ويقضي على حكومتها. وكان من الممكن أيضاً أن ينتج عن فتح مصر وشق قناة السويس وتحصينها، تجهيز حملة للسير إلى الهند

---

(1) طلب نابليون مرة وهو حديث العهد بالخدمة في الجيش الفرنسي أن توفده الحكومة لتركيا لتنظيم المدفعية في جيش السلطان، وكان غرضه من الذهاب أن تتاح له فرصة الاتصال بالشرق، ولكن لم يسمح له بسبب غضب حكومة الإدارة عليه وحذف اسمه من قائمة القواد (انظر ص ٢٤).

للانضمام إلى قوى المهراتا[1] لطرد الانجليز من ممتلكاتهم في الشرق. أما إذا أخفق المشروعان السابقان، فلا يزال أمام الذي يستولى على مصر مشروع فتح سورية والاستيلاء على القسطنطينية وتمزيق أوصال الدولة العثمانية.

أما نابليون فإنه رأى من الحزم أن يتخلص من الجو السياسي المكفهر في باريس بأسرع ما يمكن، ولاسيما أنه لم يكن قد بلغ الأربعين من عمره ليصلح للعضوية في حكومة الإدارة. ثم أنه كان موقناً أن الشهرة مهما تبلغ، فإن جذوتها لا تلبث أن تنطفئ إذا هي لم تذكها جلائل الأعمال. يثبت ذلك أنه قال في ٢٩ يناير سنة ١٧٩٨ لناموسه بورين: "لا أريد المكث هنا، فليس من عمل أقوم به. إذن آذان القوم قد صمت، وإن هذا البلد مقبرة النبوغ. قد بليت شهرتي على جدتها، وليست أوربا بالميدان الواسع اتساعاً كافياً؛ أما الشرق فهو مجال نيل الشهرة الواسعة" لا شك هنا أن ذكرى الإسكندر الأكبر كانت ماثلة أمام عيني نابليون، فضلا عن أنه كان يعتقد أن وراء أوربا، وما فيها من تقاليد راسخة ومدنية خانقة، بلادا غيرها مترامية الأطراف، حيث ظهرت دون ودالت دول، فزين لنابليون أن فتحها ليس عليه بعزيز، وأن تنظيمها حسب إدارته ليس بالأمر العسير.

قبلت حكومة الإدارة رأيه، ولا عجب فقد كانت فرنسا تعتبر مصر، منذ أيام سان لويس وحربه الصليبية، مطمح آمالها دون كل بلاد الشرق الأدنى. وكان المعروف عن مصر، أنها ذات مدنية شهيرة عتيقة بالية، وأن قوتها الحربية معروفة بضعفها، وأن حكومتها في أيدي المماليك الأجانب الطغاة، وكان قد اقترح ليبنتز (**Leibnitz**) على لويس الرابع عشر الاستيلاء على وادي النيل،

---

(1) المهراتا اسم يطلق على عدة إمارات في الهند الوسطى، ناوأت الانجليز مدة طويلة أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر.

وليبنتز هذا أشهر فلاسفة الألمان، وكانت الفكرة نفسها من مشروعات شوازيل (Choiseul) أمهر وزراء لويس الخامس عشر. وفضلا عن كل ذلك فإن فتح مصر سيضايق انجلترا حقا، وسيبعد نابليون، ولو لأجل قريب، عن دائرة سياسة فرنسا الداخلية، وهو الرجل الذي برهن على أنه فرد غير عادي، وأنه خطر على النظم الديموقراطية. بقيت العقبة المالية، وتلك ذللت بطريقة امتازت بها سياسة فرنسا الجمهورية: وذلك أنها تذرعت بسبب واه لغزو سويسرا، وخصصت من الكنوز التي استولت عليها في برن (Berne)، ثلاثة ملايين فرنك، لتموين الحملة على مصر.

أقلع نابليون من طولون في ١٩ مايو سنة ١٧٩٨، في جماعة من مهرة القواد والعلماء ورجال الفنون والمهندسين، على رأس جيش مدرب مؤلف من ثمانية وثلاثين ألف مقاتل. وكان برتبيه رئيس أركان الحرب، وكان بين القواد مارمون[1] ولان (Lannes) ومورا وديزيه[2] وكليبر (Kleber). ثم كان في وجود الرياضيين وعلماء طبقات الأرض والأثريين والكيميائيين ما دل على

---

(1) ولد أغسطس مارمون (Auguste Marmont) سنة ١٧٧٤. دخل الجيش وهو صغير السن، وتعرف بنابليون في حصار طولون سنة ١٧٩٣. ولقد بدأت شهرته أثناء وجود الفرنسيين بمصر، وظل في خدمة الجمهورية والإمبراطورية حتى سنة ١٨١٤، حين رأى أن الأمل في انتصار نابليون قد ذهب، فعقد هدنة مع جيش الحلفاء كانت السبب في تنازل الإمبراطور عن العرش وقبوله الذهاب إلى جزيرة إلبا. ولقد كافأه آل بربون على تلك الفعلة التي خدمتهم بكل ما لديهم، وعاش مارمون حتى سنة ١٨٥٢، فكان بذلك آخر من مات من كبار قواد الإمبراطورية النابليونية.

(2) أبلى ديزيه (Desaix) أحسن البلاء أثناء وجود الحملة الفرنسية في مصر، إذ أرسله نابليون لتعقب فلول المماليك في الوجه القبلي، فنجح نجاحا تاما حتى ألجأ مراد بك قائد المماليك يجمعه إلى السودان.

اهتمام القائد العام بالأمور المدنية، وعلى رغبته في أن يكون فتح مصر مخالفاً للفتوح العادية. والسبب في ذلك أنه منذ انتخابه عضواً في المجمع العلمي، فكر في إماطة اللثام عن أرض الفراعنة بالبحث العلمي، وكان في نيته أيضاً أن يدرس الشرق وشرائعه وعاداته وفنونه ومصنوعاته ومزروعاته، وكذلك ديانته التي هي لحمته وسداه. بذلك يصبح الإنجيل والقرآن توءمين في مكتبته السياسية، ويتمكن نابليون من محادثة الشرق بلغته وبما تعوده الناس من الأفكار؛ فتصير فرنسا على يده سيدة في مصر، تعمل بالحسنى، وتعامل المصريين بما يناسب عقولهم، وتسهر على تحسين موارد الثروة، وتتخذ من سكانها الفاتري الهمة الخاملين الكثيرين مورداً جديداً لقواها الحربية[1].

كان طريق الحملة الفرنسية البحرية، المكونة من ٤٠٠ نقالة قاصدة إلى مصر، محفوفا بمخاطر هائلة لم تكن في الحسبان. لكن على الرغم من وجود نلسن اجترأ الأسطول على مهاجمة مالطة؛ وصادف نابليون الحظ، لأن الحامية التي رصدت له في حصن فالتا المنيع كانت شرذمة من الخونة والجبناء، تخلت عن الحصن في ١٣ يونيه؛ وبذلك تمكن الأسطول الفرنسي من الوصول يوم أول يوليه إلى مياه الإسكندرية. هناك نزلت الجنود إلى البر بدون أن تلقى مقاومة؛ ولو أن نابليون وصل إليها قبل ذلك بثلاثة أيام، لوجد نلسن بثلاثة عشر مركبا من ذوات الأربعة والسبعين مدفعا، في انتظاره يصليه ناراً حامية. إلا أن الأحوال خدمته؛ فبينما كان أمير البحر الانجليزي مسرعا نحو مصر، أصدر نابليون الداهية أوامره إلى أسطوله ليتجه نحو شاطئ جزيرة كريت الجنوبي. ولولا ذلك التأخير من جانب نابليون، وتلك العجلة من جانب نلسن، لتقابل أكبر قواد البر مع أمير أمراء البحر في التاريخ كله، في موقعة بحرية كانت تنجلي بلا

---

(١) توجه نظر القارئ إلى أن هذه العبارة ترجمة لما ورد في كلام المؤلف.

جدال عن هزيمة الفرنسيين.

يلزم لمهاجمة مصر بنجاح الزحف نحو القاهرة على أحد فرعي النيل، مع تجنب أرض الدلتا، لمستنقعاتها وقنواتها المتعددة، التي كانت السبب في فشل ما تقتضيه الخطط الحربية في مصر؛ فزحف الجيش من الإسكندرية عن طريق الفرع الغربي للنيل، وواجه نابليون المماليك وخيالتهم المقاديم البُسل، بجيش نظمه على شكل مربعات تظاهره مدفعية قوية. ودخل القاهرة، ودان له الوجه البحري بعد موقعة حاسمة قرب الأهرام، انتصر فيها بدون خسائر كبيرة. حدث ذلك بعد ثلاثة وعشرين يوما من نزول الجنود الفرنسية إلى البر عند الإسكندرية؛ ولو أن النيل كان في زمن الفيضان، لتمكن نابليون من مطاردة المماليك جنوبا، ولاستحال على فلولهم المتفرقة أن يُجمع شملها ثانية.

كان مركز الجيش الفرنسي، في وسط أمة إسلامية شديدة الاستمساك بدينها، لا تبعث بطبيعة الحال على الاطمئنان، على رغم الانتصارات الأولية الحاسمة، التي أحرزها نابليون "أبو النار" كما كان يلقبه المصريون. أدرك نابليون ضرورة مجاراة الميول الدينية السائدة في أمة اشتهرت بتعلقها بالأوهام، وذكر في نفسه كيف أن زيارة الإسكندر الأكبر لمعبد آمون جعلته ابن جوبتر كبير الآلهة[1]، وكيف "نال الإسكندر بتلك الخطوة ما لم يكن يناله لو كان تحت إمرته مائة وعشرون ألفا من المقدونيين". لذلك عزم نابليون على أن يقفوا أثر سلفه في سياسته هذه، فكان يجلس في الجامع الأزهر بين العلماء، حيث جرت العادة أن يجلس ستون عالما لشرح القوانين ولتفسير كتاب الله. بين هؤلاء القائمين

---

(1) آمون أحد آلهة المصريين القدماء، وقد انتشرت عبادته إلى بلاد اليونان والرومان من بعدهم، حيث سماه الأولون زفس (**Zeus**) والآخرون جوبتر (**Jupiter**)، وهذا يفسر اقتران اسم آمون المصري باسم جوبتر الروماني.

بالمحافظة على الدين كان يجلس نابليون جلسة الخاشع، يصف لهم في وقار حالة نفسه الورعة الخاشعة، ويناقشهم في معاني بعض المسائل الواردة في كتاب الله، ويظهر إجلاله العظيم للنبي (ﷺ)؛ حتى اعتقد العلماء أنه لولا عقبتان، وهما شرب الخمر والختان، اللذان حرم القرآن أولهما وحض على ثانيهما، لكان من الممكن أن ينتحل جميع الفرنسيين النازلين مصر دين الإسلام. واعتقد العلماء أيضاً، أن الإسلام سيملك على الجنود مشاعرهم، ويتمكن من قلوبهم، لأن الإلحاد الشديد الذي كان منتشراً بين جنود الجمهورية لم يتأثر برجوع الكاثوليكية[1]. ولكيلا يفوت نابليون شيء في سبك خدعته، أمر بوضع التصميمات لبناء مسجد كبير يسع كل الجيش الفرنسي، ليشهد بإذن الله في يوم قريب، أن لا إله إلا الله، وأن مُحَّمداً رسول الله.

أفسد على نابليون كل خططه حادثتان فجائيتان، لم يكن وقوعهما غير محتمل، وهما انتصار الانجليز على الفرنسيين في البحر، وقطع العلاقات بين فرنسا وتركيا: ففي أول أغسطس حطم نلسن الأسطول الفرنسي في أبي قير، وانقطعت بغتة المواصلات بين الجيش وفرنسا انقطاعا تاما. ولا شك أن هزيمة أقل من تلك خسارة، تكفي في كثير من الأحيان لسريان الخلل في جيش كامل. وإذا ذكرنا أن جنود نابليون خابت آمالهم في مصر: فبعد أن كانوا يمنون أنفسهم بقصور من الرخام، وجدوا أكواما من الطين؛ وبعد حلمهم بالأنبذة المعتقة، لم تبتل شفاههم بغير الماء الآسن؛ وكانوا يثقون بترحيب السكان بهم أينما حلوا، فوجدوا أن مجرد ابتعادهم عن المعسكر في أي وقت من الأوقات يجعلهم عرضة للقتل والتنكيل. إذا ذكرنا ما تقدم، علمنا أن أي خبر سوء ينشر بين رجال تلك حالتهم، كان كافيا لحملهم على العصيان جميعا. إلا أن نابليون تلقى أخبار

---

(1) اقرأ تفصيل إرجاع الكاثوليكية إلى فرنسا في ص ٩٦.

الكارثة في القاهرة بكل هدوء، ثم جمع ضباطه حوله وخطب فيهم عن ثقة عالية ونفس مطمئنة، مشيراً إلى الموارد العظيمة الكامنة في مصر، والتي تحتاج إلى استثمار قائلا: أن بلاداً كمصر كانت في الغابر دولة عظيمة، في استطاعتها بفضل ما وصلت إليه العلوم والصناعات من التقدم، أن تسترجع مجدها القديم، وتبلغ درجة في العظم ليست في الحسبان. وذكر نابليون ضباطه أيضا بمناعة مركزهم، في أرض ليس لها حدود معينة سوى الصحراء من جهة، وساحل منخفض قليل التعاريج من جهة أخرى؛ وأوصاهم في آخر كلامه أن يحافظوا على الجيش من تسرب الفشل إلى صفوفه، وأن يذكروا أن أمثال تلك الحالات مسبار الهمم. ثم ختم كلامه بعبارة تشف عن شمم وعلو خيال قال: "يجب علينا أن نرفع رءوسنا فوق الطوفان الذي يغمرنا، فنجعله بذلك مركباً ذلولا؛ ولا يبعد أن يكون القضاء والقدر قد كتبا لنا أن نغير وجه الشرق، وأن تكون أسماؤنا منقوشة بجانب الأسماء التي ازدان بها التاريخ في العصور القديمة والقرون الوسطى".

بعد ذلك بشهر أعلنت تركيا الحرب على فرنسا، وأصبح مركز نابليون في مصر معرضاً لأخطار جديدة داخلية وخارجية. من تلك أنه كانت تتلى فرمانات آتية من عند السلطان في المساجد لحث المؤمنين على طرد عدو الإسلام، ونتج عن ذلك أن أوقع نابليون بقسم من أهالي القاهرة عقوبة شديدة، لقيامهم بالثورة تلبية لنداء أمير المؤمنين. وفي يناير التالي، بينما كان نابليون في السويس ينقب عن آثار القناة التي كانت تربط النيل بالبحر الأحمر، جاءته الأنباء أن أحمد باشا الجزار والي سورية، جرد جيشاً لغزو مصر، وأن طلائعه قد استولت على العريش. سُر نابليون أيما سرور بذلك النبأ الذي برر له غزو الشام للدفاع عن مركزه، ولانتهاز الفرصة لتجديد الثقة في صفوف جنوده بالانتصارات

المنتظرة؛ ولاسيما أنه أصبح غير قادر على الرجوع إلى فرنسا تبعاً لخطته الأصلية، وأمسى عاجزاً عن الزحف على الهند بدون مدد جديد. على أن في الاستيلاء على الشام مزايا لا يستهان بها، وهي سهولة خضوع سكانه، وتأمين الحدود المصرية الشرقية، وفقد انجلترا قاعدة بحرية، وذيوع صيت نابليون في أنحاء الشرق، وصلاحية الشام نفسه لبدء الزحف على آسيا الصغرى وتركية أوربا؛ وفوق كل ذلك سيقف نابليون للمرة الثالثة موقف المخلص حين يتقدم لتخليص الشام من حكم الجزار الذي لا يطاق، كما خلص إيطاليا من النمسويين، ومصر من حكم المماليك.

سارت الحملة السورية تحت سماء لافحة، يقتلها الظمأ والجوع وانتشار الطاعون؛ وانتهت الحملة بهزيمة عند أسوار ميناء صغيرة، لولاها لتغير مجرى الحوادث في العالم. اكتسح نابليون أول الأمر بجيشه الصغير كل ما اعترض طريقه: فأخذ العريش، واستولى عنوة على يافا، ثم سار إلى عكاء مقر الجزار وطوقها بالحصار في ١٩ مارس سنة ١٧٩٩. وهنا برهنت الحوادث على أنه لا يمكن الاستيلاء التام على أرض ذات ساحل، ما دامت القوى المدافعة متفوقة على المهاجمة في المعدات البحرية. فلم يكن الجزار السبب في هزيمة نابليون بل قوة انجلترا البحرية، التي استعملها بمهارة ذلك البطل الشهم الصلف، ذي الطبع الشاذ، السير سدني سمث أمير البحر الانجليزي الذي تمكن، بفضل المقدرة العلمية التي امتاز بها المهندس الفرنسي بيكار دي فليبو ( **Picard de Phelipeau**)– من حزب الملكيين الناقمين على الثورة الفرنسية– من تقوية الحاميات، حتى ظل ذلك الحصن الصغير زهاء شهرين يقاوم الألغام والمقذوفات والهجمات التي صوبها إليه نابليون. وفي ٢٠ مارس رُفع الحصار عن عكاء، لتفشي الطاعون في المعسكر الفرنسي، ولقرب نفاد المؤن والذخائر، ولبلوغ

خسائر الجيش في الهجومين الأخيرين نحو ثلاثة آلاف جندي. ثم جاءت الأنباء بأن أسطولا تركياً في طريقه إلى مصر، فرأى نابليون ألا يترك دقيقة تذهب سدى. وفي ١٤ يونيه، بعد مسيرة ما يقرب من ثلاثمائة ميل، على طريق وعرة وطعام ضئيل، وصل جيش الشام إلى القاهرة؛ وبرهن بذلك السفر، الذي استغرق ٢٦ يوماً، على مقدار الشدائد التي يمكن أن يعانيها ويتحملها الإنسان، وعلى ما يمكنه القيام به من الأعمال، ما دام يسيره قائد عظيم ذو إرادة حديدية.

بقى تحت قيادة نابليون من الجيوش في مصر، على رغم الخسائر التي أحدثتها الحرب والطاعون، قوة كافية، إذا استخدمت بحكمة لمقابلة الخطر الداهم من الشمال. نزل الأتراك، وعددهم ١٥ ألف مقاتل، إلى البر عند أبي قير، وخندقوا في أماكن غير منيعة، وانتظروا ريثما يبدأ نابليون بالهجوم.

لا جدال في أن انتصار الفرنسيين على الأتراك عند أبي قير، في ٢٥ أغسطس، يعتبر أكبر انتصار في التاريخ، إذا كانت النسبة المئوية في الخسائر هي مقياس النجاح في الحروب. ذلك أن الجيش الفرنسي الذي هاجم الجيش العثماني كان لا يزيد على نصف عدده بكثير، غير أنه كان ممتازا بحسن القيادة والإقدام والمعدات، فأعمل فيه الرصاص، واضطره إلى التقهقر نحو البحر، حيث هلك حتى آخر رجل من جنوده. وامتازت كل الأعمال التي قام بها نابليون في أثناء تلك الموقعة بالدقة والسرعة والعزم الصادق: كإخلاء الوجه القبلي، والإسراع بجمع القوى اللازمة للقتال، وإحكام الهجوم على الاستحكامات الوسطى، وتقدم الخيالة بقيادة مورا من الجناح الأيسر في اللحظة المطلوبة. لا عجب إذن أن يمحو انتصار أبي قير عار الهزيمة عند عكاء.

قبل تلك الواقعة بأكثر من شهرين، كان نابليون عازماً على مبارحة القطر

المصري خفية: لأن أخباراً وصلت إليه من فرنسا تنبئ أن الحرب قامت من جديد في أوربا، وأن الروسيا والنمسا وبيدمنت ونابلي تحالفت ضد الجمهورية، فأسر نابليون يومئذ إلى دومارتان (Dommartin) قائد سلاح المدفعية عزمه على الرجوع إلى فرنسا مع بعض قواده. قوى تلك الفكرة في رأسه أخبار وصلت إليه من عدو داهية: إذ أرسل السير سدني سمث، الذي كان يطوف بسفنه قرب الإسكندرية، إلى نابليون حزمة من الجرائد علم منها أن الفرنسيين طُردوا من إيطاليا، وأن فرنسا نفسها أصبحت معرضة لخطر الغزو من جديد. من الطبيعي في تلك الأحوال أن يعتقد الرجل الذي يحب بلاده– ما دام يشعر بكفايته الحربية– أن الواجب يقضي عليه بالعودة إلى بلده للذود عن حياضه. كذلك رأى نابليون؛ إلا أن الدوافع التي حدت به على ذلك، كانت لا شك ممزوجة بشيء من المطامع الشخصية. وذلك أنه على رغم جهره بالحنق على الحكومة الفاسدة المتخبطة، التي أضاعت انتصاري أركولا وريفولي، كان يدور في سريرته أن في عجز رجال حكومة الإدارة فرصة سانحة لظهوره. لذلك أقلع من الإسكندرية، ليلة ٢١ أغسطس، وبرفقته مونج وبرتوليه (Bertholet) وسبعة ضباط كانوا أقدر رجاله. أما الجنود الأبطال الذين تحملوا من أجله الجوع والظمأ، في أرض أجنبية وتحت سماء مدارية حارة، فإنهم فوجئوا بخبر ترك رئيسهم إياهم، حتى أن كليبر القائد القدير، الذي عُهد إليه في القيادة العامة بخطاب تركه له نابليون، لم يحظ بفرصة يحتج فيها على هذا العمل.

هذه قصة الحملة الفرنسية على مصر، تلك الحملة التي بدأت يحفها الجلال وانتهت بتسلل صاحبها في الخفاء. على أن تقديراً صحيحاً لكل أحوال هذه الحملة يحتم وقوع الفشل، لتفوق الانجليز في البحر من جهة، وعدم إخضاع عرب السودان إخضاعاً تاماً من جهة ثانية– والأمر الأخير لا يمكن

إخضاع مصر بدونه. وإذا سلمنا جدلا أن مهارة نابليون كافية لتبيت قدم الفرنسيين في وادي النيل تثبيتا يمكنهم من مقاومة حصار بحري واحتمال خسائر حروب الصحراء، فإن المشروعين اللذين كان فتح مصر مقدمة لهما، كانا لا يمكن تحقيقهما أبداً؛ لأننا إذا ذكرنا المصاعب التي تجشمتها الحملة الفرنسية الصغيرة في زحفها الذي لم يستغرق طويلا على الشام، وذكرنا الشدة التي لقيها القائمون بتموين الجيش، وما لحق الجيوش من فتك الأمراض وخسائر القتال، لم يك ثمت بد من أن يكون نصيب الحملة على الهند الفشل، لاسيما وأنها ستحتاج إلى جيوش أكثر، تستنفد مجهوداً أكبر، فضلاً عن أنها ستقطع مسافات بعيدة، في وسط أرض أكثر وعورة، لا يعرف عنها شيء، كما كان معروفاً عن فلسطين.

كذلك لم يكن مشروع القضاء على الدولة العثمانية، الذي أفضى به نابليون إلى بورين قبل ترك حصار عكاء، باعثا على أي أمل في النجاح؛ لأن جيشا مؤلفا من تسعة آلاف مقاتل، لا يمكن أن يقطع المسافة بين عكاء إلى القسطنطينية في جوف الصيف دون أن يمسه أذى. وإذا سلمنا بنجاح نابليون في الوصول بسبعة آلاف مقاتل، فما وسيلته لعبور الدردنيل؟ وكيف يستولى على القسطنطينية، إذا كان من المحقق أن ستدافع عنها القوة المؤلفة من البحريتين التركية والانجليزية؟ لا شك أن كلا المشروعين كان خيالا باطلا. وقصارى القول أنه إذا كانت مسألة الاستيلاء على القسطنطينية فكرة جدية اضطر نابليون للتخلي عنها بسبب امتناع عكاء، فإن السير سدني سمث حال بين نابليون وبين الفشل المحقق.

أن الحملة الفرنسية على مصر بوجه عام، والمشروعين اللذين أضيفا إليها بوجه خاص، وإن كان يشوبهما شيء من الخطأ في التقدير، فإن ذلك لم يقلل

من عظمتها، ولا من نتائجها الدائمة. ذلك أن نابليون أتى إلى مصر بنظم الحكومات المتمدينة، وأتاح لأوربا دراسة علمية لآثار وادي النيل ولغته. قال نابليون ضمن ما كتب عن أخبار تسيير ديزيه إلى الوجه القبلي لتعقب المماليك: "للمرة الأولى منذ عهد الإمبراطورية الرومانية، شرعت أمة متمدينة، بدافع حبها للعلوم والمعارف، تبحث وتنقب عن تلك الخرائب الفخمة، التي شغلت عقول الجماعات المتنورة منذ قرون". ولا ريب أن الحجر المنقوش بثلاث لغات، الذي كشفه عند رشيد ضابط فرنسي في جيش نابليون، هو الذي دل شامبليون (**Champollion**) على مفتاح اللغة الهيروغليفية. ولا ريب أيضاً أن كتاب "وصف مصر" الذي وضع كل ما جاء فيه بناءً على مشاهدات العلماء الذين رافقوا الجيش، كان أول وصف علمي لتلك البلاد، التي دفعت هيرودوت منذ أربعمائة سنة قبل المسيح لكتابة أبهى وأشهر جزء من تاريخه.

أما تأثير فتح مصر والشام في شهرة نابليون فعظيم. أجل! وأي عظمة تريد أكثر من شهرة تأتي من طريق فتح بلدين متعلقتين بأقدم ذكريات النظم المسيحية وأقدسها؟ وأي الأسماء يمكن أن يكون أشهر من الإسكندرية والأهرام ويافا والناصرة[١]؟ أسماء ذائعة الصيت، وأذاعت صيتها من جديد انتصارات بونابرت. ومن المهم ملاحظة أن جميع الأخبار، التي كانت تأتي من ميدان القتال، لم تشر إلى هزيمة ما، حتى أن هزيمة عكاء أُخبر عنها في فرنسا كأنها انتصار. وكانت تملأ تلك الأخبار قلوب جمهور القراء الفرنسيين بعاطفة الفخر والإعجاب نحو الشاب المدهش، الذي فاقت أعماله بين أرض الأقدمين قصة الحروب الصليبية، وبهرتهم بموازنتها بالاضطرابات والهزائم الداخلية.

---

(١) بلد ميلاد المسيح وهي واقعة جنوبي شرقي عكاء على بعد ٣١ ميلا منها.

# الفصل الرابع

# تنظيم فرنسا

قبل أن يُدعى ناخب لعمل انتخاب، كانت فرنسا قد أسلمت أمورها مختارة من شهور لنابليون. وذلك أنه لما وصل ميناء فريجس[1] (**Fréjus**)، بعد الاحتجاب ستة الأسابيع التي استغرقها السفر من مصر إلى فرنسا، كان لوصوله رنة فرح وسرور في أرجاء البلاد، كأنما عثر الناس على الدواء الناجع لجميع أدواء الأمة. ولا عجب فقد تدهورت حكومة الإدارة حتى استقرت في دركات الفشل، وسئمت فرنسا الحرب والثورة، واعتقدت بحق أن البطل الذي فتح إيطاليا، ونظم مصر، والذي لم يغامر في المنازعات العنيفة والمطاحنات الحقيرة التي حدثت في باريس، والذي لم يعمل إلا للجمهورية، هو الذي يجد خلاصاً من ذلك الموقف الذي يزداد سوءاً كل يوم، ويمكنه إرغام النمسويين والروس والانجليز على قبول صلح شريف، والذي يستطيع إخماد الفتن التي أثارها الملكيون في لافنديه[2]، والضرب على أيدي دعاة الانقلاب الاجتماعي وقطاع الطرق؛ ثم يقوم بإصلاح الطرق، وتنظيم المالية، وإقامة حكومة عادلة مستقيمة ثابتة في فرنسا. ليس ذلك الاعتقاد غريباً، ففي القرون الوسطى في إيطاليا كان البلد الذي تفتك به الثورات الداخلية يلجأ إلى حكم نزيه أجنبي عنه، ليقيم الحدود بالقسطاس المستقيم.

---

(١) انظر مصور رقم ٢ فرنسا للتحقق من مواقع البلاد الفرنسية الواردة في هذا الفصل.

(٢) انظر مصور رقم ٢ فرنسا للتحقق من مواقع البلاد الفرنسية الواردة في هذا الفصل.

تلك كانت حال الرأي العام الفرنسي، التي ظهرت أولا في الترحيب العام الذي قوبل به نابليون في أكتوبر، والتي ما لبثت أن أخذت شكلا قانونيا في الاستفتاء العام. تلك الحال نفسها هي التي ارتكزت عليها حكومة نابليون واستندت إليها. وكذلك استمد نابليون سلطته من إرادة الأمة لا من حق الوراثة، بخلاف ملوك برلين وفينا وسان بطرسبورج: وأعلن نابليون نفسه أنه وليد الثورة، وأن صوت الملايين من الناس هو الذي رفعه إلى مكانته وقبل حكومته. وذلك النوع من الحكومة، الذي لم يكن جمهورياً بحتا ولا ملكيا محضا، بل خليطا من أقصى أنواع النظامين، لوجود السلطة المطلقة فيه إلى جانب استناده في الأصل إلى إرادة الأمة،– نقول أن ذلك النوع من الحكومة، هو جزء من الإرث السياسي الذي تركه نابليون لفرنسا. وأمام ذلك النوع من الحكومة أيضا، أُعتبرت الحكومات القائمة على الحق الوراثي، أو المؤيدة بجيوش أجنبية، حكومات غير شرعية. ولذا كان الرأي الديموقراطي في جانب البونابرتيين الذين قالوا عندما أجلس الانجليز آل بربون على عرش فرنسا نتيجة للانتصار الانجليزي[1]، أن الأجانب ليس في وسعهم إقامة أو إسقاط حكومة شرعية في فرنسا، وأن الأمة وحدها هي صاحبة الحق في إلغاء السلطة التي أقامتها الأمة.

أن الطريقة التي سار بها نابليون سيد فرنسا، تفسر لنا الرجل والعصر الذي عاش فيه: إذ قلب نظام الحكومة بالحيلة والعنف معا؛ ومن قوله في ذلك لمدام دي رميزا[2]: "تلك فترة حياتي التي أظهرت فيها أكبر المقدرة". ذلك أنه

---

([1]) يشير المؤلف هنا إلى انتصار انجلترا والحلفاء سنتي ١٨١٤، ١٨١٥، الذي انتهى بسقوط نابليون وخلعه ونفيه، وإجلاس لويس الثامن عشر البوربوني على عرش فرنسا.

([2]) ولدت مدام دي رميزا (Madame de Remusal) علم ١٧٨٠، وتزوجت علم ١٧٩٦ من الكويت شارل دي رميزا، الذي أصبح فيما بعد رئيس السراي أيام نابليون، وعينت زوجته كبيرة وصيفات الإمبراطورة جوزفين.

لما وصل إلى باريس وأكاليل النصر في أبي قير[١] تتلألأ على جبينه، وفرنسا كلها تناديه بالبطل، طرح جانبا شعار الجندي، وظهر بمظهر الرجل المتواضع، فتارة يتلو مقالة في المعهد العلمي عن الآثار المصرية القديمة، وتارة يتنزه في الطريق برفقة أحد العلماء الأعلام، متمثلا بالمثل اللاتيني القائل "القلم أفضل من السيف" (**Cedanl arma logae**) والسبب في كل ذلك أن خطته كانت أن يظهر للناس أنه ليس المقامر بالدول فقط، بل هو أيضاً الرجل الضليع في فنون الحياة السلمية، المتعطش للعلم، المجل لطبقة المفكرين. كذلك قضى نابليون عدة أسابيع يرقب عن كثب مجرى السياسة في العاصمة الفرنسية، ويتعرف مبادئ كل حزب دون أن ينضم لأحدها؛ وإذ عرف أن بين رجال حكومة الإدارة رجلا يدين بمبدئه، وهو الأب سييس (**Abbé Sieyès**)، تآمر معه على إحداث انقلاب بريمير[٢].

ليس من المأمون القضاء على دستور مهما يكن مرذولا بدون عناية خاصة بدقائق تلك العملية. أما المتآمران فكان أحدهما رجلا جُبل على العمل، وارتكن على قوة السيف؛ وكان الآخر فيلسوفاً أراد أن يبني نظاماً يقوم على تعادل السلطات، فاتفقا بداءة ذي بدء أن كلا منهما يريد أن تسقط حكومة الإدارة بكيفية لا تُمس معها ميل الأمة نحو الجمهورية. هنا وهنا بالضبط كانت صعوبة المشروع: ذلك أن التشيع للجمهورية كان حتى ذلك الوقت أقوى العوامل السياسية في فرنسا، وكان القواد أمثال جوردان ومورو، واثنان من أعضاء حكومة الإدارة الخمسة، والغالبية العظمى في مجلس الخمسمائة لا يدينون بغيرها، وما كان لأي انقلاب أن ينجح إذا حاول أن يثير المسألة التي

---

(١) المقصود هنا واقعة أبي قير البرية التي انتصر فيها نابليون على الأتراك (انظر ص ٧٦).

(٢) بريمير ثاني شهور السنة في تقويم الحرية الفرنسية.

فصلت فيها الغالبية الساحقة من الرءوس المشتغلة بالسياسة في فرنسا بإلغاء الملكية. على ذلك كان من الضروري السير في كثير من الحذر؛ وإذ كانت سن بونابرت لا تؤهله لعضوية الإدارة، فقد رؤى أن يُحمل الأعضاء على الاستقالة جميعاً، وأن يعهد المجلسان التشريعيان بمجرد ذيوع ذلك الخبر، إلى مدبري المؤامرة إعادة النظر في الدستور.

كانت الخطة بسيطة وقائمة على الجرأة؛ لكنها تطلبت سلسلة من الدسائس الخطرة، تتمها فعلة فجائية تبين للناس أن يد البطش بالمرصاد. على أن البحث الدقيق أسفر عن أن ثلاثة من رجال الإدارة لا يعتمد عليهم، وأن ستين من مجلس الشيوخ يشك في مبدئهم، وأن مجلس الخمسمائة لا يرجى منه شيء، وأن الحالة النفسية بين العمال اليعقوبيين صيرت باريس ميداناً خطراً لأي محاولة ضد المبادئ اليعقوبية. بناء على ذلك تقرر أن يستعمل مجلس الشيوخ حقه الدستوري لتقرير نقل الهيئة التشريعية من باريس إلى ضاحية سان كلو (St. Cloud)، بحجة وجود مؤامرة في باريس تهدد استمرار جلساتها. هناك في مأمن بعيد عن مصانع باريس، والنفسية المضطربة بين عمالها، وفي وسط حديقة امتلأت بجنود نابليون الذين عركتهم الحروب وطبعتهم الطاعة، صحت عزيمة نابليون على أن ينتزع من آخر مجلس ثوري في فرنسا صك القضاء على نفسه. نفذت الخطة بالتمام يومي ١٨ و١٩ بريمير (٩ و١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٩)، وهما من الأيام الخالدة في التاريخ لموافقتهما أول عهد امتلاك نابليون ناصية الأمور. وتفصيل ما حدث أنه بمجرد قرار مجلس الشيوخ، صبيحة ١٨ بريمير، ركب نابليون في موكب فخم من الفرسان إلى التويلري، حيث أقسم أن يقيم الجمهورية على مبادئ الحرية والمساواة. بعد ذلك أفضى لناموس أحد رجال الإدارة، وقد سعى لمقابلته في حديقة القصر، بكلمات رددت صداها أنحاء

فرنسا قال: "ماذا فعلتم بفرنسا التي تركتها مزدهرة؟ تركتها والسلام يخيم على ربوعها، وعدت إليها فإذا الحرب بها! خلفت لكم النصر فعدت لأرى الهزيمة! حملت إليكم ثروة إيطاليا وهأنذا أجد النهب والبؤس!". لكن في اليوم التالي اجتمع أعضاء المجلسين التشريعين في سان كلو، والغضب يملأ جنوبهم، والشكوك تساورهم، لما وجدوا أنفسهم محاصرين بجيش معاد، بحجة مؤامرة خالجهم الشك في حقيقة وجودها، لتأييد مشروع رأوا أنه سيؤدي إلى سيطرة القوة الغاشمة. لذلك لم تصادف دعوة نابليون هوى في نفوس المشرعين المجتمعين؛ والدليل على ذلك أنه بعد أن واجه نابليون مجلس الشيوخ بخطبة مفككة مضطربة، ظهر فجأة في الأورانجيري[1] (**L'Orangerie**)، حيث كان مجلس الخمسمائة منعقداً برآسة أخيه لوسيان، فعلا الضجيج حوله، حتى أغمى عليه وحمل إلى خارج المكان. من حسن الصدفة أن كان لوسيان في كرسي الرآسة بالقرب من أخيه، إذ خدمت بلاغته الرائعة المزيفة نابليون، وبذلك أثر لوسيان مرة ثانية في حياة أخيه[2]. ذلك أنه بينما كان الأعضاء يرفعون الصوت عالياً، لاستصدار قرار بحرمان نابليون من التمتع بحماية القانون، انسل لوسيان ولحق بأخيه في الحديقة، وناشد الجيوش أن تنقذ المجلس من زمرة اللصوص الجسورة الذين استأجرهم بت (**Pilt**) رئيس الوزارة في انجلترا، ليقضوا على حريته. صادفت المهزلة مرتعاً خصيباً، وصدق السامعون الكذبة؛ إذ لم تمض بضع دقائق بعد الذي حدث أصيل ذلك اليوم القاتمة سماؤه، حتى كانت

---

(1) حديقة خاصة بها بيوت زجاجية لتربية أشجار البرتقال على جو اصطناعي، نظمها مانسار (**Mansart**) المهندس الفرنسي الشهير الذي عاش من سنة ١٥٩٨ إلى ١٦٦٦، وكانت تحتوى الحديقة على ثلاثة أقسام، وتسع ١٢٠٠ شجرة ببيوتها الزجاجية.

(2) أثر لوسيان في حياة أخيه نابليون لأول مرة عند ما وشى بالزعيم باؤولي (انظر ص ١٦)، مما أدى في آخر الأمر إلى رحيل أسرة بونابرت كلها من قرشقة إلى فرنسا.

الحراب تلمع في أيدي الجنود المصطفة عند مدخل الأورانجيري، وحتى كان أعضاء المجلس بأرديتهم الحمراء يتدافعون، ويتقاطرون صوب الأبواب، ويقفزون من النوافذ، لا يلوون على شيء غير الاختفاء في ظلام الأشجار، حتى غابوا عن الأنظار ونسيهم التاريخ. في غرة فجر اليوم التالي، اجتمعت لجنة صغيرة من أعضاء المجلسين من أنصار تعديل الدستور، وقررت تأليف حكومة مؤقتة يكون أعضاؤها نابليون وسييس وروجيه ديكو (**Roger Ducos**)، ريثما يتم إعداد قوانين أساسية. بذلك، وبدون إراقة قطرة دم، ينتهي حكم اليعقوبيين الذي طال، وذلك ما كانت تتوق إليه البلاد.

كان الدستور الذي وضع بعد مضي شهر على ما حدث، مستكملا مظهر الحرية السياسية، على رغم وضع السلطة العليا في يد بونابرت. ولما كانت روما معتبرة المثل الأعلى للنظم الجمهورية، فاحتراماً لذلك الاعتبار، لُقبت أعضاء السلطة التنفيذية في الدستور الجديد بالقناصل، وأنشئ إلى جانب هيئة الحكومة مجلس التربيون لمناقشة مشروعات القوانين، ومجلس الشيوخ للسهر على الدستور. غير أن تلك النظم الشبيهة بالرومانية لم تخدع ذوي العقول الراجحة في البلاد،ولم يغرهم زخرفها الذي دبجه حذق سييس؛ لأنها كانت كلها ترمي إلى تسرب قوة الرأي العام بالتدريج نحو جهة رئيسية وهي الحكومة. ذلك أن القنصل الأول، ومدة ولايته عشر سنوات، أصبح رئيس الحكومة، فيختار الوزراء ويدير دفة الأمور، ويضع خطة السياسة العامة. أما السلطة التشريعية الحقيقية، فلم يكن في أيدي مجلس التربيون الذي كان له حق المناقشة وليس له حق التصويت، كما أنها لم تكن في أيدي الهيئة التشريعية التي كان لها حق التصويت ولم يكن لها حق المناقشة، بل في أيدي مجلس الدولة المكون من أعضاء أخصائيين في التشريع، يناط بهم تحت رآسة القنصل الأول تحضير

القوانين وصوغها. وفوق ذلك لم يمنع تضامن أعضاء الهيئة التنفيذية العليا من الجنوح إلى الاستبداد بالأمر، لأن زملاء نابليون في الحكم لم يزاحموه في سلطته، ولم ينقدوا سياسته؛ بل كان الأول، واسمه كامباسيريس (**Cambacérès**)، عالماً قانونياً قديراً، أصله من حزب اليعقوبيين قتلة الملك، يصرف جل وقته في تمتيع نفسه بما لذ وطاب من المأكل والمشرب. أما الآخر فاسمه لبران (**Lebrun**)، وكان عالما مثقفاً متواضعاً من أنصار الملكية القديمة، طواه نابليون تحت جناح حظه الطائر، واتخذه كبرهان على أن أمثال تلك السوابق لا تحول دون الانضواء تحت لواء العهد الجديد.

كان شعار الحكومة الجديدة الذي حل محل شعار الثورة: العظمة والتسامح والكفاية. ولا عجب فالديموقراطية لم تعدم رجالا محنكين في فنون السياسة، يعرفون كيف يستهوون عقول الشعوب بالأقوال الخلابة. لكن نابليون كان فضلا عن ذلك أول الساسة وأميرهم في فن تحلية الحكومة في عين الرأي العام. ذلك أن كان واضعا نصب عينيه صورة مجد روما السالف، تتيه بين أسلاب فتوحها التي امتدت إلى أقصى المعمورة، وتبنى الجسور والحمامات والملاعب المصنوعة مدرجاتها من الرخام، والقنوات الهائلة في أنحاء أوروبا الرومانية. وإذا كانت روما صاحبة تلك العظمة في الماضي، فأخلق بباريس أن تكون كذلك في الحاضر. هذا إلى اعتقاد نابليون أن فن السياسة لا يقتصر على وضع القوانين وإدارة شؤون البلاد، بل يشمل أيضا ما يجب أن يتركه السلف للخلف من ذكريات ظاهرة للعظمة التالدة. لكن فكرة جعل باريس عاصمة الفنون الأوربية، وكعبة طلاب العلم، يرجع عهدها لحكومة الإدارة؛ وساعد على إنضاجها ما حمله نابليون من التحف والنفائس إلى باريس أثناء الحرب الإيطالية الأولى. أما وقد أصبح هو المسيطر على فرنسا، فليس ببعيد أن تأتي فتوحه

العظيمة بما يزيد باريس بهاء. فوق تلك الفكرة أضيف مشروع لإظهار مثل جديد للعالم، بما قد تصل إليه البلاد من التقدم في الأعمال العامة والفنون الصناعية، بفضل تشجيع حكومة رشيدة تحب العظمة وتنشدها.

كان الركن الثاني في عقيدة نابليون، أن تقوم الحكومة على قاعدة التسامح. ولا عجب فرجال الحرب، الذين يتلقون دروسهم السياسية في ميادين القتال، لا يهمهم فيمن يستخدمون اختلاف النزعات الدينية أو السياسية. وكذلك اختار نابليون رجال حكومته، كما اختار كرومويل جنوده قبله، على مبدأ التسامح الواسع؛ وقصد أن يتمتع اليعقوبيون والجيرونديون والملكيون على السواء بحماية القانون، وأن ينبذوا التباغض الحزبي الماضي في ظل حكومته المنظمة. ومن أعماله في ذلك الصدد أن خففت القوانين ضد المهاجرين، وبدأ الكاثوليك يشعرون أن عهد الاضطهاد قد مضى، وأن الحكومة الجديدة تميل إلى مجاراة أميال الأمة الدينية، فجاء كل ذلك مصداق قول نابليون: "لا مجال للعواطف في أمور حكومتي".

أما في الكفاية الإدارية، فلم ير العالم أقدر من نابليون. ذلك أن كفاية الرجال لا تنحصر في بذل الجهد، والنظام، وتفهم أصول الأشياء، والاهتمام بدقائقها فقط، بل تتوقف أيضاً على خلتين نادرتين، وهما القدرة على إثارة الحماسة، وعلى الأمر والنهي بين الناس. كان نابليون عند الضرورة يكب على عمله ثماني عشرة ساعة من أربع وعشرين ساعة، حتى قال عنه شابتال[1]: "كثيرا ما كانت تستمر هيئة المجلس معقودة برآسته زهاء ثمان أو عشر ساعات،

---

(1) جان أنطوان شابتال (**Jean Antoine Chaptal**) سياسي فرنسي شهير، أصله أستاذ للكيمياء في جامعة مونبلييه من سنة ١٧٨١، وعمل في الثورة حتى صار وزير الداخلية سنة ١٨٠٠، ثم اعتزل الحكم سنة ١٨٠٤، وبقى كذلك حتى مات سنة ١٨٣٢.

يحمل هو في أثنائها عبء الكلام والمناقشة". وما رآه إنسان في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار، أو على أثر أي عمل جهيد، إلا وجد ذهنه حادا يقظا. هذا وكانت مناقشاته للخبراء سريعة ودقيقة وتامة الوضع، وكان صبره بحيث لم يعالج أمرا وتركه قبل معرفة حقيقته. ولما كان معتدلا في عاداته، لا يميل لنوع خاص من الطعام، ولا يجلس إلى مائدته أكثر من اثنتي عشرة دقيقة غلا إذا استهواه الحديث، فإنه كان أعجوبة ونموذجا لمرءوسيه. ومع أنه لم يتعلم تعليما منتظما، ولم يعرف من اللغة اللاتينية غير القليل، ومن اللغة الإغريقية شيئاً، ومع أنه كان كثير اللحن في نطق الكلمات الفرنسية، كأن يقول كلمة (**Seclion**) بدلا من (**Scssion**) وكلمة (**Fulminant**) بدلا من (**Culminant**) وكلمة (**Voyageres**) بدلا من (**Viagères**)، فإنه على رغم ذلك لم تمض عليه بضعة شهور حتى دان لرأيه أقوى الرءوس حنكة في باريس. وكان ثقته في نفسه لا حد لها، وتلك ميزة من ميزات الرجال؛ فكان كلما اختلف مع أعضاء مجلس الدولة في رأي، ضرب رأسه قائلا: "أن هذا الرأس أداة أنفع لي من نصيحة نفر يعدون أنفسهم مدربين منحكين". ولذا كان يعمل برأيه، مسترشدا بنور بصيرته، معتمدا على دقة ذاكرته الواسعة، وحدة فهمه وصفاء ذهنه؛ وهو في أثناء ذلك لا يني عن تغذية نفسه بالأشياء العلمية، التي كان لها عنده المكان الثاني بعد الأمور العملية. وكان دقيقا جدا وشديداً في أمور المالية والحسابات، حتى أصبح كل موظف في الحكومة يشعر أن زمن التهاون قد انقضى، ويجد في العمل كأن عين نابليون ترقبه وهو جالس إلى مكتبه. وكان ملما بالأمور الخاصة بالإدارة صغيرها وكبيرها، غنيا عن مساعدة مرءوسيه في معرفة دخائلها. هذا ولم يكن له مثيل في القدرة على تسيير روح العمل، التي هي أهم من العمل نفسه. ولم تكن السرعة البالغة التي كان يملي بها رسائله الحربية على ناموسه، مقللة من قيمة تلك الرسائل، التي كانت دائماً

موجزة حاسمة، ليست بالخرقاء ولا بالغامضة، بل تتم بوضوح عن طبيعة صاحبها، حتى أن القارئ الذي يطلع على صحيفة منها، ليشعر كأن يسمع ذلك الصوت القوي المهيمن، فيمتلئ حمية مما يفيضه عليه ذلك العقل المتوقد.

ربما كان من اللازم لإعادة حكومة رشيدة في فرنسا، ألا يعرقل إرادة نابليون وجود سلطات محلية. وذلك أن النظام الذي يستند إلى وجود مثل تلك السلطات، لا يصلح بدون وجود عنصر الأشراف، أو على الأقل بدون وجود ثقة متبادلة بين الحاكم والمحكوم. غير أن شيئا من هذين العاملين لم يكن حاصلا في سنة ١٧٩٩، لأن الثورة الفرنسية قضت على أشراف فرنسا، وبذرت بذور العداوة والانقسام في طول البلاد وعرضها. لذلك التجأ نابليون بحكم الظروف للرجوع إلى السياسية المركزية، التي كانت المظهر الرئيسي للحكم الفرنسي منذ أيام ريشيليو؛ فأصبح الوالي في مقاطعته، والحاكم في دائرته، والمحافظ في مدينته، صنائع ذلك النظام المركزي، وآلات خاضعة لإرادته. ذلك هو الاستبداد بعينه؛ لكن ربما كان من المحال علاج الحميات السياسية السامة، التي اضطربت في جسم الأمة الفرنسية أثناء العشر السنوات الماضية، بدوا أخف مفعولا.

ولم تكن هناك أي فكرة للرجوع إلى نظام العهد القديم. ولا غرو فإن من أكثر الحسنات التي أغدقها نابليون، أن النظم الرديئة التي قامت عليها الامتيازات الاجتماعية، والتي قضى عليها القضاء الأخير في أول مجلس ثوري، لم تجد مكاناً بين نظم نابليون، وأن أصبح الفلاح الفرنسي، في ظل حكومة نابليون القوية، متحققا من جديد استحالة رجوع عهد الإرهاق بما فيه من قوانين الصيد، ومحكمة الملتزم، وضرائبه المجحفة. من تلك الحسنات أيضاً وسام الشرف (Legion d' Honneur) الذي جعله نابليون وساما غير وراثي للأنعام به على ذوي الخدمات الحربية والمدنية، ليكون بمثابة محرك للهمم، وعدة

في يد الحكومة، على رغم ما تقول به دعاة المساواة المطلقة. قال نابليون في ذلك الصدد: "تلك الصغائر هي التي تسلس قياد الرجال". هذا ولم يحدث نابليون تغييرا جوهرياً في قانون الميراث الذي خلفته المجالس الثورية، بل جعل القانون المدني يتمشى مع فكرة أساسها الشرعي تقسيم التركة بالتساوي، مع بقاء جزء منها يتصرف فيه المورث كما يشاء. ثم من المعلوم أن التجارة والصناعة كانتا في عهد الملكية مرهقتين بقوانين النقابات[١]، وبضرائب المرور الداخلية[٢]، وبالنظام المالي الذي كان توزيعه سيئاً لدرجة أن أثقل أعبائه كان على أقل الناس مقدرة على حمله. جاءت الثورة الفرنسية فاكتسحت تلك المظالم في قسوة وسرعة، فلا ترى لها من باقية؛ وجاء نابليون فلم ينس أنه مهما تكن فرنسا متساهلة في حريتها السياسية، فهي لن تسمح بإرجاع نظام الامتيازات الاجتماعية. لذلك جعل "باب الترقي مفتوحا للمواهب" لاعتقاده أن ذلك هو المعيار الوحيد للديموقراطية، والسر الأكبر في حسن السياسة، حتى يُضمن لكل مواطن، مهما يكن وضيعاً أو مقطوع الحسب، إمكان الرقي إلى أكبر الوظائف والمراكز في الدولة.

إذا كان ثمت حاجة بعد ذلك للدلالة على استمرار تأثير الثورة الفرنسية، فليس أدل من نظام توزيع الأرض الذي وضعته الثورة، وأقره نابليون وثبته في

---

(١) النقابات القديمة تختلف في أغراضها عن النقابات الحديثة التي تقوم من أجل حماية مصالح العمال في أكثر الأحيان. أما النقابات القديمة فكان غرضها حماية مصنوعاتها، ولذلك كان جل عملها مزاحمة النقابات التي تخرج مثل مصنوعاتها، واحتكار الأسواق وأمكنة المواد النقل، مما يؤدي إلى تعطيل التحسن والتوسع الصناعي.

(٢) كان في فرنسا قبل الثورة نظام جمركي بين المقاطعات، فإذا أرسل تاجر من مقاطعة في الجنوب بضائع إلى باريس مثلا، كان يدفع ضرائب مرور عدة على حدود كل مقاطعة تمر بها بضائعه. وظاهر تأثير مثل تلك التضييقات في رفع أثمان الحاجيات وإضعاف حركة البيع والشراء.

أصول القوانين. وفي ذلك دليل على أنه لم يجنح نحو الرجعية، بل نحو مبادئ الثورة، في المسألة التي تمتاز عن جميع المسائل الأخرى بمساسها كيان المصالح الحيوية في البلاد. فلم يفكر يوما في حمل الفلاحين على إرجاع الأرض التي كانت تابعة للكنيسة والأشراف، والتي آلت إلى الفلاحين أثناء الاضطرابات في العشر السنوات السابقة، إما بالابتياع بثمن بخس، وإما بدون حصول عقد مبايعة مطلقاً؛ بل عمل نقيض ذلك، لأنه كان من أهم أركان سياسته تعزيز تلك الحقوق الغامضة المختلف في صحتها، وعدم الاقتصار على جعل الحكومة تحمي ذمار الفلاحين، بل وجعل الكنيسة التي انتزعت منها أملاكها قسرا تقر ذلك العمل وتوافق عليه. وما كان ثمت سياسة أمثل من استمالة أكبر المصالح الاقتصادية وأهمها في فرنسا نحو الحكومة الجديدة، إذ أصبح كل فلاح يعتبر نابليون حاميه. وكما أن الإصلاح الديني في انجلترا، زمن آل تيودور، توطدت دعائمه بتوزيع أسلاب الكنيسة الكاثوليكية ونفائسها على طبقة الملاك الجدد، كذلك كانت الحماية التي شمل بها القنصل الأول أصحاب الحقوق الملكية الجديدة الممنوحة إبان الثورة، خير كفيل للأمة بأن النظام القديم لن يعود.

كانت الأحوال تدعو إلى الإصرار على إقامة تلك الأشياء اللازمة للحكومة الديموقراطية الجديدة، لاسيما وأنه كان في عزم نابليون أن ينبذ كل ما عداها من مستحدثات الثورة. من ذلك خطته نحو الكنيسة، التي صادف من أجلها انتقاداً أشد مرارة مما صادفه في كل أعماله: ذلك أنه أصبح من أوضاع العصر، لا بين الطبقة المتعلمة فقط بل وبين الطبقة العاملة التي كانت لها اليد العليا أثناء الثورة، نبذ الديانة كفرية غير جائزة، واعتبار الكنيسة أداة للجهالة والامتيازات والظلم، يجب إضعاف نفوذها، وتشديد المراقبة عليها. لا مغالاة في كل ذلك، فإن الطبقات المتنورة في باريس، ومعظم قواد الجيش وضباطه، وجانباً

كبيراً من رجال السياسة النابهين، كانوا إما كفاراً أو مستهترين بدينهم، يعتبرون القسيس فريسة الخرافات العتيقة وحليف الأجانب، وعدو وطنه. وقد تجلت تلك العقيدة في أعمال المتشرعين ورجال الحكومة إبان الثورة: ففي عام ١٧٩٢ نزعت الجمعية الأهلية أملاك الكنيسة وحبست عليها أوقافا محدودة، وأرغمتها على قبول نظام ديموقراطي جائز بالنسبة إلى نظام عهد الحواريين في المسيحية الأولى، لكنه يخالف كل المخالفة نظم الكنيسة وعقائد الكاثوليك في القرون الحديثة. لذلك امتنع في أنحاء البلاد كل كاثوليكي شريف غيور على دينه عن حلف يمين الطاعة للنظام الجديد، فاضطهد بكل ضروب لاضطهاد الممكنة في ذلك العصر، ولكن بلا جدوى كما هي الحال في عهود الاضطهاد غالباً. ظل انقسام الكنيسة قائما، وأخذ المتمردون من رجال الدين يقيمون شعائرهم في الحقول والغابات، ويشنعون على الذين قبلوا النظام الجديد وكنائسه الخالية. ثم حدث أن المرتبات الضئيلة، التي كان يتقاضاها الذين قبلوا النظام الجديد، أصبحت فوق طاقة الخزينة الخاوية. لذلك ألغت الحكومة الكنيسة الكاثوليكية، وأعلنت حيدتها فيما يتعلق بأصول الدين؛ ولكيلا يستهدف النظام الجديد للخطر من جراء إظهار الشعائر الدينية، تقرر ألا يسير أي قسيس في موكب بردائه الأبيض الفضفاض في الطرقات العامة، وألا تُدق نواقيس الكنائس إيذانا بدعوة الناس للعبادة.

بيد أن نابليون كان لا يقبل الرأي القائل أن الدين قوة دنيوية زائلة، على الرغم من بقاء العقيدة اللا أدرية في نفسه منذ حداثته. ذلك أنه كان يعرف تاريخ حوادث لافنديه، وشهد الفلاح الإيطالي في معبده، ورأى شدة إيمان الفلاحين بالقديسين في أنحاء البلاد الكاثوليكية، واعتقادهم الراسخ في المعجزات، وفي ألوهية سلطة البابا في روما، وفيما لشفاعة السيدة العذراء عند

الله من التأثير. والسياسي المحنك يعلم ما لتلك القوى الروحية المسيطرة على نفوس الفلاحين وعساكر الجيش من الأهمية، فيستميلها ويجعلها في قبضته؛ لأن الدين ليس كنظريات الكيمياء إذا قدمت نبذت، بل هو "سر النظام الاجتماعي" وهو "الوقاية" ضد الأفك والشعوذة، وهو القبس المضيء، الذي جعل طريدي الحياة يطيعون أناسا لولاه ما أطاعوهم.

بينما يتنزه نابليون ذات ليلة مع أحد أعضاء مجلس الدولة، إذ فتح معه باب الحديث في موضوع الدين قال: "كنت هنا يوم الأحد الماضي، أسير وحدي والطبيعة ساكنة، فقرع أذني فجأة صلصلة ناقوس كنيسة رويل (**Ruel**)، فحركت شجني؛ والمرء أسير عادته وتربيته الأولى. قلت لنفسي ما أروع هذا الصوف في نفوس المتدينين! لعمري كيف يعلل فلاسفتكم وذوو الرأي فيكم هذه الظاهرة؟ ينبغي أن يكون الناس على دين تتولاه الحكومة... قد يقولون إني كاثوليكي، ولكني لست شيئا من ذلك. كنت مسلما في مصر، وسأكون كاثوليكيا هنا، جريا وراء مصلحة الأمة. أنا لا أعتقد في الأديان... بل في فكرة وجود الله". ثم أشار بيده نحو السماء وقال: "الذي خلق كل هذه الأشياء". ولا عجب فرجل الدين هو الحليف الطبيعي للحاكم المدني في جميع العصور والأجيال، لأنه يثبت روح الطاعة في النفوس، ويشرح للناس "الوسائل الخلقية المؤدية للاتحاد"، لا "العقائد التي تقسم الناس شيعا"، ويساعد أبناء الكنيسة بما يعرف من قانون وزراعة وطب، ويعمل بقوة تأثيره على تثبيت النظام الاجتماعي. كان نابليون يعرف كل ذلك: إذ قال ذات يوم "هنا خمسون أسقفاً من المهاجرين تجود عليهم انجلترا بالمال، وهم الآن قادة الأكليروس الفرنسي، يجب القضاء على نفوذهم، وهذا يتطلب موافقة البابا".

من أجل تلك الأسباب، وأسباب أخرى، عزم نابليون على مصالحة البابا،

فبدأت المفاوضات في باريس في جو من التصلب والدهاء من جانب الكرادلة الإيطاليين، ومن المخادعة الممزوجة بالغدر من جانب نابليون. ثم قبل الطرفان في أغسطس سنة ١٨٠٢ الاتفاقية، التي بقيت أساساً للعلاقات بين الكنيسة وفرنسا لمدة ثلاث ومائة سنة. كان مضمون الاتفاقية أن اعترف البابا برجال الدين الدستوريين[1]، وبالأوقاف المحدودة، وبنظام توزيع الأرض إبان الثورة. في مقابل ذلك أعاد القنصل الأول الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا، وضمن حق إقامة شعائرها جهراً، واعترف بأنها دين السواد الأعظم من الفرنسيين. على أنه كان حينئذ– كما هو حاصل الآن– خصوم كثيرون للمبدأ الذي دارت عليه الاتفاقية؛ لكن من المتعذر إنكار مزايا اتفاق خفف من فزع الفلاحين، ومحا الانقسام الداخلي في الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا، ووفق بين الكاثوليك وحكومة ذلك العهد، إذا استثنينا طائفة لا تذكر ممن رفضوا حلف اليمين الجديدة. وبالجملة "لقد عادت المحاريب سيرتها الأولى"، كما قال نابليون؛ غير أنه سرعان ما شعر رجال الدين بأنهم دفعوا ثمناً باهظاً إزاء الاعتراف بهيئتهم: إذ تلى الاتفاق فجأة سلسلة "قوانين سياسية" جعلتهم مكتوفي الأيدي، فأصبحوا آلات مسخرة لحكومة واسعة السلطان.

قبل ذلك كان نابليون قد حدد موقفه إزاء الروح السياسي المتمرد الذي هو وليد الثورة وتراثها. ذلك أنه بينما كانت كل مناصب الحكومة، من رياسة قرية إلى عضوية مجلس الدولة، مفتوحة لحزبي اليعقوبيين والملكيين الذين انضموا للحكومة، إذ أوصدت أبواب التسامح والعدالة في وجه من لم يصالحها. وكانت نتيجة ذلك، أنه لما حدث في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٠٠ محاولة اغتيال القنصل الأول، وهو راكب عربته قاصداً دار الأوبرا، لم توجه التهمة إلى الملكيين–

---

(1) هذه الكلمة كانت تطلق على القساوسة الذين قبلوا النظام الجديد الذي سنه الدستور.

الذين دبروا المكيدة، ولم يسفر البحث عن نسبة المؤامرة إليهم- بل وجهت إلى النواب المتطرفين المتصلين باليعقوبيين، المعروف عنهم أنهم ذوو خطر على البلاد. وسرعان ما حصرت التهمة فيهم؛ وسرعان ما أبعد نابليون مائة وثلاثين يعقوبيا من غير إثبات مادي ضدهم، لا للتكفير عن سابق إساءاتهم، بل كضمان يمنع الإجرام في المستقبل. قد نلتمس العذر للرجل الذي يروح ويغدو وهو مهدد دائماً بالاغتيال، إلا أن علاج الكبائر بما ينافي روح العدالة يشف عن جهل تام بقواعد السياسة.

كان الملكي أقل خطراً من اليعقوبي، وإنما كان أقل منه مرونة للانضواء في نظام الحكومة الجديد. وكانت كعبته لندن، ومسرح أعماله العدائية الأقاليم البرية الكثيفة في غرب فرنسا، حيث كانت قوته تستند إلى إخلاص طبقة الفلاحين البائسة، وإلى عطف كاثوليك العالم رجالا ونساء. لذلك كان الهم الأول للجمهورية الفرنسية القضاء على الفتنة في لافنديه، والهم الثاني النجاة مما يوجه نحوها من الضربات غير المنظمة بالمؤامرات الدولية. أدى بعض التساهل في المسائل الدينية إلى ظهور بارقة السلام على ربوع المناطق الغربية قبل أن يعود نابليون من مصر، وعلى ذلك فليس له فضل التوفيق وإغماد السيوف إلا في أدوارهما الختامية. غير أن ذلك النجاح العظيم في حسم نزاع امتاز في كل أدواره بوحشية غريبة، قد عكر صفوه جريمة القبض على فروتيه (**Frotté**)، الذي كان أكثر زعماء الملكيين جرأة وأصلبهم عوداً؛ قُبض عليه وهو ذاهب إلى ألنسون (**Alençon**) بعد إخلاء سبيله؛ ثم حوكم أمام محكمة عسكرية، وأعدم ومن معه من الأتباع رميا بالرصاص. إنا وإن كنا لا نستطيع إثبات صدور أمر بشأن تلك الحادثة من نابليون، إلا أننا نعرف أن الضابط الذي دنس شرف بلاده العسكري بتنفيذها لم يُوجه إليه أي تكدير.

**كانت تهدئة لافنديه سنة ١٨٠٠ هدنة أكثر منها تسوية نهائية. يثبت ذلك أنه لما أصبح من الواضح أن نابليون لن يلعب دور الجنرال منك الانجليزي[١]، ابتدأ المتهورون من حزب الملكيين يتآمرون على التخلص منه بطريق القوة. كان محور تلك المؤامرة، التي كان غرضها في الحقيقة قتل نابليون، هو الكونت دارتوا[٢]، ذلك الأمير الفرنسي الذي ظهر جبنه وطيشه وتأثره بالأوهام في كل أدوار حياته، التي كانت معرة له، ومجلبة المصائب لأتباعه. كان أعوانه وشركاؤه الرئيسيان الجنرال بيشجرو[٣] فاتح هولندا إبان الثورة، وجورج**

---

(١) ولد جورج منك (**George Monk**) عام ١٦٠٨ في مقاطعة دفن (**Devon**) في الجنوب الغربي من انجلترا. وهو جندي شهير بدأ حياته العسكرية سنة ١٦٢٥، وكان ملكيا ممالئا لآل ستيوارت. ثم انقلب جمهوريا وانضم إلى كرمويل زعيم الثورة الانجليزية، وأعجب كرمويل بمهارته الحربية فناط به إخضاع اسكتلندا الملكية. وفي سنة ١٦٥٤ عينه كرمويل حاكما على اسكتلندا، حيث أظهر حزما وطيبة حببا فيه الناس. ولما مات كرمويل سنة ١٦٥٨ ساد الاضطراب في أنحاء الجزر البريطانية، فانتهز منك الفرصة وعبر الحدود الاسكتلندية إلى انجلترا، ودخل لندن سنة ١٦٦٠ على رأس ستة آلاف اسكتلندي دون أن يلقى مقاومة. هناك ظلت سياسة مجهولة حتى وجد الفرصة سانحة لتأييد فكرة إعادة آل ستيوارت. وقد نجح منك ورجعت الملكية المطرودة، وتبوأ شارل الثاني عرش انجلترا. وفي العبارة الأخيرة وجه الشبه الذي أراده الملكيون في فرنسا من نابليون.

(٢) الكونت دارتوا (**Comte d'Artois**) هو ثاني أخوة لويس السادس عشر. وقد تولى عرش فرنسا سنة ١٨٣٤ ولقب شارل العاشر.

(٣) ولد شارل بشجرو (**Charles Pichegru**) سنة ١٧٦٣. وأبوه عامل فقير، أرسله إلى المدرسة الحربية في برين، التي تخرج منها والتحق بسلاح المدفعية، وأظهر شجاعة عظيمة في خدمة جيوش الثورة، فارتقى بسرعة إلى رتبة قائد سنة ١٧٩٣. إلا أن أمياله كانت دائماً ملكية، واشتمت منه حكومة الإدارة الخيانة فنفته، غير أنه هرب إلى انجلترا، ومنها ذهب إلى ألمانيا، حتى كانت مؤامرة جورج كادودال لاغتيال القنصل الأول، فجاء إلى باريس لتنفيذ المؤامرة، وحاول عبثاً مع كادودال استمالة القائد مورو للاشتراك معهم. ثم كشفت المؤامرة في

كادودال (George Cadoudal) أحد أبطال الملكيين المتمردين في لافنديه، وهو الذي خاطر مراراً، بجسمه البدين وبرقبته العريضة، في غمار المكامن والملاحم في غرب فرنسا، فلا ينتظر أن ينثني عن المغامرة في خطر الاشتباك في معركة مع حرس نابليون. بيد أنه كان من المتعذر إنفاذ المؤامرة، كما هي الحال في كل مؤامرة واسعة النطاق. ذلك أنه قبل أن ينزل جورج كادودال ورجاله على شاطئ فرنسا، كانت شرطة نابليون قد أحاطت علما بنياتهم، وعرفت كيف كان في عزم الجناة قتل القنصل الأول، أو أخذه حياً في وسط معركة في الطريق، وكيف كان الأمل معقوداً في مورو ليقبل حين إذ ذاك التقدم إلى الميدان وإعادة الملكية، لأنه كان أعظم القواد الذين أسفوا لازدياد الحكم المطلق. ولكن سرعان ما ألقى القبض على المتآمرين الحقيقيين والمزعومين، وقدموا للمحاكمة، فكان الإعدام جزاء وفاقا منتظراً لجورج ورجاله الاثنى عشر الأشداء. أما بيشجرو فمات في السجن، ويحتمل أن يكون هو الذي انتحر. أما مورو فحكم عليه بالسجن على رغم ما قام به من الخدمات للثورة الفرنسية، مما يعدل ما قام به بومبي[1] من الأعمال في خدمة روما القديمة؛ ثم خُفف الحكم بأمر نابليون

---

فبراير سنة ١٨٠٤، وسيق الجناة إلى سجن الهيكل في باريس. وفي ابريل وجد بشجرو في السجن ميتاً حيث عاجل الحكم عليه بالانتحار، على أنه ليس هناك ما يدعو للاعتقاد بأن موته كان من عمل نابليون.

(١) ولد بومبي (Pompey) عام ١٠٦ ق.م. بدأ حياته جنديا في خدمة الدولة الرومانية؛ ثم اشتغل عام ٦١ ق.م بالسياسة، وعاون يوليوس قيصر وتزوج ابنته. في تلك الأثناء فتح يوليوس بلاد الغال فحسده بومبي، ولما ماتت زوجته انقطعت علاقته مع يوليوس وخالفه في السياسة وأصبح زعيم أعدائه. ثم قامت حرب داخلية بين الزعيمين هزم فيها بومبي عام ٤٧ ق.م، فهرب إلى مصر، حيث أرسل يوليوس ضابطا لقتله، ففعل حينما كان بومبي ينزل من القارب الذي أقله من إيطاليا.

بالإبعاد إلى أمريكا.

إلى هنا سارت الأمور وفق هوى نابليون، رغم ثوران عواطف الملكيين والجمهوريين. نعم إنه أُسئ إليه أكبر الإساءة، وجوزيت خدماته الجليلة لفرنسا بمؤامرة دنيئة خسيسة، انتقم لنفسه من مدبريها انتقاما كافياً لم يخرج عن حد العقوبة الزاجرة. إنما حدث في تلك الآونة أنه ارتكب جرما شنيعاً واقترف زلة كبيرة: ذلك أن تبين في أثناء التحقيق مع كادودال، أن أميراً من أمراء البيت الملكي كان منتظراً قدومه لباريس، ليكون زعيم المؤامرة؛ وحامت شبهات الشرطة حول الدوق دانجيان (Due d'Enghien)– الشاب الذي كان يسكن مدينة إتنهيم (Ettenheim) من أعمال ولاية بادن الألمانية على حدود فرنسا– بناء على معلومات غير صحيحة، بأنه على اتصال بالخائن ديموريه[1]. لذلك أمر نابليون بالقبض عليه ومحاكمته وإعدامه؛ فجيء بالأمير في الساعة الخامسة من مساء ٢٠ مارس سنة ١٨٠٤ إلى فنس (Vincennes)، حيث قدم للمحاكمة الساعة الحادية عشرة؛ فما انتصفت الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي– قبل أن يجف مداد الحكم عليه– حتى زج به في خندق، وأعدم بالرصاص، ووري في حفرة كانت أعدت لرفاته قبل أن يتم

---

([1]) ولد شارل فرنسوا ديموريه (Charles Francois Dumouriez) سنة ١٧٢٩. وفي الثامنة عشرة من عمره التحقق بالجيش الفرنسي، حتى كانت الثورة فانضم إليها، وأصبح سنة ١٧٩٠ عضوا في النادي اليعقوبي. إلا أنه كان من أول الأمر معتدلا، وكان ذلك سببا في كره زعماء الثورة له. ويرجع الفضل لديموريه في إنقاذ فرنسا من أعدائها الذين أرادوا غزوها والقضاء على الثورة. غير أن انتصاراته كانت السبب في زيادة الكراهية له، لذلك اتهمته الحكومة بالخيانة واستدعته لباريس سنة ١٧٩٤. ولكي ينقذ ديموريه رقبته من المقصلة أطاع الأمر بالانضمام إلى الجيوش النمساوية. وظل بعد ذلك مدة يجوب البلاد الأوروبية، ثم ذهب بعد إلى انجلترا حيث أقام بها حتى مات سنة ١٨٢٣.

ضباط المحكمة مهزلة التحقيق معه. وهكذا لقى آخر أمراء كونديه حتفه، رابط الجأش غير هياب، مع براءته مما نسب إليه.

كان نابليون في ارتكاب تلك الفعلة، التي تشف عن قسوة طائشة، مدفوعا بعاملي سورة الغضب والدهاء السياسي. يدل على ذلك أنه قبل أن يصل الأمير إلى باريس بمدة طويلة، تبين أن الإشاعات الأولى التي أثارت شكوك رجال الشرطة لا أساس لها، وأن الأمير كان عدواً صريحاً، لا متآمراً يعمل في الخفاء. ولم يكن له يد في المؤامرة التي لم يوافق عليها، ولم يكن على اتصال بديموربيه. ثم أن سكناه بقرب الحدود الفرنسية كان لعلتين شائعتين بين شبان النبلاء، وهما الشغف بالقرب من خطيبته والولع بالصيد والقنص. غير أن نابليون، على رغم وثوقه من براءة ذلك الأمير، لم ير بدا من إعدامه رمياً بالرصاص، ليكون ذلك عبرة لأسرة بوربون وأشياعهم، حتى لا يشتركوا في التآمر. وقد قال نابليون عنهم ليلة تنفيذ حكم الإعدام: "بريد أولئك القوم القضاء على الثورة الفرنسية في شخصي، وواجبي هو الدفاع عنها، والأخذ بالثأر لها. إن زمن المجالات السياسية قد مضى، وقد أرقت الدماء كما أملى عليّ الواجب، وقد أريق دماء غيرها في المستقبل". ولقد قضت السرعة والتكتم اللذان أحاطا بتنفيذ تلك الفعلة، على أي فرصة لاستشارة الضمير، وقطعا الطريق على رجاء الذين كانوا حول نابليون؛ وأضافا أيضا إلى تأثير ذلك الدرس القاسي، فلم يجسر أمير من أمراء الأسرة البوربونية بعد ذلك أبدا على الاشتراك في مؤامرة لاغتيال نابليون، لأنهم أدركوا كيف ينتقم القرشقي لنفسه. لكن نابليون دفع ثمناً غالياً لانتقامه، كما نعرف من الذين رقبوه في تلك الساعة الرهيبة، وهو ما كان يخالجه من الشكوك المخيفة ضد العالم أجمع.

قضى القضاء أن يكون اليوم الذي طلع على تلك المأساة يوما مشهوراً

في تاريخ فرنسا، لموافقته يوم صدور القانون المدني. ولقد حقق ذلك الأثر الخالد في علم القانون، الرغبة التي طالما نشدها الفرنسيون منذ القرن الخامس عشر، وتاقوا إليها إبان الثورة، وهي رغبة التمتع بنعمة الوحدة القانونية. من المحقق أن أعضاء مجلس الدولة ساروا في عملهم على أساس خمسة قوانين، كانت أعدتها المجالس التشريعية المتتالية في أثناء الثورة ولم تنجزها. لكن على الرغم من أن نابليون لم يكن صاحب فكرة عمل قانون واحد موجز واضح عادل، فإليه يرجع الفضل في إنفاذ ما عرض عليه. ومن المعلوم أن فترة الثورات، وما يتخللها من تطاحن الأحزاب وتغير العقائد السياسية، وعدم استقرارها على حال، ليست أحسن الظروف ملاءمة ليسن القوانين؛ وأن الفرصة تسنح عندما تهدأ العواصف، ويبدو ميدان التشريع خالياً. والفضل لنابليون في انتهاز الفرصة عند سنوحها؛ فلقد تضمن قانونه أشياء خالدة، وأغفل كل ما أحدثته الثورة من النظم العرضية المتطرفة. والقانون ذاته قائم على مبدأ التسامح والإنصاف. فهو يبيح الطلاق والزواج المدني، وليس في الوجود قانون يقرر بوضوح أكثر منه قدسية ملكية الفرد، ومكانة الرابطة الأسرية في الحياة.

حمل النقاد على القانون المدني بأنه عمل سريع سطحي، وأنه كُتيب للجيب يراجع الإنسان فيه بعض قواعد قانونية عامة، وأنه لم يعالج مشاكل الحياة وعقدها، وأنه لم يتناول ازدياد تشعبات القانون الذي يستند إلى الأحكام القديمة. إلا أنه يجب ملاحظة أن العمل الذي تفرغ له الألمان في العصر الحديث خمس عشرة سنة، أتمه نابليون بكل جرأة وإقدام في أربعة شهور. ثم قد أخذ الناس عليه تهوره، ومع ذلك فالقانون المدني، مهما يكن فيه من نقص، خير من لا قانون. ولو لم يعمل في ذلك الوقت، لكان من المحتمل أن تبقى فرنسا أمة لا قانون لها حتى عهدنا الحاضر. ثم أنه لا مشاحة أن قانوناً واحداً خير من مائة

نظام قائمة على العرف، وأن المساواة خير من الامتيازات. وهذا قانون نابليون على صغره، وحصر نقطه بين دفتي كتاب صغير تسهل مطالعته على كل فرنسي وفرنسية، يرسم لنا صورة واضحة لجماعة ديموقراطية متمدينة، ويوفق بين تشريع الثورة والتقاليد العتيقة التي ورثها الخلف عن السلف.

لعب نابليون دوراً مهما في مناقشة القانون ووضع مسودته. قال عنه تيبودو (**Thibaudeau**): "إنه كان يتكلم بلا تلجلج ولا إدعاء؛ ولم يكن بأقل حجة من أي عضو من أعضاء المجلس، بل كان يعادل غالباً أكثرهم مقدرة، بما أوتيه من قوة على تفهم نقطة الخلاف، وبحصافة آرائه وقوة مساجلته؛ وكثيراً ما امتاز عنهم ببلاغة عبارته وقوة ابتكاره". ولا ننس أن نابليون تناول القانون كما يتناول الصقر طعامه، وهو يحلق في الفضاء. فكان مبلغ عدته القانونية نسخة من كتاب اللوائح والقوانين، أو مؤلف دوما (**Domat**)، استوعبها في غرفة الحارس في فالانس (**Valence**)، ورسالة أو اثنين في القانون قرأهما وهو يحارب في إيطاليا، وبعض مسامرات مع القانونين ترونشيه (**Tronchet**) وبورتاليس (**Portalis**)، ومحاضر المناقشات الطويلة التي حصلت في المجلس في خمس وثلاثين جلسة.

وعلى كل حال فليس ثمت سر خفي في القانون؛ إنما يكون القانون الرديء غالباً غامضا وعسيراً، والقانون الحسن ما اتفق والعقل. وقد جل نابليون كثيراً من مسائل القانون بذكاء فطري عظيم: فهو لم ينظر إلى القانون من الزاوية التي ينظر إليه منها المقننون، بل نظر إليه من زاوية المصلحة العامة. ولم يتقيد بوجهة المتمذهبين بمذهب الثورة، الذين يرون باسم الحرية أن يكون تغيير الزوجة بسهولة تغيير المسكن. ولقد راعى بعض مسائل مراعاة خاصة، لما كان فيه من الميل الغريزي المدعم بالتجارب: تلك المسائل هي إطاعة المرأة للرجل،

وسلطة الوالد، وثبوت نظام الطلاق، وقدسية ملكية الفرد. لذلك لا يجد أنصار حقوق المرأة والاشتراكية في عصرنا الحاضر كثيراً في القانون الذي وضعه نابليون مما يثير إعجابهم، كما أنه ليس من المحتمل إن كان يستجديهم نابليون المدح لو جاء في عصرهم. وبالإجمال فالقانون المدني وثيقة من وثائق الأحرار لا الاشتراكيين، وترجع أهميته في تاريخ المدنية إلى أنه أثبت وخلد الإصلاحات الاجتماعية العظيمة التي أدخلتها الثورة الفرنسية في أوربا.

# الفصل الخامس

## مطلع الإمبراطورية

لم تستنفد الأعمال المدنية التي قامت بها القنصلية إلا جزءاً من نشاط نابليون، على الرغم من أنها كانت أبهر ما ظهر من نوعها في تاريخ أوربا. لذلك كانت السنوات الأربع التي امتازت في تاريخ فرنسا الداخلي بتهدئة ثورة لافنديه، وتسوية النزاع الديني، ووضع القانون المدني– والتي شاهدت انتشال فرنسا من وهدة الخراب والاختلال، إلى مستوى في اليسر لم يسبق له مثيل– نقول كانت هذه السنوات حافلة أيضاً بحوادث سياسية كثيرة، وفتوح حربية باهرة، ومشروعات واسعة لتأسيس إمبراطورية استعمارية، ومحاولات مستمرة لتوسيع نفوذ نابليون في أوربا. بيد أن سياسة الاعتداء لم تكن من عمل نابليون بل من مخلفات الحكومات الثورية: ذلك أن ساسة الجمهورية، قبل انقلاب بروميير بمدة طويلة، كانوا يريدون جعل حكومتهم الديمقراطية العظيمة محوطة بحلقة من التوابع الجمهورية، وباسطة بفضل نشاطها وبفضل بهاء نظمها السياسة نفوذاً عاماً على أوربا. لذلك كانوا يعتبرون البلجيك وسافوي أجزاء متممة لفرنسا، وهولندا وسويسرا حواشي طبعية لها، وإيطاليا ميداناً مهيأ لثورة تحدث به على مثال الثورة الفرنسية ولأجل المصالح الفرنسية. أُعدت العدة لإنفاذ تلك السياسة الغاشمة، وفي خلال بضعة الشهور الأولى عام ١٧٧٩ وصل الفرنسيون منتصرين إلى حد الرين، وقسموا شبه جزيرة إيطاليا إلى جمهوريات تابعة. ثم انقلب المد جزراً أثناء غياب نابليون في مصر بتكوين تحالف

أوربي جديد[1]، تمكنت النمسا أحد أعضائه من طرد الفرنسيين من إيطاليا، وسارت حملة روسية انجليزية إلى شواطئ هولندا.

لم تكن أوبة نابليون من مصر، كما زعم بعض البحاثين، أول بارقة في الأفق المظلم. ذلك أنه قبل أن يصل نابليون إلى ميناء فريجس كانت فرنسا قد تخلصت من أشد الأخطار إحداقا بها، بفضل انتصارات القائد مسينا عند زيورخ، والقائد برون[2] في هولندا؛ وكان سواروف الروسي، ند نابليون الحقيقي في المهارة الحربية، قد بدأ يتقهقر مخترقا ثلوج سويسرا. فلو كان نابليون غرق في الطريق، لبقي في استطاعة الفرنسيين المحافظة على حد الرين، وعلى المكانة السامية التي تبوأتها دولتهم في أوربا– تلك المكانة التي فقدتها بسقوط الإمبراطورية النابليونية، ولم تتمكن من استرجاعها حتى الآن.

لكن أهمية ظهور نابليون فجأة في الميدان، أن حد الرين الطبيعي لم يكن

---

(1) يعرف ذلك التحالف بالتحالف الثاني، وكان مكونا من الروسيا وانجلترا والنمسا ومملكة نابلي والبرتغال وتركيا. كان هناك سبب عام لذلك التحالف وهو الرغبة في وضع حد للتوسع الفرنسي الذي هدد كل دول أوربا. وكانت هناك أسباب خاصة لكل دولة على حدة: فالروسيا– وهي التي يرجع إليها تكوين ذلك التحالف– اعتبرت احتلال مالطا إهانة لها، وانجلترا لم تستطع الوقوف ساكنة أمام الحملة الفرنسية على مصر، والنمسا أحست نفسها مهددة بعد احتلال الفرنسيين سويسرا، ونابلي فكرت جديا في الحرب منذ تكوين الجمهورية الرومانية على المبادئ الفرنسية مكان إمارة البابا، والبرتغال كانت حليفة انجلترا الدائمة، وتركيا كانت تريد إخراج نابليون من وادي النيل.

(2) تقدم ذكر مسينا. أما برون (**Brune**) فولد سنة ١٧٦٣، وبدأ حياته في باريس كبائع كتب، وحين إذ ذاك تعرف بدانتون (**Danton**). ثم دخل في الثورة وعمل فيها حتى أصبح سنة ١٧٩٩ قائد الجيش الفرنسي في هولندا. ترقى برون بعد ذلك، وظل في خدمة الإمبراطورية النابليونية حتى سقط نابليون في واترلو. ثم حدث أن تآمر عليه جماعة من الملكيين في باريس سنة ١٨١٥ فأوقعوا به وقتلوه.

حد أطماعه، التي لن يرضيها أي صلح لا يرد إلى فرنسا سلطانها على شمال إيطاليا، الذي كان ثمرة انتصاراته الأولى، ونتيجة صلح كامبو فورميو. إلا أن ذلك المنهج لم يكن ليملي على دول كالنمسا وانجلترا إلا بحد السيف؛ لذلك كان الغرض من مقدمات الصلح، التي عرضها نابليون على جورج الثالث ملك انجلترا وفرنسيس الثاني إمبراطور النمسا، حينما أصبح قنصلا أول، سبر غور الحكومتين، والتمويه على الرأي العام الفرنسي، لا الوصول إلى صلح جدي. وعلى الرغم من ذلك اعتقد بعض من جاءوا بعد نابليون، أن رسائله بشأن تلك المسألة مملوءة بروح المحب للسلام. وما زال هناك كثير من الكتاب المعجبين بنابليون، يقولون إنه كان أعظم محبي السلام، اضطره أعداؤه الحاقدون عليه والقدر المحتوم أن يلقي بنفسه في دور طويل كله حرب وغزو.

كانت الحالة الحربية في فرنسا في مستهل عام ١٨٠٠ لا تبشر بخير، على رغم الضعف الذي أصاب التحالف الثاني من جراء انسحاب الروسيا. صحيح أن القوى الفرنسية والنمساوية في الأرض الألمانية كانت متعادلة: لأن جيوش الفريقين المتحاربين، التي كانت تحت قيادة مورو الفرنسي وكراي (**Kray**) النمساوي على الرين الأدنى، كانت تبلغ مائة وعشرين ألف مقاتل. لكن الفرنسيين كانوا مغلوبين على أمرهم في إيطاليا: لأنه بينما كان تحت إمرة ملاس (**Melas**) النمساوي جيش يبلغ ثمانين ألفا في بيدمنت، كان مسينا معسكراً في الريفييرا بجيش يبلغ ثلاثين ألفاً فقط. لذلك كان من المحتمل أنه بينما تبقى الحالة سجالا بين قوات مورو وكراي في ألمانيا، تخترق الجيوش النمساوية في إيطاليا حدود مقاطعة بروفانس الفرنسية، معتمدة على مؤازرة الأسطول الانجليزي[1]،

---

(1) كان الأسطول الانجليزي في البحر الأبيض المتوسط يطوف بقيادة نلسن حول شواطئ مملكة نابلي، ولذلك كان يمكن الاعتماد عليه لمؤازرة النمساويين إذا احتاج الأمر.

ومعاونة الملكيين من أهل بروفانس.

كان خير وسيلة لدرء ذلك الخطر إحراز الفرنسيين انتصاراً حاسما على شواطئ الرين: لأنه إذا قضى على كراي في جنوب ألمانيا، أصبحت الطريق إلى فينا مفتوحة أمام الفرنسيين، واضطر النمساويون إلى إخلاء جميع مراكزهم الأمامية المتوغلة في إيطاليا. وفي الحقيقة– كما قال نابليون– "كانت حدود ألمانيا الشغل الشاغل؛ أما ساحل جنوا فكان مسألة ثانوية". بناء على تلك الاعتبارات قرر نابليون، بعد أن جمع جيشاً يمكن توجيهه لمساعدة مسينا ومورو حسب الدواعي، أن تكون ألمانيا ميدان الحرب. وكانت خطته بسيطة وعظيمة في آن واحد: ذلك أنه عقد النية على عبور نهر الرين عند شوفهوزن (**Schaffhausen**)، لينقض فجأة بقوة كبيرة على ميسرة ومؤخرة الجيش الذي كان تحت قيادة كراي؛ وبذلك يقطع عليه خط الرجعة، ويقضي على جيشه قضاء تاما، كما قضى على الأتراك في أبي قير. ثم بعد أن ينجز ذلك يسير إلى فينا، فيملي شروط الصلح في العاصمة النمساوية.

جد عائق شخصي تسبب عنه سحب ذلك المشروع. ذلك أن مورو أحس بأنه أكبر من أن يعمل كمرءوس لنابليون، معتمداً على استحالة الاستغناء عنه لشهرته الفائقة. لذلك قر الرأي في الأسبوع الأول من مارس سنة ١٨٠٠، أن يزحف الجيش الاحتياطي بقيادة نابليون على إيطاليا لا على ألمانيا، وأن يجتهد مورو في حماية مؤخرة ميسرة جيشه بحركة هجومية في جنوب الدانوب، في حين يسير نابليون مخترقاً سويسرا، ثم ينقض على جناح ومؤخرة جيش ملاس، وبذلك يمحو في الحال الضغط الواقع على مسينا، ويضطر النمساويين اضطرارا إلى التقهقر بلا نظام، ويلحق بهم هزيمة كبيرة. لا غرو أن الطريقة التي اتبعت، ونفذت بها الخطة الجريئة هذه، وأن التكتم والسرعة والعناية بكل تفاصيل

الاستعدادات، تستحق إعجاب الأجيال التي جاءت بعد نابليون. ولا شك أن عبور جبل سان برنار[1] في سبعة أيام، على طريق جميل في شهر مايو اللطيف، كان من أشهر أعمال نابليون، وإن لم يكن من أصعبها. أما المسألة التي تشهد بمهارته الحربية، أكثر مما شهد به نجاحه في عبور ممر معروف في جبال الألب دون مقاومة، فهي الابتكار الذي امتازت به خطته العامة، مضافاً إليه السرعة التي عدل بها بعض أمور خاصة، حتى تلائم ظروفاً متغيرة: مثل ذلك أن خطته الأصلية كانت تقضي بعبور ممر سبلوجن (**Splugen**)، ولكن بسبب وقوف مورو مكتوف اليدين من جهة، وبسبب وصول الأنباء باشتباك النمساويين مع مسينا من جهة أخرى، قرر عبور سان برنار الواقع على مسافة مائة وأربعين ميلا غرب نقطة سيره الأصلية. ثم كان في عزمه أيضاً أن يحمل على جيش ملاس، بمجرد عبوره الممر؛ لكنه علم لدى وصوله إفريا (**Ivrea**) في ٢٦ مايو، أن مسينا كان لا يزال يقاوم الحصار في جنوا. لذلك رغب نابليون، والفرح قد ملأ قلبه لنجاحه في عبور الممر، عن الخطة الأصلية التي كانت تترك لعدوه خط الرجعة حراً، إلى خطة ملؤها الطمع، ترمي إلى الزحف على ميلان والاستيلاء على لمبارديا وعلى جميع المنافذ الواقعة على نهر إلبو الأوسط. وهنا يختلف النقاد الحربيون في هل الواجب الأول على قائد جيش الإمداد أن يزحف بثبات نحو المدافع التي تكتنف المدينة المرسل لنجدتها؟ فمثلا سلمت جنوا بعد دفاع مجيد في ٤ يونيه، ووجه اللوم إلى نابليون الذي لم يخف لملاقاة الكارثة. لكن رأى الثقات الفنيين يستحسن الخطة التي اتبعها نابليون: لأن واجب القائد هو إتلاف العدو لا مساعدة أصحابه، ولأن نابليون بوضعه جيوشه في خط رجعة جيوش ملاس انتهج خطة، لو أن جنوا لم تستنفد كل مؤنها، مؤداها إما حمل

(1) انظر مصور رقم ٣ إيطاليا للتحقق من ميادين تلك الحرب.

الجيش المحاصر على ترك الحصار، وإما تعريض الجيش النمساوي تحت قيادة ملاس إلى الفناء عن آخره، على يد جيش يفوقه عدداً. وإذا أضيف إلى ذلك أن النجاح أو الفشل في الحرب مسألة متوقفة على الأثر المعنوي، علمنا أن ظهور نابليون فجأة في عاصمة لمبارديا أحدث أثراً عظيماً في أنحاء إيطاليا، يوازي التأثير الذي كان يسببه فك الحصار عن جنوا.

وعلى الرغم من ذلك المطلع الباهر في تاريخ الإمبراطورية، كانت موقعة مارنجو (**Marengo**) في ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠، التي اختتمت بها تلك الحرب، شاهداً على ما قد يقع فيه أعظم قائد من الغلطات بسبب استهانته بعدوه. ذلك أن نابليون نظر بعين الازدراء إلى الرجل الكهل الذي كان يواجهه، حتى أنه أهمل القواعد الأصلية التي طالما اتبعها في القتال. فمثلا زحف على ألسندريه (**Alessandria**) بجيش لا يزيد على أربعة وثلاثين ألفاً، وكان النمساويون قد جمعوا عندها كل قواهم. واعتبر نابليون جيشه على قلته أكثر مما يلزم لهزيمة العدو، حتى أنه في أثناء التقدم الفرنسي غرباً أرسل منه ستة آلاف لحماية كريمونا (**Cremona**) وبياتشنزا (**Piacenza**)، وأرسل منه أيضا قسما تحت قيادة ديزيه، ليقطع الطريق على الجيش النمساوي الذي كان يحتمل تقهقره إلى جنوا. لا جدال أنه كان من الحكمة الحربية سد كل الطرق الممكنة للفرار، على فرض أن الجيش النمساوي لن يبدي مقاومة كبيرة. لكن النمساوي محارب عنيد، وأظهرت شجاعته في سهل نهير بورميدا (**Bormida**) خطر الشروع في تطويق جيش قبل التحقق من هزيمته. بدأت الموقعة عند مطلع الفجر، وكانت في أول أمرها تنبئ بهزيمة الفرنسيين، حتى أن ملاس رجع إلى ألسندريه حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر معتقداً تمام الاعتقاد أن النصر حليفه، وأن ما بقى من أمر مطاردة الفرنسيين يمكن إسناده لصغار القواد.

وأخذ النمساويون يدفعون الفرنسيين بتؤدة وترو شرفاً على طول الطريق المؤدية إلى سان جوليانو (**San Giuliano**)، حتى كادت المطاردة تتحول فراراً من وجه العدو، لولا أن ظهر ديزيه ساعة الأصيل فجأة في الميدان. وسبب ذلك أنه سمع قصف المدافع فزحف صوبه، كما يفعل كل جندي باسل بلا تأخير، وبوصوله بدا الجيش يلم أشتاته، وانقلبت الهزيمة الكاملة انتصاراً حاسماً، كأحسن ما وعت سجلات الحرب. كان نابليون حين إذ ذاك في قرية مارنجو مملوءاً يقظة ونشاطاً وحماسة انتقلت كلها إلى الجنود لما صاح فيهم قائلا: "أيها الأبناء البررة، تذكروا أن من عادتي النوم في ميادين القتال".

أما الواقعة فتتلخص في هجوم فرقة ديزيه، تظاهرها الخيالة بقيادة كلرمان[١]، والمدفعية بقيادة مارمون. عرا الصفوف تساوية ذهول من جراء تلك الصدمة الفجائية، ووقفت مبهوتة، ثم ابتدأت تتزحزح عن مواقفها؛ ثم تقهقرت بلا نظام حتى عبرت نهر البورميدا. جاء الليل فنام نابليون في ميدان القتال، وكذلك فعل ديزيه، إلا أن هذا نام النومة الأبدية. وفي الرسالة التي كتبها نابليون معدداً غنائم الحرب وأسلابها، البالغة خمسة عشر علما نمساوياً وأربعين مدفعاً وثمانية آلاف أسير وستة آلاف قتيل، خصص القنصل الأول فقرة كلها أسف على زميله البطل، وصاحب الأعمال العظيمة في الحملة على مصر. وقد كان نابليون مديناً له بكثير من الفضل في ضعضعة النمسويين إلى درجة جعلت

---

(١) ولد فرنسوا كلرمان (**François Kellermann**) سنة ١٧٣٥، ودخل الجيش الفرنسي وترقى فيه بسرعة. ويرجع إليه الفضل في الانتصار عند فللي (**Valmy**)، الذي أنقذ الثورة من الفشل، وفرنسا من الغزو الأجنبي سنة ١٧٩١، كما يرجع إليه الفضل في تحويل هزيمة مارنجو انتصارا. ولقد أصبح كلرمان سنة ١٨٠٤ مارشالا، واستمر يخدم في جيوش الإمبراطورية النابليونية، حتى سقط نابليون، ورجع البوربونيون، فانضم كلرمان الهم، وظل في خدمتهم حتى مات سنة ١٨٢٠.

ملاس يوقع على الهدنة في اليوم التالي، متنازلا عن كل إيطاليا غرب نهر المنشيو (**Mincio**) ليحتلها الفرنسيون مرة ثانية.

كانت أول نتيجة سياسية لذلك الانتصار الهائل أن نالت الحكومة القنصلية- وهي لا تزال حديثة وفي دور التجربة يتقول عليها الناس الأقاويل- ذلك النوع من الصيت الباهر الذي لا يقف عند إخراس العائبين فقط، بل يجعل كل انتقاد غير مجد شيئاً مهما يكن سداده. والنتيجة الثانية أنه رد إلى فرنسا سيادتها على إيطاليا، ومهد السبيل للصلح مع النمسا. لكن لما كانت النمسا مرتبطة بانجلترا العنيدة، وكانت لا تزال جيوشها في ألمانيا حافظة كيانها، لم تر في مارنجو مايضطرها لعقد صلح شائن. لذلك استؤنفت الحرب بعد فترة قصيرة صرفت في مفاوضات قام فيها الفرنسيون بدور من المهارة بمكان. ثم بلغت الحرب أشدها في يوم من ديسمبر شديد البرد عند بقعة من البقاع الكثيرة الغابات، التي اشتهرت بها بافاريا، حيث تمم انتصار مورو عند هوهنلندن (**Hohenlinden**) في ٣ ديسمبر سنة ١٨٠٠ ما فعلته واقعة مارنجو. وتم الصلح الذي كانت تبغيه فرنسا، والذي كانت النمسا تعمل جهدها على اجتنابه، في ٩ فبراير سنة ١٨٠١، عند لونيفيل (**Luneville**). للمرة الثانية اعترفت أسرة هابسبرج المتكبرة باستيلاء فرنسا على البلجيك وعلى حد الرين وعلى سافوي. وللمرة الثانية أيضاً اعترفت بالجمهوريات البتافيه والهلفتيه والألب الشمالية[1]. وللمرة الثانية أيضاً وافق إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة

(1) الجمهورية البتافية هو الاسم الذي أطلق على سويسرا بعد أن فتحتها فرنسا سنة ١٧٩٦. والجمهورية الهلفتية هو الاسم الذي أطلق على هولندا والبلجيك بعد أن غزتهما فرنسا سنة ١٧٩٢. وجمهورية الألب الشمالية هو الاسم الذي أطلق على شمال إيطاليا بعد الحرب الإيطالية الأولى.

على قلب نظام ألمانيا، حتى تتمكن الحكومة الفرنسية التي قامت على قتل الملوك والثورة، من التأمين على مكاسبها غير المشروعة. وبالاختصار ردت معاهدة لونيفيل الحال إلى ما كانت عليه بمقتضى معاهدة كامبوفورميو، مع بعض تعديلات كلها ضد مصالح النمسا. ولا شك أنه منذ أيام لويس الرابع عشر، لم يمهر سياسي فرنسي بإمضائه صلحا أعظم بهاء من ذلك الصلح، وربما كان ذلك السبب في أنه لم يعمر طويلا.

أما ما كان من أمر منازلة العضو الآخر من عصبة أعداء فرنسا، فقضت طبيعة المسالة إلى إتباع طريقة مخالفة. والسبب أنه لما لم تكن البحرية الفرنسية في حالة استعداد كافية لجعل فرنسا تفكر في غزو انجلترا، عقد نابليون النية على تكوين تحالف أوربي ضدها. ويكون على رأس ذلك التحالف العظيم بولس الأول قيصر الروسيا، ذلك المستبد المعتوه، الذي انقلب فجأة على الحكومة الانجليزية بلا مبرر كافٍ لاستيلائها على جزيرة مالطا، وأصبح مستعداً للاشتراك في كل ما عرض عليه من الاقتراحات المتطرفة في سبيل إظهار اشمئزازه الخيالي الجديد. كان ذلك التحالف في نظر نابليون ذا قيمة بقطع النظر عن تذبذب القيصر وقلة ذكائه، لأن "الروسيا تمتلك مفاتيح آسيا"، كما قال نابليون في يناير؛ وبمساعدة الروسيا يمكنه فتح الهند والاستيلاء على مصر واقتسام البلقان؛ وبمساعدة عصبة الدول الشمالية[1]، التي كونها القيصر حديثاً لمقاومة القوانين البحرية البريطانية، يمكنه أن يقضي على اليسر التجاري الذي تتمتع به انجلترا. بناء على ذلك التفاهم الأول مع القيصر، وبمقتضى الاتفاقات التي

---

(1) كانت تلك العصبة حيادا مسلحا، وهي معروفة في التاريخ باسم عصبة الحياد المسلح بزعامة الروسيا التي اتخذت مسألة احتلال انجلترا مالطا حجة، والحقيقة أن مضايقة انجلترا لمتاجر الدول المحايدة المرسلة إلى فرنسا هي السبب في تكوين تلك العصبة في ديسمبر سنة ١٨٠٠.

أجريت على يد الأخير مع دول الدنمارك وبروسيا والسويد، تمت سلسلة مفاوضات ومعاهدات تكميلية. ثم أرغمت الحكومة الضعيفة في نابلي عل منع المتاجر الانجليزية، وعلى قبول جيش احتلال فرنسي يعسكر في أرضها حتى يأتي الوقت الذي يمكن فيه نقلها إلى مصر[1]. كذلك أرغمت إسبانيا، إذ تعهدت حكومة شارل الرابع الضعيفة الفاسدة، أن تنزل عن لويزيانا[2] لنابليون مقابل تسكاني، وأن تغزو هي البرتغال المسالمة لكيما يقضي على آخر حلفاء انجلترا وأصدق عملائها بين الدول الأوربية.

شهد ذلك الربيع تكوين هذا التحالف الهائل ثم انصرامه فجأة. السبب أن بولس الأول قتل في بطرسبورج في ٢٤ مارس، وبذلك سقطت دعامة كل الجهاز. وفي ذلك الوقت انهالت على نابليون أنباء غير سارة عما فعلته بحرية "أمة البدالين"[3]: وتفصيلها أن القائد الانجليزي أبركرمبي (**Abercromby**) نال انتصاراً عظيماً في المياه المصرية في ٢٠ مارس، وأن نلسن قضى على الأسطول الدنماركي عند كوبنهاجن في ٢ ابريل. فاعتقد القنصل الأول– أو بالأحرى تظاهر بالاعتقاد– أن هناك علاقة بين المقذوفات النارية التي أخطاته في باريس، ودخول الأسطول الانجليزي بوغاز السوند، ومقتل القيصر؛ إذ قال وهو يحرق الأرم: "لئن أخطأني الانجليز في نيفوز[4]، فقد أصابوني في

(1) كانت الحملة الفرنسية لا تزال بمصر.

(2) لويزيانا (**Louisiana**) كانت مستعمرة فرنسية في أمريكا الشمالية بحوض نهر المسيسبي، كشفها لاسال (**La Salle**) الفرنسي سنة ١٦٨٢، وسماها بذلك الاسم نسبة إلى لويس الرابع عشر، ثم أخذتها أسبانيا سنة ١٧٦٢ واستردتها فرنسا سنة ١٨٠٠ مقابل تسكاني. بعد ذلك ابتاعتها الولايات المتحدة من نابليون سنة ١٨٠٣ مقابل ٦٠ مليون فرنك.

(3) يريد انجلترا.

(4) الشهر الرابع من تقويم الحرية الفرنسية.

بطرسبورج". والمهم هنا معرفة أن خيبة العصبة التي أنتجتها سياسته اضطرته إلى التفكير في صلح مع حكومة السفاكين[١]. وواضح جداً أن مصلحته كانت تقضى– مهما تكلف من تضحية مطامعه مؤقتاً– بأن يحصل على هدنة تمكنه من سد ذلك النقص الكبير في سفنه الحربية، الذي أضاع عليه مالطا ومصر، والذي كان السبب في وقاية عدوه الشديد فيما بعد من الغزو. ثم إنه لابد من بحرية قوية لمناهضة انجلترا، لاسيما وقد انتثر عقد التحالف الأوربي: إذ حسم إسكندر الأول– القيصر الجديد– النزاع بين الروسيا وانجلترا، وانحلت عصبة المحايدين، وأغضب الأسبانيون القنصل الأول لما أظهروه من الفتور في غزوهم البرتغال، ولما أظهروه من الاستعداد للصلح في وقت غير مناسب، حتى ضاعت الفائدة المرجوة من إجبار البرتغال على رفض المتاجر الانجليزية. لذلك كله بدأت مفاوضات لعقد معاهدة بين فرنسا وإنجلترا في لندن في أكتوبر سنة ١٨٠١.

تمخضت تلك المفاوضات بعد مضي خمسة شهور عن صلح أميان (Amiens). استخدم نابليون تلك الفترة لا في إزالة أسباب شكوك أعدائه، بل في إيجاد شواهد جديدة على أطماعه وقوته، حتى أن أشد الأحرار الإنجليز حماسة، الذين طالما صوتوا مع فوكس[٢] في البرلمان الانجليزي، لم يستطيعوا إلا

---

(١) العبارة من كلام المؤلف، وإنما أراد أن يقترب من نفسية نابليون في ذلك الظرف فوصف الحكومة الانكليزية بحكومة السفاكين.

(٢) ولد تشارلس جيمس فوكس (Charles James Fox) سنة ١٧٣٩ في لندن، ودخل البرلمان الانجليزي وهو في التاسعة عشرة، ولما نشبت حرب استقلال أمريكا ضد انجلترا، كان فوكس من أكبر المدافعين بلسانه عن الأمريكيين. ولما سقطت الوزارة الانجليزية التي سيرت الحرب ضد أمريكا، دخل فوكس الوزارة التالية، التي اعترفت باستقلال المستعمرات الأمريكية. بعد ذلك أثار فوكس غضب الملك جورج الثالث، فترك الوزارات وبقى زعيم المعارضة لمدة خمس

الاعتراف بأن محبة الخير التي اتصف بها نابليون بطل فوكس، لم تكن من نوع محبة الخير التي اشتهر بها جماعة الفرندسيون[1] أنصار السلام والإنسانية. والدليل على ذلك أنه ضم لفرنسا بيدمنت في ابريل، وشد الوثاق على هولندا في سبتمبر وأنشأ جمهورية إيطاليا (في المنطقة التي كانت جمهورية الألب الشمالية)، ونصب نفسه عليها رئيساً مطلق التصرف في يناير. وكانت النتيجة أن أصبحت الجيوش الفرنسية موزعة على سكان البلاد من جنوب إيطاليا إلى شمال هولندا، في حين أن الإعانات المالية الأجنبية كانت تنصب صباً في الخزينة الفرنسية. لم يقتصر نشاط القنصل الأول على أوربا، بل وسع في مساحة غينا الفرنسية بأفريقية على حساب البرتغال، وأرسل جيشاً قوياً لاسترجاع سان دومنجو إحدى جزائر الهند الغربية من أيدي العبيد. ومن ذلك يتبين أنه كان عاقداً النية على إقامة إمبراطورية في الغرب، ليعوض حرمانه من مصر والشام.

تخلت انجلترا بمقتضى معاهدة أميان عن جميع فتوحها الاستعمارية ما عدا سيلان وترنداد، وسلمت مالطا إلى الفرسان، وردت مينورقا لأسبانيا، وتنحت عن لقب "ملك فرنسا" الذي كان يلقب به ملوك انجلترا من عهد إدوارد الثالث. رضى نابليون مقابل تلك التسليمات بالجلاء عن القطر المصري، الذي لم يعد في مقدور الفرنسيين البقاء فيه، وعن نابلي التي كان يمكنه غزوها أنى شاء، وعن البرتغال التي جلبت على نفسها عداوة نابليون لكونها الحليف

---

وعشرين سنة حدثت في أثنائها الثورة الفرنسية وظهر نابليون، وكان فوكس من المعجبين بهما. وله في ذلك مواقف برلمانية خطابية مشهورة. وفي سنة ١٨٠٦ دخل فوكس الوزارة من جديد، غير أنه مات في السنة التالية. ويعتبر فوكس أكبر خطيب برلماني أنجبته انجلترا، وكانت مبادئه عالية، وأعماله صادرة عن قلب مخلص.

(1) الفرندسيون (The Quakers) أو جمعية الأخوان، جمعية دينية أسسها جورج فوكس أحد عظماء المصلحين الدينيين في انجلترا في القرن السابع عشر.

المستكين لعدوه. قابل النقاد الانجليز ذلك الصلح من أول الأمر بالمعايرة، والحقيقة أنه كان مبنيا على قواعد واهية الأساس، ظهر ضعفها أسبوعا بعد أسبوع لما كان يظهر من مطامع نابليون الجامحة.

اعتقد النقاد الانجليز أن المعاهدة سلمت أكثر مما في مقدور أي سياسي انجليزي أن يسلم به، وأنها أهملت نقطاً كان الواجب على كل وطني أن يشدد فيها. مثل ذلك أنها سلمت رأس الرجاء الصالح وجزيرة مارتينيك، ولم تتضمن أي احتجاج ضد فرنسة بيدمنت ولمبارديا وهولندا. ثم لو كان من الممكن أن يقبل العقل الانجليزي تلك الشروط، فمن المستحيل عليه احتمالها إذا هي أثقلت بأعباء أخرى. وبالاختصار لم يفهم الانجليزي العادي معنى لصلح لم يتضمن أي تخفيف في الضرائب التجارية، أو تراخ في الاستعدادات الحربية، أو انقطاع عن النيات الاستعمارية من جانب نابليون. وأدرك الانجليزي العادي في امتناع نابليون عن الموافقة على معاهدة تجارية، رغبة ظاهرة في إضعاف القوة الصناعية البريطانية: إذ كيف تكون دولة صديقة مخلصة لبريطانيا العظمى، وهي تعتبر البضائع الانجليزية كأنها حاصلات موبوءة آتية من جهة مملوءة بالطاعون. ثم ارتاب الانجليزي العادي أيضاً بالحملة على سان دومنجو، وبانتقال ملكية لويزيانا، واعتقد أن بونابرت قبل الصلح على نية بناء أسطول كاف للقيام يوماً بانتزاع مستعمرات انجلترا في الهند وأمريكا، وبنقل جيش كاف إلى شواطئ انجلترا. حتى إذا قرأ في جريدته اليومية أن القنصل الأول منح السويسريين دستوراً، وأنه أرسل أميراً من أمراء البحر الفرنسيين إلى الشرق في مهمة سياسية، ظن أن أخطر شكوكه قد تحقق وزيادة.

كان نابليون في آخر أيامه يندم على عناد انجلترا، التي حالت بين أوربا وبين "التجدد الاجتماعي" على حد عبارته. لكن مهما تكن أقواله في مقاصده

السلمية في سنت هيلانه، فإن فكرة السلام الثابت الدائم لم تخطر له يوما على بال. ذلك أنه لم يترك لحظة فكرة استرجاع مصر، وتأسيس دولة فرنسية في الهند، وزعزعة السيادة البحرية الانجليزية. ثم أنه كان على رأي عصبة الدول الشمالية القصيرة الأمد، التي كانت تعتقد من ضرورات تقدم المدنية إجبار انجلترا على ترك حقها في تفتيش السفن المحايدة التي تحمل بضائع الأعداء وفي الاستيلاء على السفن التي تتجر مع موانئ الأعداء. وكان من دعاة مذهب التجارة المحمية، يعتقد أن الزراعة أكثر نفعاً من الصناعة وهذه أكثر نفعاً من التجارة، ويميل إلى عدم وضع أي حدود لما تبذله أي حكومة من المجهود في سبيل تشجيع الصناعات الجديدة. على ذلك كان نابليون ضد عقد معاهدة تجارية مع انجلترا، أو تسليم أي شيء إلى أولئك "النظريين" الآخذين بفكرة حرية التجارة. ولما كان توقراطيا، وأستاذاً قديماً في فن تدريب الصحافة للإقامة على الاستبداد، كان يمقت كل المقت تلك الحرية السبابية، التي لم يفهمها أبداً، والتي كان ينعم فيها الصحفي في لندن. ومن أول الأمر كان المثل الأعلى الذي يصوره لنفسه، كما هو وارد في محادثاته ومراسلاته العادية، مخالفا كل المخالفة لما يمكن أن يسمح به أي سياسي انجليزي: ذلك أنه اعتبر البحر الأبيض المتوسط كملك للدول اللاتينية، أو بعبارة أخرى لفرنسا، بحيث تبسط نفوذا دائما على أشباه جزائر إسبانيا وإيطاليا. ثم أنه اعتبر ألمانيا اتحاداً أخرق بين حكومات دنيئة، أكثر من نصفها تابع لفرنسا، والباقي سائر بالتدريج نحو الانتفاع بحسنات الإرشاد الفرنسي. هذا وكانت سويسرا في نظره تابعا من توابعه، لاسيما بعد أن هدأ المنازعات الداخلية بين الديموقراطيين والاتحاديين من أهلها بحيلة سياسية باهرة. أما هولندا وإسبانيا وجنوا فكان عليها بحسب النظام الذي وضعه لدولته الواسعة أن تمد البحرية الفرنسية بالرجال، فضلا عن شرف الاندماج في الجيش الفرنسي، الذي كان موزعا على حلفاء فرنسا وأتباعها بسخاء.

لما كان ذلك مدى نظرة نابليون العامة في السياسة الأوربية كان من المنتظر أن تستأنف الحرب قريبا. لكن القول بأن وقوع الحرب لا مفر منه في بعض الأحيان، ليس معناه أن مسألة اكتساب الوقت غير مهمة: مثلا كان يهم نابليون كثيراً أن تتأخر الحرب، لأن الاستيلاء على سان دومنجو، واستعمار لويزيانا، والمشروعات الاستعمارية الأخرى، كانت كلها متوقفة على سكون الأسطول الانجليزي، حتى يتمكن بناءو السفن في أنفرس وبرست وطولون من رفع البحرية الفرنسية إلى مستوى خصمها. وإذاً كان دخول نابليون في مشروع فيما وراء البحار، قبل أن يتم تقوية بحريته تماما، وإثارته غضب الدولة الوحيدة التي تقدر على إفساد مشروعه، في الوقت الذي كان المشروع نفسه لا يزال معلقا في يد المقادير، نقطة سوداء في تاريخ نابليون الحازم. اعترف نابليون في سنت هيلانه بأن الحملة على سان دومنجو كانت غلطة كبيرة. وكان يمكنه أن يضيف إلى ذلك الاعتراف أن نبهه إلى اجتناب المشروع أقدر الفنيين المقيمين هناك. ذلك أن المسألة لم تكن رد مستعمرة ثائرة، أو إخماد فتنة داخلية في مستعمرة غنية من مستعمرات الجمهورية الفرنسية: لأن سان دومنجو كانت لا تزال يخفق على ربوعها العلم الفرنسي، وكانت لا تزال تعترف بالسيادة الفرنسية، ثم أنها أرجعت حديثا بعد فترة اضطراب فظيع إلى حظيرة السيادة الفرنسية بفضل الزنجي الأصلي الوحيد الذي أظهر صفات السواس. ذلك الرجل هو توسا لوفرتير (**Toussaint L'ouverture**) الذي جلب للجزيرة الثلاثة الأشياء، التي قامت عليها سعادتها: وهي مورد ثابت من العمال السود لسد حاجات المزارع، وتبادل تجاري بين الجزيرة وأمريكا، وجماعة موظفين يديرها رجال من البيض. كان القنصل الأول يحسن صنعا، لو أنه واصل ما قام به ذلك الرجل.

ليس في العالم شيء أفظع من إثارة مسألة اختلاف ألوان الأجناس البشرية في أمريكا، لاسيما أن هاجتها حادثة مرعبة أو كارثة مفجعة. وفي سان دومنجو قال المزارعون البيض، الذين فروا من الجزيرة في أثناء حرب العبيد، أن من المستحيل على جالية فرنسية كبيرة، في جزيرة كانت بفضلهم الدرة اليتيمة بين جزائر السكر، أن تصبح تحت قدم عبد متظاهر بالتقوى، وجم غفير من العبيد البادية نواجذهم. ولما كان مما يخالف أفكار نابليون أن تجرأ مستعمرة فرنسية على شراء حاجها من أمريكا وكمالياتها من لندن، فقد قر رأيه على القضاء على توسان. عهد الجيش المرسل إلى سان دومنجو إلى الجنرال لكلير (Ieclere)، زوج بولين بونابرت وصهر نابليون. ولما كان ذلك الجيش قد خدم مع مورو على نهر الرين، حسب الذين كانوا يعيبون دائما أعمال نابليون، أن الغرض من إرسال الحملة إبعاد مناهضيه. ولا عجب فالتعليمات السرية ألتي أُعطيها القائد العام تكفي للأنحاء باللائمة على نابليون: ذلك أن لكلير أمر بإغراء الحاكم وقواده، ثم إيقاعهم في فخ، ونفيهم من الجزيرة. نُفذ الجزء الأول من ذلك البرنامج، وقبض عل توسان بخدعة شنيعة، ونفى إلى جبال الجورا بفرنسا حيث قضى بين العواصف الجليدية. ثم دارت الدائرة على منفذ تلك المأساة التي حركت وردسورث[1] الشاعر الانجليزي لكتابة أرجوزة من أشهر أراجيزه؛ إذ انقضت الحمى الصفراء، كما تنقض الشياطين، على جيش سان دومنجو الفاخر، وكادت تقضي عليه لآخر رجل، بينما أوصدت الحرب مع انجلترا أبواب العالم الغربي فجأة في وجه أطماع نابليون.

---

(1) ولد وليام ورد سورث (William Word sworth) سنة ١٧٧٠. تربى في كامبردج بقصد أن يكون قسيساً، غير أنه سرعان ما قضى كل وقته في مطالعة الآداب، وأصبح في زمنه من أكبر شعراء الانجليز. وله مؤلفات شعرية كثيرة أشهرها "أغنية الخلود"، وأراجيزه من أجمل ما كتب في اللغة الانجليزية.

كانت مسألة مالطا السبب في انهيار بناء السلام. وتفصيل ذلك أن انجلترا، بما لها من الاهتمام بالهند فوق كل شيء، رأت أن هناك ضرورة حيوية في عدم تعرض تلك الجزيرة الصغيرة في البحر الأبيض المتوسط، بمينائها الجميلة وحصنها المنيع، لاستيلاء الفرنسيين من جديد مهما تكن الأحوال. ثم كان المفهوم بمقتضى معاهدة أميان، أن يضمن استقلال الجزيرة ست دول عظمى، وأن تجلو عنها الجنود البريطانية بمجرد الحصول على ذلك الضمان، وأن توضع فيها حامية من جيش مملكة نابلي لمدة ثلاث سنوات، على اعتقاد أن يصبح فرسان القديس يوحنا عند انتهائها قادرين على حمايتها. من المحقق أن كل الصعوبات الخاصة بالجلاء عن مالطا كانت تزول لو أن نابليون وافق على إيقاف تيار مراميه نحو الشرق. عند ذلك كانت الجنود البريطانية تنسحب بسرعة ويحل محلها الجيش النابلي، وتنفذ المعاهدة حرفا ومعنى. إلا أنه كان غير قادر بطبيعته على تهدئة خواطر مناجزيه؛ وفي الوقت الذي كان تقضي فيه المصلحة البحرية والحربية إلى مسالمة طويلة الأمد مع انجلترا، أثار سلوكه أهم مخاوف الدول ذات المصالح في السواحل الشرقية من البحر الأبيض المتوسط. من ذلك أنه خاطب القيصر في مسألة اقتسام تركيا، وفي صلاحية شبه جزيرة المورة للفرنسيين؛ ثم أنه أعد في يناير سنة ١٨٠٣ حملة إلى الهند. وبالاختصار أن ضياع مصر وسورية أثر فيه تأثيراً كبيراً لدرجة أنه سارع في إيفاد بعث للنظر في طريق استرجاعهما.

رأت الحكومة الانجليزية، التي رجاها الباب العالي البقاء في مالطا، أن بعث الأميرلاي سبستياني (**Sebastiani**) سبب جديد للتشكك في نيات نابليون. ولما ظهر تقرير البعث في جريدة المونيتور (**Monietur**)، في ٣٠ يناير سنة ١٨٠٣، وفيه وصف محبة الفرنسيين عند أهل شرق البحر الأبيض المتوسط،

ووصف سهولة الاستيلاء من جديد على مصر، قررت الوزارة الانجليزية أن تبقى جزيرة مالطا في قبضة جيوشها، حتى تستوثق من حسن نية نابليون نحو تركيا والقطر المصري. لا حاجة بنا بعد ذلك إلى إيراد الاعتبارات الفنية؛ فالمسألة على ظاهرها معناها أن انجلترا برفضها الانسحاب من مالطا لم تحترم المعاهدة. وفضلا عن أن بعض الشروط التي كان ينبغي أن تسبق الانسحاب لم تنفذ، فإن التبرير الحقيقي لموقف انجلترا لا يستند إلى مسائل فنية، بل إلى الأمر الواقع، وهو نشاط نابليون المستمر الذي لم يتفق مع سلامة مركز انجلترا العالمي.

يظهر أن العقبة الرئيسية التي اعترضت مجهودات تاليران[1] وزير خارجية فرنسا، في سبيل السلم، هي غطرسة نابليون التي كان يخشى إيلامهما. والدليل على ذلك أن اللورد هويتورث (Whitworth) سفير انجلترا في باريس، كتب بعد محادثة دامت ساعتين مع نابليون، تقريرا ذكر فيه أن القنصل الأول كان يتكلم كأنه قائد فرقة من الفرسان، لا كرأس دولة كبيرة. وكان يتخلل كلامه نغمات كبرياء وغضب وصلف؛ فتارة يتكلم باعتدال في ضرورة المحافظة على السلم لمدى عشر سنين، حتى تعد الوسائل اللازمة للتسلط على المحيطات، ثم لا يلبث أن ينقلب إلى غيظ شديد، فيقول إن في مقدوره إذا دعت الحالة تجهيز مليوني جندي، وإنه لا يهاب النزال، وإنه لا يمكن أي شيء في العالم أن يلجئه

---

([1]) ولد الأمير شارل موريس تاليران (Charles Maurice Talleyrand) في باريس سنة ١٧٥٤، وهو من أسرة عريقة، اشتغل بالسياسة إبان الثورة. غير أن تمادي الزعماء ألجأه إلى المهاجرة، فظل بعيدا عن فرنسا حتى سقوط روبسبيير، وعنده جاء باريس، وتعين وزيراً للخارجية سنة ١٧٩٥، وبقي كذلك حتى سنة ١٨٠٧. غير أنه بدأ يعمل في السر ضد الإمبراطور نابليون فعزله. ولما سقط الإمبراطور أعلن تاليران انضمامه إلى الملكية الجديدة. وظل من كبار الساسة في فرنسا مدة طويلة. وتاليران مشهود له بالبراعة في السياسة غير أنه كان لا يثبت على مبدأ.

إلى التنازل عن أي شرط من شروط المعاهدة من أجل "جون بول"، وإن الانجليز لا يستطيعون أن يلحقوا به أذى كبيراً، وإن أقصى ما يمكنهم أن يأسروا سفينتين أو يستولوا على بضع مستعمرات، لكنه سيحمل فظائع الحرب إلى لندن. "وإذا كانت أول حرب قد أكسبتنا البلجيك وبيدمنت" كما قال في ابريل، "فإن الحرب الثانية ستضع النظام الاتحادي الذي نبغيه على قرار مكين".

ظاهر إذاً أن نابليون لم يخش قطع العلائق الذي سيؤدي حتما إلى فتوح جديدة في أوربا، وإلى تعويض كارثة سان دومنجو، وإلى فتح باب جديد تصرف فيه فرنسا قواها. ولقد أقنع نفسه بطريقة ترضي ذمته، أن الحرب والظلم ضروريان لدوام دولة مؤسسة على الثورة ومعرضة للأحقاد التي تنجم عن المطاحنات الداخلية. وفي ذلك: "إن مركزي يختلف اختلافا تاما عن ملوك أوربا العريقين في الملك. هؤلاء يمكنهم أن يعيشوا عيشة الخمول في قصورهم، وأن يستسلموا لكل أنواع الرذيلة، لا يحاسبهم أحد على مشروعية مراكزهم، ولا يفكر أحد في تنصيب غيرهم، ولا يتهمهم أحد بنكران الجميل، لأنهم ولدوا من بيوت فيها الملك منذ قرون. أما أنا فمسألتي على النقيض من ذلك: فليس هناك قائد لا يعتقد أن له في العرش من الحق مثل مالي، وليس هناك رجل واحد لا يعتقد أنه كان ذا أثر فعال في طريقي التي اتخذتها في انقلاب الثامن عشر من بريمير... لذلك أراني مضطراً لأن أكون قاسياً على هؤلاء الرجال... إن ملكي قائم في الداخل وفي الخارج على الرهبة، فإذا أهملت تلك الخطة خُلعت عن العرش في الحال". في حمأة تلك الأفكار المختمرة في رأسه، وبينما تغالبه نفسه لتأجيل قطع العلائق بمنح انجلترا بعض التسليمات، كان نابليون يعمل بجد لإنجاز معدات النضال.

في ١٦ مايو سنة ١٨٠٣ ابتدأت الحرب، فكانت أعظم نزال حدث في

القرن التاسع عشر، وانتهت أخيراً عند واترلو. وفي رسالة فاخرة إلى مجلس الشيوخ، ذكر نابليون الاعتدال والصبر اللذين انتهجتهما السياسة الفرنسية، والشطط الذي ركبت متنه انجلترا في مطالبها، ونوه بعدالة أغراضه وشجاعة جنوده. أما خطته الحربية فكانت تتلخص في منع المتاجر الانجليزية منعاً باتاً من أرض الجمهورية وأرض حلفائها، ثم غزو انجلترا نفسها. ولم يساور نابليون أي شك في عظم الحرب التي أصبح لاجاً فيها؛ يدل على ذلك قوله في مايو: "إن هذه الحرب ستؤدي بطبيعتها إلى حرب أوربية، واستعداداً لذلك يجب أن أضم إلى جانبي النمسا أو بروسيا". ولما كان يعتقد أنه يمكنه اجتذاب بروسيا بسهولة "بإعطائها عظم تتلهى بقضمها" وأن الروسيا ستكون دائما فاترة الهمة، فإنه وضع خططه على احتمال مواجهة عدوه القديم، الذي واجهه مرتين منتصراً بين جبال إيطاليا ووديانها.

بقيت النمسا وانجلترا– كما كانتا أيام مولبورا (**Marlborough**) الانجليزي، وأوجين (**Eugene**) القائد النمساوي الشهير، أعدى أعداء التوسع الفرنسي في القرن الثامن عشر– هذه تسد الطريق أمام فرنسا في أوربا، وتلك تضيق عليها الطريق البحرية الموصلة إلى ما وراء أوربا من العالم.

## الفصل السادس

# فتوح الإمبراطورية

ساعد كشف مؤامرة الملكيين لاغتيال القنصل الأول، ومعاقبتهم في مارس سنة ١٨٠٤، على إتمام مشروع كان منذ زمن في دور التكوين في رأس نابليون، وظل سنتين على الأقل موضع حديث الخاص والعام. ذلك أن القنصل الأول لم يرق نظره يوما ما دستور، وظيفته بمقتضاه محدودة لمدة عشر سنوات، ونفوذه مقيد بحقوق قيام الهيئات البرلمانية التي نص عليها ذلك الدستور. لم يعادل ذلك المركز ما يستحقه رجل تطلع إلى حيازة شهرة الإسكندر أوشارلمان أو يوليوس قيصر. لذلك استفتى الشعب الفرنسي سنة ١٨٠٢ في أن تولى نابليون القنصلية مدة حياته، فكانت النتيجة إيجابية بالإجماع؛ وأدى الأمر إلى توسيع عظيم في نفوذه: إذا أُعطى في ٤ أغسطس سنة ١٨٠٢ حق اختيار خلفه وتعيين أعضاء مجلس الشيوخ. ثم انقص أعضاء مجلس التربيون إلى خمسين عضواً، وعُينت لجان الناخبين على أن يشغل أعضاؤها وظائفهم مدة الحياة، وبذا زالت آخر آثار الحرية في نظام الدولة. كان القانون الأخير من عمل مجلس الشيوخ، تلك الهيئة التي نيط بها مهمة السهر على الدستور، والتي أصبحت من ذلك العهد العامل المساعد على خرابه. ولم يكن هناك أثر للمعارضة، لأن فناء وردهات قصر لكبسمبرج[1] ملئبت بلا داع بفرقة من رماة قنابل اليد، لتسهيل

(1) أنشأت هذا القصر في باريس في الجهة الجنوبية من نهر السين ماري دي مديسي زوجة هنري الرابع ملك فرنسا من ١٥٨٩ إلى ١٦١٠.

تقرير القانون واستعداداً للطوارئ.

ولما تبدلت القنصلية لمدة الحياة إمبراطورية وراثية، في مارس سنة ١٨٠٤، لم يحدث التبديل تغييراً كبيراً في حالة الرأي العام أو في رأس نابليون. يرجع ذلك إلى المكانة التي حصل عليها في القلوب، بدليل أن الفزع الذي شمل الناس على أثر تنفيذ حكم الإعدام على دوق دانجيان ذهب أمام تصور المصائب التي كانت تنزل بفرنسا، لو اغتالت يد قاتل رأس الحكومة. ويجدر هنا أيضا ذكر أن نابليون أنقذ فرنسا من الفوضى، وأنه أقام فيها حكومة دلت كل مظاهرها على العظمة والثبوت ما لم تنكسها نكبة عنيفة. ثم لا ننسى أن حياته وحدها وقفت حائلا بين فرنسا وبين الفتنة الداخلية. نعم هال كثيراً من الفرنسيين ضياع الحرية، وأسف آخرون على تجديد الحرب، وأخذ عدد غير قليل يتوجسون خيفة من طرق نابليون ومطامعه. لكن كل هؤلاء مهما يكن ميلهم إلى التذمر من الاستبداد، وإلى اتخاذ القائد مورو نموذجا لهم في الثبات على المبدأ السياسي، لم يتطلع أحدهم إلى تجديد أيام ثورة لافنديه أو عهد الإرهاب، لأنهم أحسوا أن الوقت حان ليعلم المتآمرون الأجانب أن فرنسا اتخذت الحكومة الملائمة لحالها الخاصة، وأن إبعاد نابليون عن الحكم لا يغير الحالة العامة، فليس لأحد المهاجرين، أو لأحد رجال الإرهاب، ثمت فائدة من إبعاده.

لم يصادف تأسيس الإمبراطورية صعوبات من جهة الأمة الفرنسية أو الهيئات النيابية، بل من جانب الأقربين من أسرة نابليون. ذلك أن مجلسي الشيوخ والتربيون والمجلس التشريعي كانت كلها مستعدة لقبول مبدأ الحكومة المطلقة الوراثية، التي نُبذت نبذ النواة اثنتي عشرة سنة قبل ذلك التاريخ. ولم يكن في مجلس الدولة، الذي ضم كثيرا من ذوي الشخصيات الثورية، أكثر من سبعة أصوات مخالفة لذلك الشعور العام. ثم إن الفلاحين والجنود والطبقة

المتوسطة كانت ترى أن أي شيء إنما هو أفضل من القيام بثورة من جديد أو التشويش على نظام قائم على المساواة. إلا أن صعوبة عرضت لما لم تنجب جوزفين أولاداً؛ إذ أصبحت مسألة الوارث لعرش الإمبراطورية معروضة على بساط البحث؛ ولا تخلو المناقشة فيها من الدسائس، ولا ينتهي البت فيها بلا ضغينة ونفور. وتفصيل ذلك أن إخوة نابليون الثلاثة، وهم أكبر منه سناً، وكلهم ذوو مقدرة فوق المستوى العادي، كانوا قد نفذوا كالسهام إلى مراكز كبيرة في الغنى والسؤدد. وعلى رغم اختلاف كل منهم عن الآخر في نقط هامة من حيث الطبائع– إذ كان لويس بارد الطبع بقدر ما كان لوسيان حادة– شابه بعضهم بعضا في اتصافهم بأوصاف أسرتهم من خلق الغيرة والإرادة العنيدة. ترك نابليون الخطة الرومانية القائلة بحق الاختيار المطلق لمن يخلفه على العرش، احتراما للإلحاح الشديد الذي وجهه إليه أخوه يوسف، وقرر ألا تخرج الإمبراطورية عن دائرة أبناء ليتيشيا، حتى إذا لم تنجب الإمبراطور ولداً، ولم يتبن أحد أحفاده، يؤول التاج إلى يوسف وذريته، ثم إلى لويس من بعدهم. حُرم من حق وراثة الإمبراطورية أخوان لسبب واحد: وهو أن لوسيان العنيد تزوج من امرأة من الطبقة الوسطى، أحبها حباً جماً ورفض هجرها؛ وأن جيروم عزيز الأسرة، ارتكب مثل تلك الزلة، إذ أعلن ذلك البحار الصغير[1] أنه تزوج من امرأة في بلتيمور بأمريكا، وأنه مزمع الرجوع إلى أوربا بزوجته الأمريكية، فأثار النبأ غضب نابليون الذي أصبح كل بونابرتي في نظره أميراً وزوجا صالحا لأميرات أجنبيات.

---

(1) كان جيروم ضابطا في البحرية الفرنسية؛ ولما أعلنت الحرب بين انجلترا وفرنسا سنة ١٨٠٣. كان ذلك الشاب مع الأسطول الموجود في المياه الأمريكية، وتزوج أثناء الفترة التي أقامها الأسطول من ابنة أحد التجار في بلتيمور.

كان من مكملات الإمبراطورية، تكوين بلاط منتظم لحفلات الاستقبال، واهتمام بالرسميات. ولقد كانت أساليب القرشقي الخشنة، وحركات أقاربه الدالة على الجهل بحياة البلاط، موضوع سخرية السيدات والسادة، الذين ألفوا الظرف الطبيعي، الذي كان يوما سائدا في فرساي. ذلك أن نابليون لم يأبه لواجبات الملاطفة، وكان يجهل تقاليد الأرستوقراطية الأوربية، قليل المهارة في الرقص، متوسط الإلمام بالفروسية، خلوا من أخلاق هواة الرياضة. وكان يركب أحيانا للصيد، كواجب يحتمه عليه مركزه لا للهو والسرور، أو يطلق بندقته على الطيور الأليفة، التي كانت تقتنيها زوجه في حديقتها، منصاعا في ذلك إلى الدافع الذي كان يدفعه إلى الحفر على الكراسي والموائد بمبراته، وإلى تقطيع وتمزيق كل أداة صغيرة تقع تحت يده. وكان ذوقه الموسيقي غفلا غير مهذب، لا يحفل بالصور، ولا ينبسط لتجاذب أطراف الحديث في المجتمعات، حتى قال فيه تاليران، وكان ملما بكل تقاليد النظام القديم: أن من يستطيع تسلية نابليون يقدر على "تسلية من لا يمكن تسليته" وأن نابليون رجل يعتبر المدينة كعدوه الشخصي. وكم من ناعمة الطرف ممن تضورن من مداعبة الإمبراطور لهن بشد آذانهن بعنف، أو من جلوسه إلى جانبهن يقص عليهن ما يشاع من عدم إخلاص أزواجهن لهن، سُرت من تلك العبارة التهكمية التي فاه بها تاليران.

ليس في الدنيا شيء أكثر إفسادا للسرور من الضرب على نغمة واحدة باستمرار ممل، في موضوع طويل. وأحاديث نابليون إن لم تكن كلاما طويلا يستوجب إصغاء الحاضرين، أو توبيخاً عنيفاً، فهي استفهام طويل ممل في موضوع واحد. والغالب أن بلاطا يسوسه أناني محب للعمل، يمتاز بكثير من الفضائل: كأن يراعى الاقتصاد فيه، ويكون في مآمن من تأثير مكايد النساء، ويملأ المراكز فيه السياسيون المحنكون والقواد المدربون، لا رجال ضعفاء

وطفيليون ظرفاء- مثل ذلك البلاط لا تبزغ فيه شمس السرور. والبلاط الإمبراطوري الفرنسي الذي تجلت فيه كل تلك الفضائل المتقدمة، تخلت عنه مظاهر السرور، كما زاد فيه جلال الملك ووقار الرسميات. وكيف لا يكون ذلك وعلى رأس البلاط رجل كل نظم الرسميات عنده، كالتشريفات والملابس الرسمية، وطأطأة الرءوس إجلالا، وتقديم رجل وتأخير أخرى احتراما، ليست إلا بعض مظاهر السلطان، التي تدخل السرور على النفس، وتشعر الحاكم بقوته بين الناس، ولا قيمة لها إلا أنها تبهر خيال الرجل العادي، وتملؤه بالهيبة والإجلال المنبعثين من رئيس البلاد.

أما فكرة أن الملك مخلوق وظيفته الرئيسية إدخال السرور إلى قلوب رعاياه فكانت بعيدة عن نابليون. والسبب أنه اعتقد أن واجبه وهمه أن يسوسهم ويسوسهم دائما؛ فكان إذا جلس إلى مائدة لعب الورق أو الشطرنج، كما يلعب ليكسب، حتى إذا عجز عن الكسب بالطرق المشروعة عمد إلى الغش. وكان لروح السلطة سلطان على طبيعته، حتى أن كل رسائل أتباعه، لم تفلت من استقصائه ولو كانت خاصة. وكان كلما خف ضغط الأعمال العامة يجلس بين أخصائه، فيحدد لبعض سيدات البلاط عدد أفراد أسرتها، أو مصاريف منزلها، أو نفقات الخيل التي تقتنيها.

هذا، وكانت روح حب السلطة، التي تفسد الحرية والسرور، ممثلة بأجلى معانيها في علاقات نابليون مع أعضاء أسرته. ومع ذلك كان يحفظ في قلبه حباً خالصاً لأمه ولأخوته وأخواته؛ وليس في حياته شيء أمجد من تحمله للشدائد التي تحملها في حداثته، أو من المروءة التي أظهرها أيام رجولته لرفاهة أسرته. ويرجع ذلك من جهة إلى صفة حب العشيرة القرشقية، وإلى اعتقاده من جهة أخرى في وجوب التحقق من أن أهله كانوا في هناءة، ليبرهن لفرنسا وللعالم

أجمع، أن أسرة بونابرت أحسن من آل بربون، إذا اتخذت الأسرات قاعدة للتقدير والموازنة. وقد كان في تأسيس الإمبراطورية فرصة أكبر من أي فرصة سابقة لتأييد ذلك القول: فآل بربون الذين حكموا فرنسا، وكانوا لا يزالون حكام إسبانيا ونابلي، أسرة فرنسية قضت السياسة والمطامع الحربية أن يصبحوا أداة الملكية بين الشعوب اللاتينية، وليس ببعيد أن يكون هناك مستقبل لا يقل عظمة عن عظمة آل بربون مخبوءاً في طيات المقادير لأبناء ليتيشيا. ولو تم ذلك لكانت حادثة من خوارق الحوادث، وبرهانا ساطعا على إمكان قلب نظام العالم القديم البطيء رأساً على عقب، بمجهود رجل ذي مهارة فائقة، خلق من أبناء ليتيشيا أمراء وكبراء في إمبراطورية يبلغ اتساعها ما بلغه ملك شارلمان. إنما كان هناك شرط قاس للنجاح في ذلك المضمار، وهو أن الرفعة والمراكز السامية كانت تشري بالطاعة العمياء لرئيس الأسرة.

من يوم أن أعلن نابليون الحرب على انجلترا كان يعد المعدات لغزوها. قال يوماً: "ليس المانش إلا حفرة لا يتطلب عبورها كثيرا من الإقدام". وقد زعم أنه إذا تم ذلك سترتمي انجلترا عند قدميه؛ فقد قال في حديث عن ذلك الموضوع في سنت هيلانه، أن أربعة أيام كانت تكفي لدخوله لندن "لا فاتحا بل محرراً مثل وليام الثالث[1]" مع امتيازه في المروءة وفي التنزه عن الهوى والتحيز؛ وأنه كان عازما بعد إعلان الجمهورية في انجلترا على إلغاء مجلس اللوردات، وإصلاح مجلس النواب، وتوزيع ثروة الأعيان الوطنين على الفقراء. وعند ذلك يرحب به

---

(1) وليام الثالث هو وليام أورانج ابن أخت شارل الثاني ملك انجلترا (١٦٦٠– ١٦٨٥). جاء بعد شارل المذكور جيمس الثاني (١٦٨٥– ١٦٨٨). غير أن انجلترا لم تطق صبرا على أميال جيمس الكاثوليكية، فخلعته وولت وليام العرش، فقبل وجاء انجلترا سنة ١٦٨٨.

الرعاع؛ ويمنح هو البحارة "كل شيء" يطلبونه[١]، ويقيم جمهورية منفصلة في أيرلندا. وهكذا تصبح الجزيرتان وقددال حكم الخاصة في الأولى، وزال حكم الأجنبي في الثانية[٢]، تشاطران فرنسا عهد التجديد.

ليس ثمة قيمة في تلك الخرافات: إذ لو سلمنا جدلا بإمكان فتح نابليون انجلترا فلا مجال للشك في مصيرها إلى ما صارت إليه بروسيا بعد موقعة ينا[٣] (Jena): فيبتز الجباة الفرنسيون منها كل ما تستطيع دفعه من الضرائب، ويلقى على عاتقها جيش احتلال، ثم لا يمضي زمن طويل حتى يهب القوم في وجه الجباة والجنود ويطردوهم من أرض الوطن. قال أحد مشهوري الكتاب الحربيين الأوربيين: إن من سوء حظ أوربا كون العلم الثلاثي الألوان لم يخفق أبداً على حصن لندن وقصر وندزور[٤]؛ إذ لو كان استولى نابليون على انجلترا لاستنفد هناك بعض قوته التي آذى بها أوربا، ولأصبحت انجلترا عاجزة عن

---

(١) ذكر المؤلف البحارة، وأراد أن يشير إلى حالة التمرد التي كانت انتشرت في الأسطولي الانجليزي في بحر المانش سنة ١٧٩٧، لأجل تحسين المرتبات والأجور. ولم يكن هناك سبب سياسي لتلك الفتنة فيستغله نابليون سنة ١٨٠٤، بل قد أجبت مطالب البحارة في السنة التي تمردوا فيها.

(٢) المقصود بالجزيرة الأولى انجلترا، وبالثانية ايرلندا، وقد أورد المؤلف تلك العبارة بخصوص الجزيرتين، ليشير إلى الحالة السياسية في الجزر البريطانية في أوائل القرن التاسع عشر في نظر نابليون.

(٣) انظر حرب نابليون مع بروسيا في هذا الفصل من الكتاب.

(٤) حصن لندن (Tower of London) كما هو الآن عبارة عن قلعة قديمة، كانت ذات أهمية في القرون الوسطى، حين كان لكل مدينة قلعة وباب. وقصر وندزور (Windsor Castle) قصر قديم بناه وليام الفاتح في القرن الحادي عشر، وأدخل فيه آل تيودور عدة تعديلات. والقصر من أجمل مناظر ضواحي لندن، وفيه مسكن خصوصي لملك انجلترا، وبه جزء مخصص لضيافة الملوك الذين يزورون مملكته، وبالقصر أيضاً مقبرة الأسرة المالكة.

احتكار ميدان الاستعمار، ذلك الاحتكار الذي يثير الآن نار الحقد عليها في قلوب مزاحميها من الدول الأوربية. ربما كان من المعقول القول بأنه لو كان نزل جيش فرنسي بأرض انجلترا لقضى على سيادة نابليون في أوربا في مدة أقصر مما حصل، غير أن هناك ما يفند ذلك الرأي. ثم أن التاريخ لا ينكر أنه كان خيراً لتقدم العالم أن يؤول أكبر نصيب في الاستعمار لدولة تدين بالحرية السياسية والصناعية، بدلا من دولة أو دول تبغي الاستعمار من أجل الاحتكار التجاري. هذا ومهما يلحق نابليون بانجلترا من العطب، فليس ثمة ما يدعو للاعتقاد في عدم استطاعتها عند سقوطه استرداد سيادتها التجارية والبحرية، حتى تسبق في ميدان التوسع الاستعماري الدول الأخرى التي كانت مصالحها لا تزال جلها– أو كلها– مرتبطة بقارة أوربا ليس غير. مثلا كانت هزيمة انجلترا في سنة ١٨٠٤ أو سنة ١٨٠٥ كافية لإرجاع جزيرة سيلان أو مستعمرة الرأس إلى الهولنديين؛ لكنه لم يكن من المعقول أن تؤدي تلك الهزيمة إلى مد سنة في أجل الإمبراطورية الاستعمارية الألمانية، أو يزيد فداناً إلى مساحتها[1].

يلزم لغزو انجلترا ثلاث أمور هامة. هي يجش قوي، ونظام يكفل نقل الجيوش والمؤن، وبحرية قوية تحمي عبورها وإنزالها إلى البر. لم يكن إعداد أي واحد من تلك الأمور هينا؛ إلا أن الأول أسهل من الثاني، وهذا أسهل من الثالث. استطاع نابليون، أثناء الفترة ما بين مايو سنة ١٨٠٣ ومايو سنة ١٨٠٥، تعبئة جيش مؤلف من ٢١٠.٠٠٠ مقاتل بفضل نظام التجنيد الإجباري والقسوة التي استعملها المديرون في إنفاذه؛ فأدى ذلك إلى كثير من الآلام، ولم ينتج النتيجة المرجوة بدليل قول نابليون: "إن خمس المجندين من

---

(1) يشير المؤلف هنا إلى الإمبراطورية الألمانية قبل الحرب العظمى، ويرد على أقوال المؤرخين الذين يكتبون ضد الإمبراطورية البريطانية الحالية.

حثالة الأمة". غير أن أولئك المجندين، الذين كانوا معظمهم من فقراء المدن وفلاحي الأرياف، ما لبثوا بفضل تدريب ضباطهم الكفاة المحنكين، أن صاروا جيشاً منظما في معسكرات التمرين، التي أقيمت على الشواطئ الفرنسية الواقعة على بحر الشمال وبحر المانش، حتى كان في وسع نابليون في أي وقت من عامي ١٨٠٤ و١٨٠٥ أن يرسل إلى شواطئ مقاطعة كنت (**Kent**)، الواقعة في أقصى الجنوب الشرقي من انجلترا، قوة هجومية مؤلفة من ١٠٠.٠٠٠ مقاتل، لا يقلون بأساً ومهارة عن أي الجيوش التي حاربت في ذلك العصر. أما مسألة تجهيز وسائل النقل لذلك الجيش فكانت أكثر صعوبة: ففي مايو سنة ١٨٠٤ صدرت الأوامر فعلا ببناء ٢١٠ من النقالات البحرية المستوية القيعان؛ وفي يوليه صدر الأمر ببناء ١٤١٠؛ وفي أغسطس ببناء ٢٠٠٠؛ وبذل مجهود عظيم لتفهيم الشعب الفرنسي ضرورة الإعانات المالية. لكن بصرف النظر عن استحالة بناء ذلك العدد العظيم من السفن النقالة، بدون تعطيل كل الأعمال المرتبطة ببناء السفن الحربية، كان من المستحيل سفر تلك النقالات من المرافئ التي بنيت فيها، إلى المرفأ الذي عين لرحيل الجنود إلى انجلترا، بدون أن تلحق بها الطرادات الانجليزية عطباً كبيراً. أضف إلى ذلك أن السفن التي تم إنجازها نقصت عما قدر نابليون، فلم يزد عدد السفن التي اجتمعت عند بولونيا على ١٥٠٠؛ وعلى الرغم من توسيع ذلك الميناء، فإنه كان غير صالح لا تزال الجنود إلا بعد عناء كبير.

فضلا عن عدم كفاية المعدات المتقدمة ورداءتها، كان نقص المطلب الثالث العيب المشؤوم في كل المشروع: ذلك أنه خُيل لنابليون في خريف ١٨٠٣ أن في مقدوره عبور المانش في ليلة دامسة الظلام هادئة الرياح، بدون حاجة إلى أسطول يحرس النقالات. مثل ذلك العمل كان كالسعي إلى الحتف

بالظلف؛ لأنه لم يحسب فيه حسابا لأوقات المد والجزر وحالاتهما المتعددة في بحر المانش، ولا لمخرج بولونيا الضيق، ولا لصعوبة إبقاء عدد عظيم من السفن مستوية القيعان، بعضها بقرب بعض، عند هبوب ريح فجأة في وسط الليل بالبهيم. ولو فرضنا بناء على الخطة المرسومة أن يخرج أيضاً أسطول من النقالات الهولندية من جزيرة تكسل (**Texel**) الواقعة عند مدخل بحر زيدرزي، لمعاونة أسطول النقالات الفرنسية، فلن يستطيع الأسطولان عمل شيء إذا لم تحرسهما السفن الحربية. اقتنع نابليون أخيراً أن أول خطوة في سبيل النجاح هي جمع كل قواته البحرية في المانش، حتى إذا أمكنه أن يجمع في مضايق المانش أسطولا حربيا فرنسياً متفوقا لمدة قصيرة عن أي أسطول انجليزي يمكن تسييره ضده، فعند ذلك يستطيع أسطولا النقالات العبور. هنا وهنا بالضبط كانت الصعوبة الكبرى: وهي أن الأسطول الحربي الفرنسي، فضلا عن كونه أقل قوة وعددا من الأسطول الانجليزي، كان مبعثراً في البحر الأبيض المتوسط، وفي خليج بسكاي وموانئ المانش. وكان أكبر جزء منه محاصرا في ميناء برست، ليلا ونهارا، صيفاً وشتاء، ومعرضا لكل تقلبات الجو رديئة ومعتدلة، بأسطول تحت قيادة أمير البحر الانجليزي كورنوالس (**Cornwallis**). ثم كان نلسن واقفا بالمرصاد لأسطول طولون، على رغم أن تلك المراقبة الدقيقة لم تكن جزءا من خطته. برهن نابليون على مهارته وإقدامه في الأمور البحرية لما رأى حرج مركزه، وعلم أنه لا يمكن حل تلك العقدة إلا بإجلاء أمراء البحر الانجليزي عن مراكزهم، واستدراجهم إلى بحار بعيدة. والحقيقة أن مكايده العديدة، وما تضمنت من مهارة وجرأة، بهرت العقول– فمن تظاهر بالإقلاع إلى مصر، ثم إلى ايرلندا، ثم إلى جزر الهند الغربية؛ ومن تسيير أسطول طولون إلى ميناء شربورج، ومروره بعد مخادعات طويلة أمام أسطول كورنوالس. لو كان البخار مستعملا إذ ذاك في السفن، وكان عند نابليون أمراء بحر ذوو جرأة، وبحارة ذوو

كفاية، لأمكن تنفيذ بعض تلك الخطط بالدقة. إلا أن نابليون كان ينتظر كثيراً ويأمل كثيراً من بحرية ناقصة خائرة القوى، ونسى أن الرياح والمد والجزر لا تسخر بأمر إنسان.

زعم بعض الباحثين أن كل تلك الخطط والاستعدادات المتقنة كانت كلها خدعا في حد ذاتها، وأن نابليون لم يقصد يوماً أن يعبر المانش. لكن من قرأ الرسائل الكثيرة الدقيقة الحارة، التي استغرقت ثلاث سنين، والتي دارت كلها حول المسألة البحرية، لا يشك لحظة واحدة في أن نابليون كان جاداً في خططه لغزو انجلترا، أو في عزمه على إنفاذها في ظرفين على الأقل: أولهما في خريف سنة ١٨٠٣، وثانيهما في صيف سنة ١٨٠٤، وربما في ربيع وصيف سنة ١٨٠٥ أيضاً. ثم إذا لم يكن جاداً في عزمه فلماذا أمر بضرب نيشان عليه صورة هرقل يخنق إحدى بنات البحر[١] من وجه، وعليه من الوجه الآخر "ذكرى غزو انجلترا. ضرب في لندن سنة ١٨٠٤"؟ ولماذا صرف الإمبراطور خمسة أسابيع على الشاطئ الشمالي، في صيف سنة ١٨٠٤، يبذل كل ما أوتي من نشاط في إعداد المعدات البحرية، وتستهويه نشوة الطرب عند رؤية البحر؟ أكان هازلا عندما خصص عشرين مليون فرنك في مارس سنة ١٨٠٥، لإصلاح الطرق في بيكاردي (**Picardy**)، وهي المقاطعة الفرنسية المطلة على الشواطئ الانجليزية الجنوبية؟ أو حينما رسم خطة دقيقة بعد كثير من التنميق والتعديل، تتضمن جمع كل السفن الحربية الفرنسية عند جزيرة مارتينيك في الهند الغربية، حتى إذا تم تضليل الأسطول الانجليزي أسرعت السفن الفرنسية قافلة إلى بولونيا؟ الحقيقة أنه لما وضح عدم إمكان إنفاذ المشروع، أصبح من السهل،

(١) هرقل بطل الشجاعة في الأقاصيص اليونانية القديمة؛ وقد رسم على النيشان رمزاً لنابليون أما بنت البحر فرسمت رمزاً إلى انجلترا.

بل من الطبيعي، القول بأن غزو انجلترا لم يُقصد أبداً. عند ذلك أعلن نابليون بلهجة متغطرسة، أن عبور المانش لم يكن إلا إيهاما، قصد به التمكن من تعبئة الجيش وتموينه وتدريبه، استعداد لحرب أوربية بدون إثارة خاطر أحد؛ وأن الملايين التي صرفت على العمارة البحرية، وعلى إصلاح الطرق والموانئ، لم تكن إلا لذر الرماد في عين الأجنبي؛ وأن السلاح الذي وجهه باستمرار ومهارة نحو انجلترا، لم يكن إلا موجهاً لإثارة دولة أخرى في الجانب الآخر من أوربا، أعني النمسا.

لا تخلو تلك المعاذير من بعض الحق، لأن احتمال نشوب الحرب في أوربا، الذي كان يشغل رأس نابليون، جعل الجيوش المحتشدة عند بولونيا نافعة من وجهتين: أحداهما وأهمهما توجيهها ضد لندن، وثانيتهما- في حالة فشل المشروع البحري- ضد عصبة الدول الأوربية، التي كان من المحقق، عاجلا أو آجلا، أن يكونها بت رئيس الوزراء الانجليزية حين ذاك. وفي الحقيقة أنه إذا استعصى غزو انجلترا، فلا يبقى إلا طريقان لأثابتها إلى رشدها وهما: إما إنفاذ ضربة قاضية في الهند، وإما إقامة حصار قاري في وجه التجارة الانجليزية. جرب نابليون الطريق الأولي سنة ١٧٩٨؛ وبعد نقض معاهدة أميان، كان جل همه موجهاً نحو الطريق الثانية، ظنا منه أن هزيمة انجلترا تستلزم التسلط على دول أوربا أولا، حتى إذا فشل غزو الجزائر البريطانية المتقدم ذكره، كان من اللازم التحرش بدولة أوربية إلى حد يكون عنده قطع العلائق معها أمراً يسيرا.

لم يكن في التاريخ سابقة يتعلم نابليون منها فن إثارة الخواطر. وتفسير ذلك أن البلاط النمساوي، بسبب ما تكاثر عليه من المصائب الحربية المتوالية، كان على استعداد لقبول كثير من ضروب الإذلال قبل أن ينزل إلى ميدان القتال من جديد. فمثلا وقفت النمسا جامدة وهي ترى غزو ولاية هنوفر

بألمانيا، وإعادة احتلال مملكة نابلي، وإكراه إسبانيا على دفع إعانة مالية؛ وقبلت وهي تحرق الأرم القبض على الأمير دانجيان، وهو في أرض الإمبراطورية النمساوية، والحكم عليه بالإعدام بعد محاكمة سرية. ولما أعلن نابليون نفسه إمبراطورا رضيت صاغرة؛ وكذلك فعلت لما أخذت نابليون عزة الملك، وسافر إلى إكس لاشابل عاصمة إمبراطورية شارلمان القديمة، ليتسلم الوثائق التي اعترفت النمسا فيها بمركزه الجديد. السبب في ذلك كله، أن هيئة كبار الفنيين الحربيين قررت أن النمسا ليست على استعداد للحرب بعد، وأن الأرشيدوق شارل النمساوي، الذي كان ينصح بالتروي، تغلب برأيه مدة طويلة على آراء المتحمسين القائلين بالتعجيل.

خرجت النمسا فجأة من ذلك الموقف السلبي من جراء أعمال نابليون في إيطاليا: وذلك أن آل هابسبورج شاهدوا مرغمين سلسلة من التغييرات التي لم ترق نظرهم، منها تأسيس جمهورية في لمبارديا على حسابهم سنة ١٧٩٧، واسترجاعها على حسابهم أيضاً سنة ١٨٠٠، وتأسيس جمهورية بها ثانية بعد ذلك بسنتين، على نظام أدق وأشد خطرا تحت رآسة نابليون. كانت النمسا تغض الطرف عن كل تلك الإجراءات، آملة أن تصبح "الجمهورية الإيطالية" فاصلا بين الفرنسيين في بيدمنت والنمساويين في البندقية. لكن ظهر فجأة سنة ١٨٠٤ مشروع جديد منذرا بالأخطار: إذ أعلن نابليون أن احتفاظه برآسة الجمهورية الإيطالية لا يتفق ومركزه الجديد كإمبراطور فرنسا؛ وعلى ذلك أخطرت النمسا بتحويل الجمهورية الإيطالية ملكية وراثية، وبقبول يوسف بونابرت لعرشها، مع الضمان الكافي لبقاء تاجي إيطاليا وفرنسا لا يحملهما رأس واحدا. إلا أن ذلك المشروع على ما فيه من شبهات، وما تضمنه من مخاوف، أستبدل بآخر كان أدعى لإقلاق بال النمساويين: وهو أن قبول يوسف بونابرت

للعرش الإيطالي كان سابقا لأوانه؛ لأنه بعد أن فكر وأدرك أنه من ضمن المرشحين لعرش الإمبراطورية الفرنسية، آثر البقاء في فرنسا منتظرا ما تأتي به الأيام، على أن يقبل مركزاً في لمبارديا مملوءا بالمتاعب محملا بالمسئولية. ثم فكر نابليون في تبني أكبر أولاد أخيه لويس، وفي منحه وهو في الثالثة من عمره لقب ملك إيطاليا، حتى يبلغ أشده فيملك زمام عرشها بيده. إلا أن ذلك المشروع أهمل لمعارضة أبي الولد؛ فستقر رأي الإمبراطور على أمر ظهر منه جليا مبلغ أطماعه: ذلك أنه عزم على أخذ التاج الإيطالي لنفسه، فيصبح ملك إيطاليا، على أن يكون ربيبه يوجين بوهارنيه قائما بالأمر عنه في ميلان. جعل ذلك الترتيب مؤقتاً ريثما يخلى البريطانيون مالطا، والروسيون جزيرة كورفو في بحر الأرخبيل. لكن كان من المستحيل على أي سياسي ذكي أن يصدق كل تلك الأقوال والتحفظات، أو يعتقد أن نفسية نابليون تسمح بالتنازل عن تاج وقع في يده مرة. وفي الحقيقة لم يخف نابليون نياته، وسرعان ما أصبح شارلمان الجديد، وملك أكس لاشابل وميلان، والمهيمن على فرنسا وإيطاليا، فضلا عن توجه البابا إليه وتبريكه حديثا إمبراطورا على الفرنسيين. على ذلك ذهب نابليون في يونيه سنة ١٨٠٥ إلى إيطاليا، وتوج نفسه بكل هدوء في كاتدرائية ميلان بتاج ملوك لمبارديا الحديدي، كما كان يفعل أباطرة الدولة الرومانية المقدسة في القرون الوسطى، إذ يأتون وحولهم الفرسان الألمان ليثبتوا للملأ حقوقهم الخيالية على سهل لمباردي. أجل كانت سلطة نابليون أوسع مما كان لبرباروسا الذي دانت له البلاد في القرون الوسطى، وامتازت عنها بأنها لم تلق من يناهضها. ولقد انتهز فرصة زيارته لإيطاليا تلك المرة فكون "إقطاعا إيطاليا" لأخته إليز (**Elise**) من بلدة بيومبينو (**Piombino**) الواقعة على الشاطئ

الإيطالي في مواجهة جزيرة إلبا، وضم إلى الإمبراطورية الفرنسية الساحل الذي تتكون منه الجمهورية الليجورية[1].

كانت الروسيا وانجلترا تحرضان النمسا بإلحاح لمحاربة نابليون الذي أرغمها على نحو ما تقدم. والسبب أن القيصر اسكندر– ذلك الشاب المخراق الطموح– كان غاضبا من أجل إعدام دانجيان، بدرجة أنه وقع في ٦ نوفمبر سنة ١٨٠٤ على معاهدة دفاعية مع النمسا، ضد أي اعتداءات جديدة من جانب فرنسا. وقعت تلك الاعتداءات لما خرقت فرنسا حرمة معاهدة لونيفيل بجرأة، فوردت الأخبار على البلاط النمساوي أنه إذا لم تهب النمسا بسرعة، فإنها لن تلق معونة رجال الروسيا ولا أموال انجلترا فيما بعد. على ذلك انضم فرنسيس إمبراطور النمسا للتحالف[2]، في ٧ يونيه سنة ١٨٠٥، وبدأ في تعبئة جيوشه. بيد أن عين نابليون الساهرة لم تغفل عن تلك الحركة؛ ولما كان من المحتمل أن تنصرم بضعة شهور قبل أن تتأهب النمسا للحرب، رأى أن يمضي هو في إعداد خطته العظيمة والأخيرة ضد انجلترا، حتى إذا ما فشلت انقض على جموع النمساويين ليكتسحهم دفعة واحدة.

ثم كتب نابليون في ٢٣ أغسطس، وهو في بولونيا إلى تاليران، قال: "قام أسطول من فرول (**Ferrol**) مؤلف من أربع وثلاثين سفينة، ولم يجد للعدو أثراً؛ فإذا نفذ ذلك الأسطول الأوامر المعطاة له، ولحق بالأسطول المقلع من برست (**Brest**) ليدخلا المانش معا، فإن هناك أملا أن أصبح المسيطر على انجلترا".

---

(1) هذا هو الاسم الذي أطلق على جمهورية جنوا بعد أن فتحها الفرنسيون سنة ١٧٩٧، وألغوا نظام الجمهورية القديمة.

(2) هذا هو المعروف بالتحالف الثالث؛ وقد نجح في تكوينه بت رئيس الوزارة الانجليزية من الروسيا والنمسا والسويد وانجلترا، وكانت إسبانيا وباقاريا في ذلك الوقت في جانب نابليون.

ثم قال: وإذا لم يتم ذلك "فسأغادر معسكري في هذه الجهة، وأكون في يوم ٢٣ سبتمبر في ألمانيا على رأس ٢٠٠.٠٠٠ مقاتل، وأبعث ٢٥.٠٠٠ جندي أخرى إلى مملكة نابلي والبندقية، وأكون قد وسعت ممتلكات منتخب بافاريا، فلا أعود أرهب جانبا النمسا". ولكن قبل كتابة تلك الرسالة بأسبوع، أي في ١٥ أغسطس، كان أمير البحر فيلنيف، قائد الأساطيل الفرنسية والأسبانية المتحالفة، قد أخفق في محاولته، وأصدر الأمر بالإياب إلى قادس على شاطئ إسبانيا الجنوبي[١].

هكذا فشل المقصد الأول بفضل يقظة البحرية الانجليزية، فلم يبق لنابليون إلا أن ينفذ الأمر العظيم الآخر. كان النمساويون قد عقدوا النية على تسيير الجزء الأعظم من جيوشهم إلى إيطاليا، وعلى إبقاء ٥٠.٠٠٠ جندي فقط للقتال في جنوب ألمانيا. يرجع ذلك الترتيب إلى شيء من سوء تقدير الأحوال. ثم زاد الموقف حرجا قلة صبر النمساويين وعدم مبالاتهم بضرورة انتظار وصول الإمداد الروسية. تفصيل ذلك أنه بالرغم من الاتفاق على انتظار

---

(١) تفصيل ما حدث أن أمير البحر فيلنيف (**Villeneuve**) نجح أولا في استدراج نلسن نحو جزائر الهند الغربية في ربيع سنة ١٨٠٥؛ غير أن نلسن كشف الحيلة لما شاهد السفن الفرنسية تتأهب للرجوع عند جزيرة أنتيجا أحدى جزائر الهند الغربية؛ على ذلك أرسل نلسن رسولا على ظهر أسرع سفنه لتحذير الحكومة الانجليزية، التي أرسلت إلى أمير البحر كورنوالس، الذي كان يحاصر الأساطيل الفرنسية الراسية في برست وفرول، أمراً بترك الحصار والخروج إلى البحر لمقابلة أمير البحر الفرنسي، فقابله عند رأس فنستر (**Finistre**) في جنوب إسبانيا، في ٢٢ يوليه سنة ١٨٠٥، وألحق به الهزيمة. عند ذلك اضطر فيلنيف إلى الالتجاء إلى ميناء قادس، وجاء أسطول انجليزي لمحاصرته فيها. ثم حاول فيلنيف الخروج إلى عرض البحر والانتقام لهزيمته عند رأس فنستر، فكانت النتيجة أن لحقت به الهزيمة التامة عند رأس الطرف الأغر في ٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥ على يد أمير أمراء البحر نلسن الذي جرح أثناء المعركة ومات بعدها بقليل.

وصول ٥٠.٠٠٠ مقاتل روسي إلى بلدة براوناو (**Braunau**) على نهر الأن (**Inn**) في ٢٠ أكتوبر، ظن الجنرال النمساوي ماك (**Mack**) من الحزم أن يتقدم نحو الحدود الفرنسية، بغية أن ينضم إليه أهل ألمانيا الجنوبية، أو أن يحدث وصول فرنسا ثورة داخلية. وسرعان ما لقيت تلك الغلطة جزاءاً وفاقاً؛ إذ بينا كان ماك يحلم باختراق الغابة السوداء دون أن يلقي مقاومة، إذا بجيش يبلغ عدده مثل عدد جيشه ثلاث مرات، ويمتاز بأنه أحسن منه قيادة وأكفأ ضباطا وأدق نظاما، يعبر مسرعا ألمانيا من طرق شتى على خطط موضوعة بدقة رياضية. وسرعان ما أحاطت الشباك بقنصها الغافل، ولم تمض ثلاثة أسابيع على عبور الجيش الأعظم[1] نهر الرين، حتى كان ماك وجيشه النمساوي قد سلما عند الم (**Ulm**). عند ذلك كتب نابليون: "لقد نفذت خطتي كما رسمتها بالضبط". وقد لا يعي التاريخ، بما فيه من ذكريات وأمثال، ونخص بالذكر منها حياة القائد البروسي ملتكه[2]، مثلا كان تنفيذ خطة التطويق منطبقاً تمام الانطباق على الخطة الأصلية كما حصل في الم.

بينما الروسيون والنمساويون يتقهقرون أمام نابليون، كانت سحب حالكة تتجمع في شمال ألمانيا. كانت الحكومة البروسية وقتئذ غير الهيئة الرائعة التي تسير الآن قوى خمسين مليون ألماني، على نظام عسكري كله وطنية

---

(١) أطلق هذا الاسم لأول مرة على الجيش الذي أعده نابليون لغزو انجلترا، وقد بقي ذلك الاسم لاصقا بجيش الإمبراطور في حروبه المتعددة.

(٢) برنهارد فون ملتكه (**Bernhard Von Moltke**) هو القائد البري البروسي الذي بقي رئيساً لهيئة أركان الحرب في الجيش البروسي ثلاثين علما. ولد سنة ١٨٠٠، وتوفى سنة ١٨٩١؛ وهو أعظم أستاذ، جاد به النصف الأخير من القرن التاسع عشر، في علم خطط القتال وتدابيرهز

متحمسة[1]. وكانت بروسيا نفسها أقل ثروة وسكاناً ودرجة من المستوى المنخفض الذي تعيش فيه ايرلندا الحديثة، حتى خيل أنها نبذت تحت حكم فردريك وليام الثالث أطماعها كدولة من دول الدرجة الأولى. مثل ذلك أنها اتبعت خلال عشر سنوات سياسة حيدة دائمة، بلا شجاعة ولا تبصر، رغم إثارات تكفي لاستفزاز أمة ذات شمم للقتال. ولقد جاء الوقت الذي لم تستطع بعده بروسيا صبرا: ففي خريف سنة ١٨٠٥ بلغ السيل الزبي، لما سار جزء من الجيش الفرنسي مخترقا ألمانيا في طريقه إلى الم، ثقة منه أن لا جناح عليه في خرق حرمة حياد بروسيا. ظاهر أنه لو تركت أمثال تلك الجرائم بلا عقاب، فلا قيمة لمنطقة الحياد، التي كانت تحت حماية بروسيا بمقتضى معاهدة بال. لذلك عقد ملك بروسيا مع قيصر البروسيا معاهدة تحالف في بوتسدام، مؤداها أن تعرض بروسيا استعدادها للتدخل في جانب نابليون. وُضعت شروط تلك المنحة بشكل يجعلها تؤدي للحرب بعد شهر، تكون بروسيا في أثنائه قد أعدت عدتها: ذلك أنها طلبت من غازي الم أن ينسحب من هولندا وألمانيا ونابلي وسويسرا وبيدمنت؛ وإلا أطلقت في سبيل مواصلاته مائة وثمانين ألف بروسي.

كان من الحزم أن يرجئ إمبراطورا النمسا والروسيا الحرب لوقت نزول الجيش البروسي إلى الميدان، لاسيما وأن جميع الظروف كانت تقول في التأني السلامة وفي العجلة الندامة. وتفصيل ذلك أن نابليون رغم استيلائه على فينا كان معرضاً للهجوم من كل صوب وحدب بجيوش الأرشيدوق شارل، الذي رجع بسرعة من إيطاليا، وبجيوش الروسيا التي ارتدت بعد الم إلى بوهيميا، حيث أخذت تنضم إليها فلول الجيش النمساوي، التي نجحت في الخلاص من الشرك الذي نصب في الم. لو أنه أضيف إلى تلك الوحدات الهائلة، رغم تفوقها، قوة

(١) يصف المؤلف الإمبراطورية الألمانية قبل الحرب العظمى.

جيش بروسي يحارب في وادي الدانوب الأوسط، لأصبح لمخاطر ذلك المركز، حتى أنه فتح باب المفاوضات مع كل من الإسكندر وفرنسيس عله يفسد بينهما. على أنه تخلص من ذلك المأزق لا بالسياسة، بل بغرور القيصر اسكندر، الذي اعتقد أنه يمكنه وحيداً قهر نابليون، فأراد أن ينفرد بذلك الفخار، وعقد النية على إجبار نابليون على القتال: كان اليوم الثاني من ديسمبر سنة ١٨٠٥ الموافق عيد تتويج نابليون، حين وقعت الواقعة الكبرى، التي أخذت اسمها من قرية أسترلتز (**Austerlitz**) في مورافيا، حيث أقام الإمبراطوران مراكزهما الرئيسية. في ليلة الواقعة ساد معسكرات الفرنسيين روح مدهش ملؤه الثقة؛ وأنارت ظلام الليل البارد أضواء الرقص بالمشاعل، الذي اشترك فيه سبعون ألفاً هاتفين للإمبراطور، مبشرين بالنصر في الصباح. أما جيش الحلفاء البالغ ثمانين ألفاً، فكان معسكراً على مرتفعات براتزن (**Pratzen**) التي عرفها نابليون جيداً من قبل، حتى إذا أشرقت الشمس أمكنه رؤية أعدائه ينحدرون من الهضبة "انحدار السيل إلى الوادي". كانت خطة نابليون أن يحول كل مجهود الهجوم الروسي ضد جناحه الأيمن، حتى يتيسر له بعد ذلك تسيير قوة كبيرة إلى مرتفعات براتزن، ليشتت قلب الجيش الروسي. رتبت الحركات بالدقة اللازمة للنجاح في كل الحروب؛ مثلا وجه نابليون إلى القائد سولت[1] السؤال الآتي: "كم من الوقت يلزمك للوصول إلى مرتفعات براتزن؟" فأجاب سولت: "يلزمني أقل من عشرين دقيقة". وعندها رد عليه نابليون: "إذا كانت المسألة كذلك، فيمكننا أن ننتظر ربع ساعة آخر". ثم لما

---

(1) ولد نيقولا سولت (**Nicola Soult**) سنة ١٧٦٩. دخل الجيش جنديا عاديا وترقى فيه حتى كانت أيام نابليون فترقى في أيامه أيضا. وهو بلا شك من أعظم قواد نابليون قدرا وخبرة ومهارة في الحرب. ولما سقط نابليون أبعد سولت عن فرنسا، وبقي كذلك حتى استدعته الحكومة الفرنسية نفسها سنة ١٨١٩، وخدم الملكية الجديدة.

علم نابليون من طقطقة البنادق ودوي المدافع، أن الروس قد اشتبكوا مع جناحه الأيمن، سير مورا وبرنادوت[1] وسولت ضد قلب الأحلاف. وقد حارب الروس بتلك الشجاعة التي كثيراً ما أكسبتهم فخارا في تاريخ الحروب. بيد أن الفرنسيين ظهروا عليهم لكثرة عددهم وإقدامهم: فاستولى سولت على المرتفعات حوالي الظهر، وأخذت فلول جيش كوتوسوف (**Kutusoff**) تنحدر متقهقرة على الجانب الشمالي للهضبة، بينا تحول قلب الجيش الفرنسي إلى اليمين وحمل على جانب ومؤخرة الجناح الروسي الأيسر. رأى الإمبراطور بعينه من كنيسة سانت أنطوني كيف أبيدت ثلاث فرق روسية، ولما تبودلت الطلقات الأخيرة، ركب إلى الميدان في ساعة الغسق في تلك الليلة الباردة، وتفقد بإمعان غريب غنائم اليوم من جثث هامدة وأجسام تنبعث منها أصوات الآلام.

وقفت الحرب فجأة عند تلك الضربة المميتة، فانسحب القيصر المدحور

(1) ولد جان برنادوت (**Jean Bernadotte**) سنة ١٧٦٤. دخل البحرية الفرنسية، وأظهر كفاية أيام الثورة، فترقى وقتئذ بسرعة، وأصبح من الرجال المعروفين. ويظهر أنه لم يكن بينه وبين نابليون ثقة أبدا، لأنه كان من المعارضين في انقلاب برومير؛ مع ذلك أصبح برنادوت مارشالا سنة ١٨٠٦. من المهم ملاحظة أن برنادوت امتاز دون بقية قواد فرنسا في ذلك العهد بحلمه وكرمه وحسن معاملته للأسرى. ذلك أنه حدث سنة ١٨٠٩ أن السويد ملت الحرب ضد نابليون، فعزلت ملكها جستاف الرابع، وولت مكانه شارل الثالث عشر وكان ضعيفاً هرما وليس له ولد؛ فاختارت السويد برنادوت وليا للعهد لما عرفت عنه من حسن المعاملة للأسرى السويديين في أثناء الحرب، وكوسيلة لتقوية أواصر المحالفة مع نابليون. ولقد انزعجت انجلترا والروسيا من ذلك الترتيب؛ غير أنه لم يكن ثمت داع للتخوف، لأن السويد اختارت في الحقيقة أقل الفرنسيين ودا مع نابليون. ولما قبل برنادوت منصبه الجديد رفض أن يعد الإمبراطور بالانضمام للحصار القاري. ثم مات شارل الثالث عشر سنة ١٨١٠ فتولى برنادوت؛ عند ذلك طلب نابليون من برنادوت أن ينضم إلى الحصار القاري بلا قيد ولا شرط، فلم يقبل برنادوت وانضم إلى الروسيا سنة ١٨١٢ ودخل الصفوف ضد نابليون.

إلى الشمال، واضطر هو جفتز (**Haugwitz**) المفوض البروسي، الذي بقى في فينا ومصير أوربا في كفتي ميزان، إلى التوقيع باسمه على صلح شائن في برسبورج (**Pressberg**). أما النمسا فقد وقع عليها الجزاء الأوفى، وباءت بغضب نابليون للمرة الثالثة؛ وبمعاهدة شونبرون (**Schonbrunn**)، في ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٠٥، وافق فرنسيس على التنازل عن البندقية وإستريا (**Istria**) ودلماشيا، وعن خط الطوابي الجبلية بالتيرول، وعن الأراضي المنتشرة في الجنوب الغربي من ألمانيا التي كانت من أقدم أملاك آل هابسبورج.

أصبح نابليون بعد استرلتز سيد إيطاليا وجنوب ألمانيا؛ وقديما كان يواجهه في إيطاليا ثلاث قوات خارجة عن نفوذه وهي البندقية وروما ونابلي– دول ضعيفة بنفسها، قوية بشد أزر النمسا لها أدبياً وحربيا– ومن ثم أصبحت مسألتها تستدعي علاجا دقيقاً. غير أنه لما أباد نابليون جيشاً نمساوياً عند الم، وكسر جزءا من جيش نمساوي آخر عند استرلتز، أصبح قادراً على الانقضاض على أملاك وأحلاف آل هابسبورج في إيطاليا: فضم البندقية إلى مملكته الإيطالية، وأرسل مسينا لطرد آل بربون من نابلي، وطلب بخشونة إلى البابا أن ينضم إلى الحصار القاري، ونتج عن تردد المجلس البابوي أن أعلن نابليون نفسه إمبراطور روما والرئيس الدنيوي في الكنيسة. بذلك أصبحت إيطاليا في قبضته، ولكي يكون مركزه فيها موطدا، أعطى ممار التيرول لحليفه أمير بافاريا، الذي أصبح ملكا وصهرا جزاء مساعدته في الحرب. ومن المحقق أن يحرص حارس إيطاليا الجديد على ما أؤتمن عليه، لأن ابنته التي تزوجت يوجين ربيب نابليون، أصبحت الملكة في ميلان.

بتلك التدابير الفعالة طُهرت إيطاليا لثمان سنوات من كل أثر نمساوي خبيث. ولقد ذاقت إيطاليا حلو العيش ومره على يد غازيها العظيم، وكانت

تلك الفترة من أحرج الفترات وأهمها في دور تكوينها: إذ أُرسل أبناؤها في حروب خارجية، وخربت دور الفنون الجملية بمدنها، ونهب خزائنها الوكلاء الماليون، عمال الاستبداد الحربي الفرنسي. لكنها على الأقل نالت من حكم نابليون، ما كان يستحيل على النمسا أن تنيلها إياه، وهو إذكاء نار الآمال القومية، ونظرة جديدة إلى العالم الحديث، ومبادئ التدريب الجدي في المسائل العامة.

من مزايا مركز نابليون أنه كان لانفراده بالسلطة في فرنسا، يستطيع في أي وقت، وبدون أن تعترضه العراقيل، أن يستفيد من الظروف في تحقيق أغراضه الحربية. مثل ذلك أنه لم يدخل الحرب الآنفة الذكر إلا بعد تفقد الحال السياسية في ألمانيا، حيث رأى أن الدويلات الألمانية الجنوبية توجس خيفة من مطامع النمسا، وأن من الممكن استمالتها إلى جانب فرنسا، بإعطائها شيئا يسد رمقها بتلك الطريقة سارت بادن وفرتمبرج وبافاريا مع التيار الفرنسي، واشتركت في معسكر أسترلتز؛ وبعد الانتصار طلبت ونالت الأرض والألقاب التي تكافأ بها أمثال تلك الخدمات. ولم تكن المساومة في مصلحة طرف واحد، لأن نابليون نال بسرعة مدهشة ثلاثا من بنات أمراء الدويلات الثلاث: زوج إحداهن إلى ربيبه[1]، والثانية إلى ابن عم ربيبه، والثالثة لأخيه جيروم؛ وبتلك المصاهرات الغريبة الموفقة، طبع نابليون مشروعه الهائل بطابع من الوقار، وربط ثلاث بيوتات قديمة، ذات مجد غير ضئيل، بعلاقات غرامية أجنبية.

مهدت تلك المحالفات التي تمت وتأصلت، طريقاً للضربة الأخيرة والقاضية على مركز النمسا في ألمانيا: إذ محا نابليون الدولة الرومانية المقدسة في يونيه سنة ١٨٠٦، وأقام بدل ذلك النظام الألماني العتيق الواه عصبة قوية، لا

---

(١) انظر ص ١٦٧.

تستند إلى مبادئ قومية، مكونة من أمراء يستمدون منه كل سلطة، وعليهم عهد مقطوع، أن يمدوا الإمبراطورية الفرنسية بمعونات حربية معينة. وكذلك برهن اتحاد الرين– وهو اسم تلك العصبة– برهاناً قاطعا على الوهن الذي قد تصير إليه أمة متمدينة، بتأثير التفكير السيء والعواطف الخاطئة في السياسة. سبر نابليون غور ذلك الوهن الألماني، وهو جاهل بكتابة أو قراءة كلمة واحدة باللغة الألمانية، ما عدا فرتر الذي كان مترجما إلى الفرنسية، فكان لا يعرف عنها شيئا، حتى أنه وضع اسم كانت[1] في قائمة الفلاسفة المحتقرين، ذوي الأحلام الطائشة، ودعاة التدجيل في العالم.

في تلك الآونة لم تفقد المسألة القديمة الخاصة بعقوبة حكومة "الأعيان الجبناء في لندن"– على حد قول نابليون– شيئا من حدتهما، سوى أن مشروع الغزو أضحى خارجا عن المعقول، ونبذت الفكرة منذ أغسطس، ثم حالت موقعة الطرف[2] الأغر بتاتاً دون العودة إليها. فكر نابليون في مشروع غير جديد، لمشابهته بعض سياسته الأولى وسياسة حكومة الإدارة أيضا: وذلك أنه عقد النية على إغلاق الموانئ الأوربية في وجه متاجر انجلترا ومستعمراتها؛ ولم يذق الراحة لحظة أثناء إنفاذ ذلك المشروع الهائل، لاتساع الدائرة التي يتناولها اتساعا لا يجد الباحث له مثيلا إلا في تاريخ طغاة آسيا. ولم يعظم على ذهنه الثاقب، وبصيرته النافذة، ودقته الهندسية، التي امتاز بها، أن يتصور قارة بأسرها تخضع لإشارته؛ فنصب أحد أخوته حاكما على نابلي، والآخر على هولدا،

---

(1) كانت (**Kant**) أكبر فلاسفة العصور الحديثة. ولد سنة ١٧٢٤ في مدينة كونجزبرج في بروسيا الشرقية، ومات بها سنة ١٨٠٤، وكان أثناء حياته أستاذ الفلسفة في جامعتها، وله مؤلفات كثيرة ومذهب خاص في ذلك العلم الجليل.

(2) انظر ص ١٣٥، ولاسيما الحاشية رقم (١).

وخيل إليه أن خضوع إسبانيا لن يقل عن خضوع لجهورن أو جنوا أو أنفرس. إنما كان هناك ثلاث ثغرات خطيرة، في السياج الجمركي الذي أقامه، واقعة في ألمانيا والروسيا والبرتغال، لو تركت لتهدم مشروعه من أساسه. صادف أن ساحل ألمانيا الشمالي كان أهم تلك الثغرات، ولابد أن يدخل ضمن النظام القاري، رضيت بروسيا أم كرهت.

كانت الحكومة البروسية قد أرغمت بمعاهدة بروسبورج على أن تقبل من نابليون منتخبية هانوفر، التابعة للأسرة المالكة في انجلترا، والتي كانت في الواقع مطمح أنظار الساسة في برلين. لكنهم حصلوا عليها مقابل قطع العلائق مع انجلترا: إذ حاول البروسيون سدى أن يرفضوا تلك المنحة، التي أيقنوا أن استلابها محال بدون أن يعرضوا نفوسهم لعقاب الأسطول البريطاني. لكن لما كان غرض نابليون الوحيد من سياسة الكرم الممزوج بالمخادعة أن يلقي الشقاق بين بروسيا وإنجلترا، فإنه رفض بتاتاً أن يسترجع ما أعطى. ثم أعلنت الحرب، ووقع ما كان في الحسبان: إذ حاصرت انجلترا الموانئ البروسية، واستولت على السفائن التابعة لبروسيا، التي أصبح مركزها مركز اللص الذي أكره على صناعته. عند ذلك بلغت روح الكراهة للفرنسيين أقصاها في برلين، وقال الناس من الحماقة أن تدخل بروسيا في حرب مع إنجلترا حليفتها الطبيعية، طوعا لأمر أجنبي مستبد، لا تزال جيوشه الكبيرة المظفرة معسكرة في جنوب ألمانيا. بالرغم مما حدث لم يحرك نابليون ساكناً لتهدئة المخاوف البروسية؛ ولما ظهر أنه وعد، في خلال مفاوضات عقيمة مع الحكومة الانجليزية، بإرجاع هانوفر إلى انجلترا، طفحت كأس بروسيا، وأصدر فردريك وليام الأمر بتعبئة الجيوش البروسية.

كان نابليون على أتم استعداد للحرب: ذلك أنه بالرغم من امتلاء رسائله في صيف سنة ١٨٠٦ بمسائل إيطاليا، مما يحمل على الاعتقاد بأنه كان أكثر

**اشتغالا بتثبيت أخيه يوسف في مملكته الجديدة عن مسائل الشمال، فإن عينه كانت ساهرة ترقب البروسيين، علماً منه بأن الحرب قد تنشب بينه وبينهم، وأنها إن نشبت يكن جيش أسترلتز مستعداً لخوضها. لذلك لما دنت الساعة قضى نابليون على عدوه بخطة تعتبر من أرقى الخطط في فن الحرب: وتفصيل تلك الخطة أن الجيش البروسي، الذي كان ينعم بشهرة لا يستحقها، زحف إلى الأمام تحت إمرة قائده الهرم الدوق برنسويك، متبعاً شمال غابة ثورنجيا (Thuringia)، على أمل أن يقطع خط الرجعة على الجيش الفرنسي الزاحف من الرين، أو يتجنب هجمته. كان من المحتمل أن ينتصر نابليون حتى ولو اتبع ذلك الطريق، لأنه كان يفوق خصمه في العدد والمقدرة. إلا أن مثل ذلك الانتصار كان عادياً وغير حاسم، إذ يترتب عليه أن يرتد البروسيون إلى خطوط مواصلاتهم، حيث يحاربون حرباً دفاعية، حتى ينضم إليهم حلفاؤهم الروسيون. أراد نابليون نصراً مبيناً حاسما، لا يقتصر على هزيمة البروسيين، بل يشمل قطع خط الرجعة عليهم، ثم القضاء على جيشهم. لذلك جمع جيوشه عند نهر المين (Main)، وتقدم بسرعة في اتجاه شمالي شرقي مخترقاً مسالك الغابة المكسوة بأشجار الصنوبر، وسار نحو نهر السال (Saale)، ومعه ١٦٠.٠٠٠ مقاتل، واثقاً من النجاح، يحمل بين جنبيه احتقارا لخصم بليد غافل. كان الجو صحوا، والأرض مكسوة بالكلأ الصالح للرعي، فلم يضل الطريق جندي واحد في ذلك الجيش العرمرم، الذي سار ثلاثين ميلا في اليوم. وفي مساء ١٢ أكتوبر وصل دافو[١] على رأس الجيش الثالث مدينة ناومبرج (Naumderg)، ففصل**

---

(١) لويس نيقولا دافو (**Louis Nicolas Davoust**) سنة ١٧٧٠، وتربى مع نابليون في المدرسة الحربية. وقد برز أثناء حروب الثورة، ورافق نابليون إلى مصر، وكان له الفضل في الانتصار في موقعة أبي قير البرية.

بذلك بين ملك بروسيا وحاضرة مملكته، واستولى أيضاً على مستودعات الذخائر البروسية. أفسدت تلك الأخبار المقلقة على برنسويك خطته، واضطرته إلى اقتراح تقهقر عام نحو الشمال. لكن فات الوقت الذي كان يسمح بالإفلات من العاصفة، التي كانت تندفع من الجنوب. ثم انقض نابليون يوم ١٤ أكتوبر، عن غير قصد بقوات متفوقة في العدد، على الجيوش البروسية الأمامية المرابطة جندينا (**Jena**)، تحت قيادة هوهنلوهه (**Hohenlohe**)، فانتصر انتصاراً حاسما؛ ويرجع الفضل الأكبر لدافو، الذي برهن عند التقائه بالجيش البروسي الرئيسي عند آورشتات (**Auerstadt**)؛ أن في مقدور جزء صغير من جيش استرلتز، أن ينتصر بدون نابليون، ورغم مواجهة عدو متفوق عنه في المشاة والخيالة والمدفعية.

أصبحت بروسيا تحت قدم نابليون بعد تلك الضربة المزدوجة، التي حدثت في يوم واحد، والتي أعقبها مطاردة عنيفة. كتب نابليون قبل الواقعة بيومين، إلى فردريك وليام الثالث ملك بروسيا، خطابا في قالب غريب من البلاغة الراقية، التي ما كان أقدر نابليون على صوغها في الظروف الخطيرة، حذره من الهزيمة المحققة، ونصح إليه بطلب الصلح قبل فوات الفرصة. أما وقد أريقت الدماء، فقد رفض الفاتح أن يستمع لطلب الهدنة، وعقد النية على إذلال البروسيين حتى لا يعارضوا أمره مرة أخرى. فحاصر جميع معاقلهم واستولى عليها، وأقام مركز قيادة جيوشه في عاصمتهم، وفرض غرامة حربية باهظة على قوم كانوا من الأصل مرهقين بالضرائب. بتلك الخطة الحاسمة، "انتقم نابليون لهزيمة رسباخ[١]

(١) بلدة صغيرة في سكسونيا واقعة على نهر الألب، وعندها هزم فردريك الأكبر ملك بروسيا القائد الفرنسي سوبيز (**Soubise**) سنة ١٧٥٧، أي في مدة حكم لويس الخامس عشر في فرنسا.

(**Rossbach**)". ثم أصدر في يوم ٢١ نوفمبر من برلين، أول سلسلة المرسومات الشهيرة التي أعلنت أن الجزائر البريطانية في حالة حصر، وحرمت المتاجرة أو المراسلة معها.

كان من المحتم أن يخوض نابليون غمار حرب أخرى قبل أن يجني ثمار تلك الانتصارات الباهرة. والسبب في ذلك أنه على الرغم من اضطرار بلوخر للتسليم عند لوبك (**Lubeck**)، بقى جزء صغير من الجيش البروسي لم يمسسه ضرر. فلو أن جيشاً بروسياً تقدم عن طريق بولندا، لمعاونة ذلك الجيش الصغير، لأمكن تعويض الهزيمة التي وقعت عند السال. لذلك زحف نابليون إلى فارسو (**Warsaw**) وحاول أن يشتبك في موقعة حاسمة في ديسمبر. لكن العدو نجا من الشباك التي طرحت على مدى واسع لاقتناصه، وبرهنت الحركات الحربية التي قام بها نابليون عند بلدتي بولتسك (**Pultsk**) وجوليمن (**Golymin**) على أن الخطة السريعة المدهشة، التي اتبعت في ألم لا يمكن تكرارها في وسط شتاء بولندا القارس، بين الأوحال البولندية. قضى الإمبراطور شهر يناير في فارسو، حيث هام بحب سيدة بولندية جميلة، اسمها الكونتس فالفسكا (**Walweska**) التي أعقبت منه ولداً، قدر له أن يصبح وزير الخارجية في فرنسا زمن الإمبراطورية الثانية. غير أن الانغماس في الملاهي لم يقلل من يقظته؛ ولما علم في فبراير أن القائد الروسي بنجسن (**B nnjgsen**) يزحف لرفع الحصار عن دانتزج، أسرع شمالا لمهاجمته. وقد صارت الملحمة المضطربة الهمجية، التي وقعت عند بروسيش– أيلاو (**Prussich- Eylau**)، والثلج المتساقط يعمي الأبصار، مثلا من أمثلة الملاحم التي تؤيد نظرية تلستوي[1]

(١) تولستري اسم أسرة روسية عريقة نبغ أفراد كثيرون منها في السياسة والحرب والأدب. والكونت ليونلستوي (**Leo Tolostoi**) أحد أفرادها، شاعر وروائي ومصلح اجتماعي ومتصوف ديني

القائلة: إن مقدرة القائد لا تهم كثيراً في الحرب، وإن النصر لا يأتي إلا من وجود فرق كثيرة العدد يصعب تحديد أوضاعها. ولقد كان ذلك اليوم، الذي اختلطت فيه الدماء بالثلج، كأول حادثة محزنة في قصة لذيذة: إذ وقف نابليون لعدوه، وحاز النصر بعد أن خسر ٢٥.٠٠٠ رجل، ولم يتقدم خطوة واحدة في سبيل الصلح.

ثم أنفذ نابليون بخفة مدهشة سهاما لامعة، كسهام البرق الخاطف بعضها تلو بعض، في جو ملبد بغيوم تلك الحرب غير الحاسمة، فاخترق بها ظله القاتم، رغم اختلال النظام في جيشه لقلة المئونة، ورغم تهديد السويديين لمؤخرته، وقرب أعدائه النمساويين من جناحيه. وتفصيل ما عمله نابليون، أنه عقد مع السويديين هدنة، وأعلن تمنياته السلمية للنمسا، ثم فتح باب مفاوضات عقيمة مع خصميه الرئيسيين. ولكي يخلق المتاعب للقيصر في الوقت نفسه، عقد معاهدة مع شاه العجم، ونصح بشدة سلطان تركيا للقيام من جديد في وجه عدوهما المشترك، متنبئاً أن الساعة قد اقتربت لنهضة الدولة العثمانية. ثم حرك بدهائه العاطفة القومية بين البولنديين إلى حد يكفي لخدمة أغراض فرنسا بدون إثارة مخاوف النمسا. عند ذلك حدث أن ارتكب بنجسن القائد الروسي غلطة حربية فاحشة، خلصت نابليون من مركز معناه أن كل تأخير في الحرب كان يضيف إلى مركزه الحرج خطراً جديداً. ذلك أن هناك رافداً صغيراً اسمه آل (**Alle**)، يصب في نهر برجل (**Pregel**)، الذي يصب في البحر البلطي عند

---

تربى في موسكو ودخل جامعة قازان، وخدم سنة ١٨٥٥ في حرب القرم المشهورة بين تركيا وانجلترا وفرنسا والروسيا، بعد ذلك انسحب من الجيش، وكان قد أصبح شاعرا مجيدا وروائيا معروفا. وله مؤلفات كثيرة منها كتاب "الحرب والسلم" وفيه يصف وصفا رائقا تاريخ حملة نابليون على الروسيا سنة ١٨١٢، ودفاع الروسيين عن بلادهم.

كونجزبرج (**Konigsberg**)، وعند أحد منعطفات الآل تقع بلدة فريدلاند (**Friedland**). في ذلك المركز الرديء، حيث النهر وراءه، وبجيش صغير جدا، وقع بنجسن في مخالب نابليون؛ وكان نصر الفرنسيين مبينا لدرجة أن قيصر الروسيا ذا الملك المنيع اعتقد أن مملكة أمسى في خطر جسيم.

في ٨ يوليه سنة ١٨٠٧ عقد صلح تلست (**Tilsit**)، وهو عبارة عن تسوية تدل على الحال غير العادية بين الدول المتعاقدة، لا على توافق مصالحها: من المعلوم أن تحالفا روسيا فرنسيا في عصرنا الحالي ليس إلا نتيجة طبيعية لما صارت إليه ألمانيا من التماسك والقوة[١]؛ ولقد حصل ذلك التحالف فعلا، وتقوى حديثا لمزاحمة فرنسا والروسيا معا الإمبراطورية البريطانية. لكن لما تقابل نابليون والقيصر على ظهر طوف في نهر النيمن (**Niemen**)، كانت ألمانيا عبارة عن مجموعة من الحكومات الضعيفة المتطاحنة، وكان يفصل الأطراف الشرقية من الروسيا عن المصانع الانجليزية على الهوجلي، أحد مصاب نهر الكنج بالهند، مساحات شاسعة من الأرض الجرداء. لذلك كان الروس والانجليز مرتبطين بمصالح تجارية، خلافا لما تكون بينهما في أواخر القرن التاسع عشر من العداء في الشرق، فكان معظم التجارة الروسية الخارجية مع انجلترا، وكان لا يوجد تاجر في العاصمة الروسية إلا وتصبح تجارته عرضة للأذى لو نقض التحالف الروسي الانجليزي.

غير أن القيصر إسكندر كان معتقداً خطأً، أن لا فائدة من القيام بشيء بعد فريدلاند. وكان فضلا عن ذلك متألما من المعاونة الفاترة، التي أدتها إليه حليفته انجلترا أثناء الحرب السالفة. لذلك كان ميالا لقبول تحالف زينه له

---

(١) هذه العبارة صحيحة طبعا بخصوص ألمانيا قبل الحرب العظمى.

نابليون بكل ما عنده من تضليل، وأزجاه له بمستقبل تفوق مزاياه بكثير حرمان طبقة الخاصة في العاصمة الروسية من بعض ضروب الرفاهة الواردة من وراء البحار؛ فإنه ليس بين الأماني التاريخية، التي يتعلل بها الشعب الروسي المتفاني في خدمة الكنيسة الإغريقية، أمنية أعظم من استرداد الإمبراطورية البيزنطية من يد الأتراك. ولما لم يكن الإسكندر مجردا عن الميول التي استولت على بعض عظماء أسلافه، فإنه لما اقترح نابليون أن تقسيم تركيا غرض سيسعى التحالف بينه وبين القيصر لتحقيقه، نبذ الإسكندر كل شكوكه ظهريا، ووقع في الأحبولة.

كانت هناك معاهدة عامة وأخرى خاصة: اعترف الإسكندر بمقتضى المعاهدة الأولى بالتغيرات التي أحدثها نابليون، أو اقترح إجراءها في مصور أوربا السياسي. وتفصيل ذلك أنه نزع من بروسيا مقاطعاتها الغربية والشرقية، وأقام مملكة جديدة باسم وستفاليا (**Westphalia**) تحت إمرة أخيه جيروم من جهة، ودوقية جديدة باسم فارسو تحت إمرة ملك سكسونيا من جهة أخرى. أما المعاهدة الخاصة، فتضمنت أمورا أهم مما تقدم: إذ عينت السياسة التي تتبع في المستقبل، إذا رفضت انجلترا توسط الروسيا بينها وبين نابليون، أو رفضت تركيا توسط فرنسا بينها وبين الروسيا. كان المتفق عليه، إذا وقعت المسألة الأولى، أن تنضم الروسيا للحصار القاري، وتعاون فوق ذلك فرنسا على إرغام الدنمارك والسويد والبرتغال والنمسا على محاربة التجارة الانجليزية. وكان المتفق عليه في المسألة الثانية، أن يساعد نابليون القيصر في اقتسام الممتلكات التركية بينهما ما عدا القسطنطينية والروملي. ولقد كان ذلك الاستثناء كحاشية تفسيرية في صحيفة أطماع نابليون، لأنه لما طلب الإسكندر العاصمة العثمانية، قابله نابليون بالرفض البات قائلا: "القسطنطينية! ذلك محال. هذا معناه السيادة على العالم".

كان نابليون أثناء المفاوضات في أحسن حالاته النفسية، وكيف لا يكون كذلك، وقد أعقب آلام الحرب ومخاوفها في بولندا، ولائم وحفلات وصلح باهر، أعلن بعدها أنه يحب القيصر: إذ قال "إنه إمبراطور ظريف طيب القلب، يحمل رأسا أكبر مما يعتقد الناس". والحقيقة أن نابليون أحس بأنه حصل بالتحالف الروسي على الاتفاق والمعونة اللازمتين لتثبيت ملكه في الغرب. أما ملكة بروسيا فقد أدخلت في قلبه السرور، لاسيما وأنه رفض مطالبها رغم توسلاتها لديه. وقد كان من دواعي سروره أن أصبحت بورسيا تحت قدميه، مقطعة الأوصال، خاوية الخزائن، مثقلة بجيش احتلال فرنسي. وكان نابليون يرجو، بل ينتظر، أن تطأطئ انجلترا الرأس أمام عظمة تلك الانتصارات، وأن تقبل الشروط الروسية، وتتنزل عن فتوحها الاستعمارية، وتصلح قوانينها البحرية. وفي تلك الحالة يصبح نابليون حرا في توجيه أطماعه نحو الشرق؛ أما إذا تمادى الانجليز في غيهم فمركزه يمكنه من "التسلط على البحار بالحرب على الأرض".

## الفصل السابع

# خصائص الإمبراطورية

بلغت إمبراطورية نابليون في ذلك الظرف مبلغاً فاق أفكار وأماني الشعب الفرنسي، مع أنها لم تكن وصلت إلى حدها الأقصى. قال تاليران يوماً للقيصر: "إن أقصى فتوح فرنسا هي نهر الرين وجبال الألب وجبال البرانس، أما ما زاد عنها فمن فتوح نابليون". والدليل على صحة تلك العبارة أنه على الرغم من استمرار الانتصارات الحربية التي أخرست النقاد وأبقت روح التفاني والحماسة في الجيش، كان الإمبراطور شاعراً بالحقيقة الماثلة أمامه، وهي أن الأمة ملت الحرب، وأن كل انتصار جديد يلقى لدى الرأي العام حماسة أقل مما لقيه سابقه، وأن الإمبراطورية العظيمة ترتكز على شخصية نابليون لا على رضا الأمة. وآية ذلك أنه لما وصلت أنباء مارنجو إلى باريس فاق الاستغراق في الفرح حد المعقول، لكن بعد ذلك بست سنين لم تحرك أخبارينا أحداً. ولقد كتبت مدام جونو (**Madame Jonot**)، التي عاشت بين الجنود، أن الجمهور الفرنسي لم يكن ميالاً لمحاربة النمسا سنة ١٨٠٥، مع أنه رغب في محاربة انجلترا؛ وفي حين أن كل مشروعات الإمبراطور في القارة الأوربية كان ينظر إليها بعين الملل أو الفزع، كان روح الإقدام والتوسع فيما وراء البحار، وهو سر نمو الإمبراطورية البريطانية، معدوما جملة من نفسية الشعب الفرنسي في ذلك الوقت، حتى أن الحملة على سان دمنجو لم تكن في نظر الناس وسيلة لمعاقبة مستعمرة متمردة فقط، بل لتأديب الجمهوريين الفرنسيين أيضا.

إذا ذكرنا ذلك التنافر بين المصلحة الوطنية الفرنسية، وبين إيحاءات أطماع نابليون، سهل علينا تعليل كثير من مميزات سياسته الإمبراطورية. فقد أدرك الإمبراطور بذكائه وفطنته أنه إذا ألقى عبء المحافظة على ممتلكاته على عاتق فرنسا، أدى ذلك إلى تقويض دعائم عرشه. لذا كانت القاعدة الأساسية في سياسة الإمبراطورية أن لا ترهن جيوب الشعب الفرنسي بقدر الإمكان، وأن تتحمل الدول الأجنبية التي تحت يده نفقات ما تتطلبه أطماعه. لا ريب أن فرنسا تحملت بعض أعباء مالية فوق أعبائها السابقة، وأن دافع الضرائب بدأ يحس بمتاعب الحرب من طريق غير مباشر، لما ارتفعت أثمان النبيذ والملح والطباق. لكن مادامت الأمة طليقة من أي ضريبة مباشرة جديدة، ومن تدهور نقودها، فإن آلام الحرب تظل بعيدة عن عقول البعيدين عن ميدان القتال. لذلك لم يفرض نابليون ضريبة على الدخل، ولم يسمح بإصدار ورق نقدي؛ وعوض أصحاب المصانع والمتاجر، الذين هم على وجه العموم أشد الطبقات تأثراً بمتاعب الحرب، بنظام يجعل أسواق هولندا وألمانيا وإيطاليا مفتوحة للتجارة الفرنسية، بدون تخفيض التعريفات الداخلية من أجل أتباع الإمبراطورية المجدد. نتج عن كل ما تقدم في السياسة المالية، أن لم يشعر بالأزمة الاقتصادية أغنى أعضاء الإمبراطورية وأعظمها مدنية، بل توابعها الفقيرة. أي أن فرنسا نجت، في حين أن نصف أرض الأقاليم الإيطالية والألمانية والهولندية، التابعة للإمبراطورية، كانت مخصصة باستمرار للوازم الإمبراطورية، فضلا عن أن سكان تلك الأقاليم كان مفروضاً عليهم غرامة ذات ثلاث شعب: وهي المعونات الحربية، وإيواء الجنود الفرنسية المرابطة ببلادهم، وضرورة تكوين وإعداد فرق محلية للاندماج في الجيش الأعظم.

حاول نابليون أن يوجد في فرنسا شعوراً إمبراطوريا بوسائل تدل على

امتزاج الرفعة والخسة في نفسه، الأمر الذي نجده في حديثه وأخلاقه. مثل ذلك أنه لام القائد مارمون عند انتهاء الحرب الإيطالية الأولى، لإهماله تجميع ثروة لنفسه، كما فعل مسينا، وكثير من الضباط الذين ظفروا بثروة طائلة من أسلاب وغنائم إيطاليا. ثم كان من دواعي سروره أن يكون لقواده مغانم خاصة في حروبهم وفي الدول التي تدين له بفضل شجاعتهم. ولما توطدت دعائم الإمبراطورية، طبق نابليون ذلك المبدأ بأوسع معانيه: فجعل من أقاليم البندقية وإستريا ودلماشيا، التي انتزعها من النمسا، ضيعات أنعم بها على بعض الدوقات والأمراء. وبذلك أصبح الركن المهدد في الإمبراطورية الفرنسية في يد مجموعة من الأسرات الحربية تحميها مقابل اتفاقات مالية، كما كانت الحال أيام ملتزمي الحدود في القرن الخامس الميلادي. ولقد كان تلك الأموال الطائلة التي أغدقت على هؤلاء الحراس– لا من الخزينة الفرنسية بل من ريع أرض توابع الإمبراطورية– تمنح أيضا كافة الأسرات الحربية، لتحبب الإمبراطورية إليهم. أما مصالح الجندي العادي فكان منظوراً إليها دون الاهتمام، حتى أن أبطال ينا وفريدلاند دفعت لهم من مؤخر رواتبهم نقود انحط أربعون في المائة من قيمتها.

لقد كان تكوين طبقة أعيان جديدة، ذات ثروة طائلة وعقار ثابت، خروج على مبدأ الثورة القائل بالمساواة الاجتماعية، أكبر أهمية من نشان الليجيون دونور. ولكن نابليون دافع عن خطته بقوله إن الألقاب لم يصحبها أي امتياز سياسي، وأن أحدا لا يستطيع أن يتهمه بالسعي لتكوين طبقة أعيان. والحقيقة أنه أراد أن يحوط أسرته بدائرة من الأسرات ذات الجاه والثروة، تحمي ضيعاتها بامتيازات قانونية، فتصبح كلها معا كجزائر بارزة في وسط محيط المزارع الصغيرة التي يمتلكها الفلاحون.

أسس نابليون أيضاً معهدا في الفترة التي نحن بصددها جريا وراء الغاية

الأصلية، وهي تقوية وحدة الإمبراطورية. ذلك المعهد هو الجامعة الفرنسية. من الطبعي أن تلاقي فكرة تكوين هيئة واحدة، تحوي كل فروع التعليم العام من معلم القرية إلى أستاذ الجامعة، وتسير مسترشدة بمبادئ رئيسية معينة قائمة على سياسة صحيحة، استحسانا عند الذين يؤمنون بمبدأ عدم وضع حد لتفهيم الناس واجب الحكومة. ثم كان نابليون لا يعتقد في الحياة البشرية التي لا تستند إلى نظام ثابت، ولذا كان معجبا بأعمال الهيئات الكاثوليكية في غرس خلق الطاعة العمياء. كتب في ١٥ فبراير سنة ١٨٠٥ في ذلك الصدد قال: "لا يمكن الثبات على حال سياسية، إذا لم تدعمها مبادئ معينة يتبعها المعلمون. وطالما جهل الأطفال ما إذا كان واجبا عليهم أن يكونوا جمهوريين أو ملكيين، كاثوليكيين أو ملحدين، فإن الحكومة تبقى عاجزة عن تكوين أمة". لذلك قر رأيه على تربية نشء فرنسا على الصفات العسكرية الدينية، التي تحترم الغير، محتذيا في ذلك حذو الأسبارطيين واليسوعيين. ولذلك أيضا كان طراز المدرسة الثانوية التي اختارها، جامعاً بين جياة الأديرة والمعسكرات، ومعلموها من الغراب، ونظامها عسكري، وديانتها ذلك التعليم الذي يمثل فيه الإمبراطور كأداة قوة الله وظله على الأرض. وكانت كل تلك المدارس الثانوية تابعة لمجلس الجامعة الفرنسية، وهذه تابعة للحكومة، بخلاف انجلترا حيث تعتمد الجامعات القديمة والمدارس على هبات محبوسة، ولا تجد ذلك التضييق المتعب الذي يترتب على مراقبة الحكومة، فحافظت بفضل حرية نظمها على تقاليد معتبرة محترمة. أما الجامعة الفرنسية التي أنشأها نابليون، فقد بقيت ثلاثة أجيال بعد سقوط الإمبراطورية، وُجهت في أثنائها إليها الانتقادات التي تثيرها عادة كل محاولة غرضها احتكار التعليم؛ إذ المساواة العقلية التامة بين أربعين مليوناً من الأوربيين يستحيل تحقيقها، وهي مع ذلك غير مرغوب فيها. ولما كان نابليون لم يعمل شيئاً للمدارس الابتدائية؛ فإن سواد الأمة لم يتأثر بنظام الجامعة.

ورغم كل ذلك أصبح أثراً خالدا ذلك القسم من أعمال نابليون الذي تناول النظم القديمة في فرنسا. هنا بنى نابليون على أساس الطبائع الفرنسية الموروثة، وسار في الاتجاه الذي امتاز به تاريخ فرنسا، وهو التفاف الأقاليم الفرنسية حول مركز واحد، وخضع لذلك النبوغ المنظم الذي امتازت به الشعوب اللاتينية. أما الإمبراطورية نفسها فكانت نسيجا أقل متانة، لأنها مع تقويتها للعناصر الكامنة في الشعور القومي، كما حصل في إيطاليا، لم تخرج عن كونها نتيجة فجائية للحرب، أو على حد عبارة نابليون "نتيجة الانتصار على انجلترا". ثم أن حدودها كانت دائما في تغيير وتعديل، كأن مصور أوربا منظار أشكال، تقلبها يد عابثة كبيرة الأهواء. فمثلا كانت هولندا أولا جمهورية تابعة، وثانياً ملكية تابعة، وأخيراً صارت ولاية تابعة لفرنسا، تسام الخسف منذ أظهر الملك لويس[1] فتوراً في تطبيق قوانين الحصار تماما. لا غرو أن مثل ذلك التقلب كان من شأنه أن يزعج عمال الإمبراطور في البلدان الأجنبية، والحكومة الرشيدة تعتمد دائماً على التحقق من بقاء جزء على الأقل من أركانها وطيدا. لكن من أين يأتي ذلك التحقق وسياسة نابليون كالرمل المتقلب: فمن ذلك أنه قصد بدستور وستفاليا[2]، الذي كان أعظم الدساتير الألمانية، أن يكون نموذجا لأقاليم تلك البلاد؛ وكان حقا مفخرة شعوب هسي وبرنزويك وبروسيا، الذين تكون منهم سكان تلك الدولة غير المتجانسة. ولكن ما الضمانات التي تكفل ألا يكون نصيب دستور وسفاليا، كنصيب الدستور الإيطالي، الذي انهار أمام أول

---

(1) لويس بونابرت ملك هولندا وأخو نابليون.

(2) وستفاليا هي المملكة التي كونها نابليون من إمارة هسي-كاسل (**Hesse- Cassel**) وبعض الولايات التي انتزعها من بروسيا غرب نهر الألب، بمقتضى معاهدة تلست، وولى عليها أخاه جيروم.

عاصفة معارضة؟ أو ألا يطلع النهار على الوستفاليين، وقد صدر مرسوم إمبراطوري، باعتبارهم فرنسيين، وقد محيت مملكتهم الدستورية في عالم الوجود، واعتبرت عاصمتهم كاسل (**Cassel**) ثالثة مدائن الإمبراطورية أو رابعتها؟

كثيراً ما كان نابليون يسمى دولته "اتحادا دوليا". فإذا اعتبرنا المعنى العلمي لتلك الكلمة، وجب أن يكون هناك تقسيم للسيادة بين حكومة الاتحاد، وبين حكومات الولايات، أو الأقاليم المكون منها ذلك الاتحاد. وأذن تكون حكومة الاتحاد ذات سيادة في حدود أغراض معينة، وتكون حكومات الأقاليم ذات سيادة في حدود أغراض معينة أخرى. وهناك أيضاً تخصيص في الواجبات وتوزيع في الحقوق، وحدود معينة مضمونة ضد الاعتداء من أحد الجانبين: إذ أن روح الحكومة الاتحادية تقوم على أن هناك شعوباً تمتاز بصفات خاصة، وتدين بتقاليد ومصالح معينة، تتحد لمصلحة مشتركة، وتتعاهد على مبادئ دقيقة قوامها التراضي المتبادل، حتى يوفق بين المصالح الخاصة من جهة، والمصلحة العامة من جهة أخرى. كما أنه ليس هناك مظهر يمتاز به أي اتحاد أكثر من التخصيص الدقيق في الأعباء المالية. كانت الإمبراطورية النابليونية خلوا من كل شيء من ذلك: فلم يكن فيها مشاطرة في السيادة، ولا تحديد للأعمال، ولا تقسيم عادل في أعباء السلم والحرب. وبالاختصار لم يكن هناك دستور؛ بل كانت الإمبراطورية كدوائر ثلاث ذات مركز واحد، أولها فرنسا والولايات الملحقة بها؛ وثانيها التوابع الألمانية والإيطالية التي كونها نابليون، وهي وستفاليا وبرج ومملكة إيطاليا؛ وثالثها الدول ذات الاستقلال الداخلي، مثل بافاريا وفرتمبرج، التي كان عليها بمقتضى شروط اتحاد الرين أن تمد الجيش بفرق من عندها. لا يلام نابليون– أكثر مما تلام الإمبراطورية البريطانية على النظام المفكك القائمة عليه حالا– من أجل عدم وجود وحدة تشريعية تربط

تلك الممتلكات الواسعة. كلاهما ملوم إذا توخينا في المقارنة الحرب وتركنا المعنى. تفسير ذلك أن الإمبراطورية البريطانية تربطها المصلحة المشتركة والميول المتجانسة؛ أما التماسك الذي كان يربط أختها الفرنسية، فكان أكثر تفككا، بقدر ما هو أكثر دقة في نظامه، لارتكازه على إرادة مستبد، وارتكانه على قوة جيش من جندية إجبارية مختلفة الأجناس.

كانت الوظائف الكبرى التي أوجدتها الإمبراطورية مفتوحة لأشخاص خارج طبقات الموظفين المدنيين في فرنسا من أهالي الأقاليم التي اندمجت في الإمبراطورية. فكان يفد على باريس، من البلجيك وهولندا وبيدمنت وجنوا وتسكانيا وروما أعضاء لمجلس الشيوخ، أو الغرفة التشريعية، أو مجلس الدولة. لم يغب عن نابليون أن تلك الفرص ستساعد على إيجاد روح إمبراطوري، وستدرب رعاياه الجدد على قبول النظام الإنشائي الشامل المتبع في معالجة الأمور العامة، والذي سار بمقتضاه الكفاة من أعضاء المجلس بفضل ما أظهره نابليون من خلق متين وفكر ثاقب. ومن البدهي أن الشعب إذا ريض على صحافة حرة، وهيئة نيابية عاملة، فليست الهيئات التنفيذية في نظره المثل الأعلى في المضي في سبيل المصلحة العامة؛ لأنها عادة تكون عرضة لأن تضم إليها الطاعنين في السن، ولأن تسير على نهج واحد ممل. وضع نابليون مشروعاً لمحاربة ذلك النقص الكامن الناتج عن تعيين أعضاء مجلس الدولة، فأمر بأن يحضر مناقشات المجلس عدد من الشبان، ينتخبون من كل أجزاء الإمبراطورية من الأذكياء المتحمسين الأغنياء. وعقد الآمال على تكوين الهيئة التنفيذية الإمبراطورية في المستقبل من هؤلاء "المستمعين" كما سماهم.

يلاحظ بين الدولتين النابليونية والرومانية أوجه شبه، إن لم تكن دقيقة، فهي أكبر ما وعاه التاريخ السياسي: فالحكم المطلق والمركزية والجزية وفرق

الجنود الأجنبية وامتلاء كل من العاصمتين الإمبراطوريتين بأسلاب العالم المتمدين- تلك هي أوجه الشبه الظاهرة المعروفة. ولا جدال في ذلك فقد كتب سويتونيوس[1] عن يوليوس قيصر قال: "إنه حل كل الجمعيات التي كانت مبنية على التقاليد القديمة". وروح الغيرة هذه التي أملت سياسة يوليوس قيصر ومن خلفه من القياصرة نحو البلديات الحرة، لهي ذات أثر ظاهر في قانون الثورة الفرنسية وقانون نابليون. غير أن الولايات، في عهد الإمبراطورية الرومانية الأولى، كانت تتمتع بنصيب من الحرية الداخلية، لم تتمتع به أي ولاية فرنسية أو قطر تابع للإمبراطورية في عهد نابليون. ولا شك أن نظام الحكم الروماني أيام دقلديانوس ومن جاءوا بعده، لم يبلغ في الدقة وتوخي الاقتصاد والتأثير ما بلغه النظام الذي أقامه نابليون. يرى المؤرخ من جهة أخرى بعض أوجه الشبه بين نظام إقامة ولايات على الحدود الرومانية ونظام الولايات الكاتالونية والأليرية والبولندية، التي أقيمت في القرن التاسع عشر. كما أن هناك تشابها غريباً من الوجهة الدينية، رغم التقدم العظيم في الحياة الدينية في العالم. ذلك أن تقديس روما وأغسطس قيصر يمكن مقارنته بالتعاليم الإمبراطورية، التي صاغها نابليون، قاضية برفع مركز الإمبراطورية وشخص الجالس على أريكتها، إلى مصاف الآلهة. وكما كانت الحكومات الرومانية تقدم القرابين الخاصة، في معبد أورشليم، احتراماً لديانة اليهود، فإن نابليون اعتنق ديانة القرآن في مصر، وأرجع الديانة الكاثوليكية إلى فرنسا. ولما رأى نفسه يوما في وسط مجمع من علماء الدين في هولندا، أعلن أنه على وشك اعتناق المذهب البروتستنتي، وأنه بذلك سيتبعه إلى معتنقه الجديد ثلاثون أو أربعون مليوناً من الناس. فالسياسة الدينية في كلتا

---

(1) سويتونيوس (**Suetonius**) كاتب روماني عاصر الأباطرة دوميشيان وتراجان أوهادريان، وأهم كتبه "تاريخ حياة الاثني عشر قيصر الأول".

الإمبراطوريتين إذن كانت تمتاز قبل كل شيء بتسامح شامل نحو كل المعتقدات، التي كانت لا تتضارب مع النظام الاجتماعي، ولا تؤثر في الطاعة السياسية الواجبة للحكومة. لكن كان نظر نابليون في الأمور الدينية أبعد مدى من نظر القياصرة الوثنيين، وأكثر تساهلا من القياصرة المسيحيين. والسبب في ذلك أن العواطف الدينية الأوربية أصبحت على جانب من الأهمية، لا يمكن معها أن تحتقر أو تهمل، فضلا عما بها من الاختلافات الجامدة في إقامة شعائرها، مما لا يسمح بأي اضطهاد أو تفضيل مذهب على آخر. نهجت الإمبراطورية الفرنسية على ذلك سياسة التأسيس والتنظيم، بلا تحيز لفريق دون الآخر، فوضعت الأنظمة للإسرائيلي والبروتستنتي والكاثوليكي؛ واعتبرت أعضاء هذه المذاهب مواطنين متساويين في نظر الإمبراطورية. وعليهم حمل أعبائها على السواء. ثم لم يكن نابليون مبشرا دينيا مثل جوليان[1] أو شارلمان، بل كان عاديا مثل بونتيوس بيلات[2]؛ وكانت الديانة في نظره مصلا نافعاً ضد الاضطرابات الاجتماعية؛ وكان غرضه الأصلي كسر شوكة الخلافات الدينية، وتقليل حدة المناقشات اللاهوتية، وإقامة حد يفصل بين الوظائف الدينية والدنيوية. إذهاله التنافر الذي رآه عند زيارته هولندا للمرة الأولى، فخاطب طائفة الجانسنت[3] قال:

---

(1) جوليان (Julian) أحد قياصرة الدولة الرومانية، ومدة حكمه من ٣٦١- ٣٦٢ ميلادية. ويلقب بالمرتد، لأنه نشأ على الديانة المسيحية ثم أعلن عند اعتلائه العرش خروجه عليها.

(2) بونتيوس بيلات (Pontius Pilate) هو الوالي الروماني الخامس على (Judaea وSamaria) من ٢٦- ٣٦ ميلادية. وكان معتقداً شخصياً ببراءة المسيح مما نسب إليه من التهم، وحاول إنقاذه أثناء المحاكمة. لكنه أمر أخيراً بصلبه لإرضاء أهل أورشليم.

(3) الجانسنست شعبة دينية تنتمي إلى كورنيليوس جالسن (Cornelius Jansen) الذي ولد في هولندا سنة ١٥٨٥، ثم درس الألهيات وصار أستاذاً في جامعة لوفان (Louvain) سنة ١٦٣٠. ثم عين أسقفاً على أيبر (Ypres) سنة ١٦٣٦، وبقى هناك حتى مات بالطاعون

"إذا كنت ضد البابا، فضموا صفوفكم إلى صفوف البروتستنت. أما إذا كنتم تعترفون بسلطته، فواجب عليكم احترام قراراته". ولا شك أنه لم يكن في مقدور ثلة من صغار العلماء الهولنديين أن يقيدوا سلطة ممثل المسيح في الأرض. تلك الوظيفة الضرورية اختص بها وحده إمبراطور الفرنسيين، الذي أصبح المصدر الأكبر للسلطة المدنية في الدول المسيحية اللاتينية.

أحيت أيام معركة مارنجو في عقول الفرنسيين ذكريات أيام شارلمان الذي كان يردد نابليون اسمه كثيراً في مراسلاته. وقد روى كثير من الإنجليز، الذين زاروا باريس أثناء عقد صلح أميان، أن الاعتقاد العام كان يميل إلى احتمال اتخاذ القنصل الأول لنفسه لقب إمبراطور الغاليين. فإذا كان ذلك موضع حديث أهل باريس ومتجه شعورهم، سهل علينا فهم التأثير الخفي الذي جعل من شارلمان– بطل الفرنكيين– مثلا أعلى لنابليون. ولقد ظهر كثير من دلائل ذلك الشعور على الإمبراطورية الفرنسية: ذلك أن الحاكم الذي يسيطر على فرنسا وبلجيكا وألمانيا والجهات الأسبانية المتاخمة لجبال البرانس، ويفتتح عهد إمبراطوريته باتفاق مع بابا روما، ويولي نفسه ملكا على لمبارديا، ويضع تاجها الحديدي على رأسه، ويعطي إقطاعات حربية لتوابعه، ويجمع مجلساً دينياً، ويعتبر نفسه الرئيس المدني للكنيسة الكاثوليكية في غرب أوربا، ويسير على رأس جيش جرار مختلف الأجناس من جميع أنحاء إمبراطوريته ليهاجم الإمبراطورية

---

سنة ١٦٣٨. وله مؤلف يقع في أربع أجزاء، كان السبب في حركة جدلية واسعة في هولندا: ذلك أن جانسن حاول في مؤلفه أن يبرهن أن تعاليم المسيح بخصوص التبرك وحرية الإدارة والقضاء والقدر مخالفة لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية الحديثة ولاسيما اليسوعيين. ولقد تبع مذهب جانسن كثير من أهالي أترخت، وأطلق عليهم اسم (**Oude Romsche**) أي المتمذهبين بالكاثوليكية القديمة.

**المتبربرة الخارجة عن الدين التابعة لقيصر الروسيا[١]، أليس ذلك الحاكم شارلمان الجديد؟ اقترح المؤرخون لنابليون أشباها أخرى اقتبسوها من تاريخ القرون الوسطى، فاعتبره تين[٢] مثل الكوند وتيري[٣] الإيطاليين. وقال ماسون[٤]، الذي يذهب في الإعجاب بنابليون فوق كل حد، إن اليسوعيين والرهبان، الذين نصروا البابوية في القرون الوسطى، كانوا سلالة بونابرتين طردوا، كما طرد داني من فلورنسا[٥]، لميولهم الجبلينية[٦].**

---

(١) يقصد المؤلف هنا التهكم على نابليون لمحاربته الروسيا واعتقاده بإمكان هزيمتها، كما سيبين في مكانه بالتفصيل في الفصل التاسع.

(٢) هنري تين (**Henri Taine**) كاتب فرنسي نقادة. ولد سنة ١٨٢٨، وله مؤلفات عدة في الأدب والتاريخ، وأهمها ما كتب عن الثورة الفرنسية.

(٣) الكوندوتيري (**Condottiere**) كلمة إيطالية، معناها زعماء المرتزقة في إيطاليا في القرون الوسطى، كانوا يقومون بالخدمات الحربية لمن يدفع لهم أجراً مناسباً.

(٤) داوود ماسون (**David Masson**) كاتب اسكتلندي، ولد سنة ١٨٢٢ ومات في آخر القرن.

(٥) دانتي (**Dante**) فخر الجنس الإيطالي. ولد سنة ١٢٦٥ ميلادية في فلورنس، واشترك في الحروب التي قامت بين أحزاب الجبلين والجويلف في إيطاليا سنة ١٢٨٩. ثم حول اهتمامه نحو السياسة وخدم الحزب الجبليني. ثم نفي عن إيطاليا سنة ١٣٠٢، وبقى ينتقل بين البلاد عشرين سنة، ومات سنة ١٣٢١.

ودانتي أول كاتب ظهر من غير رجال الكنيسة، وأول من كتب بالطليانية الحديثة لا باللاتينية، فكان بذلك من مؤسسي اللغة الطليانية الحديثة. وأشهر ما كتبه كتاب "الكوميديا الإلهية" وموضوعه عبارة عن زيارة خيالية للجنة والجحيم وما بينهما، حادث في أثنائها سكان تلك الأقاليم من رجال الأدب والعلم القدماء، وذكر كثيراً من شعراء الرومان والإغريق الوثنيين بالإعجاب. وإن لم تسمح له أفكاره الدينية بأن يكون شواهم الجنة. وغرض كتابه الدفاع عن نظرية الإمبراطورية.

(٦) كان الجبلينيون في إيطاليا في القرون الوسطى حزباً يؤيد الإمبراطورية. أما الجويلف فكانوا حزباً يؤيد سلطة الباباوات.

لم تكن إمبراطورية نابليون رومانية، ولا كإمبراطوريات القرون الوسطى، بل كانت حديثة جداً من وجهة واحدة، وهي أن نابليون كان بارعا في الاقتصاد، فلا ولنجتن ولا بت، ولا جلادستون، أمكنهم أن يبلغوا مبلغه في تلك الميزة القائمة على التوفير الشديد المستمر بلا رحمة، وهم- كما نعلم- أحرص ما يكون على الوقت والمال. لقد كان نابليون مقتصداً في ملبسه، معتدلا في مأكله ومشربه، بخيلا بوقته، محتقراً لأنواع المسرات، مدققا بكل ما أوتي من حرص على كل فرنك يصرف في المسائل العامة. ويخيل إلينا أن التاريخ لا يذكر حكومة عظيمة، غير إمبراطورية نابليون، كانت سياستها تتعمد قطع كل المصروفات الكمالية، ومحاسبة الموظفين باستمرار على كل صغير، حتى تعذر على أي هيئة بلدية أن تقوم بأي تجربة من تلقاء نفسها لاستثمار مواردها. والدليل على صحة الحقيقة الأخيرة، ما كتب نابليون عقب انقلاب بروميير مباشرة، يرسم لأخيه لوسيان، الذي كان إذ ذاك وزير الداخلية، ما يجب إتباعه في إدارة البلديات في فرنسا. وقد ضرب نابليون في تلك المذكرة، المعتبرة من أعظم الأوراق الرسمية الخاصة بذلك العصر، على النغمة التي لعبها هو باستمرار في سياسته الداخلية: إذ وصف البلديات الفرنسية، البالغة ستا وثلاثين ألفاً، بأنها وريثة النظام الإقطاعي في القرون الوسطى، حررتها الثورة الفرنسية من نير النبلاء والقساوسة، وأصبحت بذلك ذات شخصية شرعية. ثم ذكر ما حل بها على يد رجال حكومة الإدارة، الذين أتلفوها وسلبوها، حتى صارت مثقلة بالديون غير قادرة على التصرف بحكمة في حرياتها ومواردها الجديدة. وختم مذكرته بأن المسألة المهمة في حكومة فرنسا الداخلية، هي السير بتلك الهيئات الواهنة السقيمة إلى حالة مالية ثابتة؛ ورسم الطريق المؤدية إلى تحقيق ذلك، وبيَّن الخطوات التي يجب إتباعها بالتتالي: الخطوة الأولى أن تعمل قائمة بالستة والثلاثين ألف بلدية، تقسم إلى تسعة أنواع، حتى إذا ما أحصيت البلديات

المستدينة، وعرفت مقادير ديونها، وجهت الحكومة كل مجهودها إلى إنقاذها.
الخطوة الثانية أن يزور حاكم المقاطعة البلديات الداخلة ضمن دائرة نفوذه مرتين في السنة ليتفقد أحوالها، وأن يقوم وكيله بمثل ذلك أربع مرات في السنة وإلا فصل من وظيفته. أما العمدة الذي لا يتعاون من الحاكم في العمل فيفصل في الحال، والذي يمتاز عن أقرانه في خطة الاقتصاد يكافأ بزيارة باريس، ويحظى بمقابلة القناصل[1]، ويقام له عمود تذكاري في القرية أو المدينة التي نجح في رفع الديون عنها. بذلك نال نابليون غرضه، وأقام نظاماً اقتصادياً دقيقاً طبقه بلا فارق على كل قرية ومدينة في فرنسا بواسطة وزارة الداخلية، ونجح به في تخفيف ديون البلديات تخفيفا محسوسا. إلا أننا كلما ذكرنا تلك الأعمال المالية والانتصارات الحربية، التي قامت بها الإمبراطورية، التي عملت من أجلها كل تلك المجهودات، وجب أن نذكر أيضا أن للمجن ظهراً؛ وأننا إذا أتيح لنا زيارة أي مدينة من أمهات مدن فرنسا بين ١٨٠٨ و١٨١٥، لوجدنا المعلمين ورجال الدين يعيشون عيشة ضيق بمرتبات ضئيلة جداً، ولرأينا المدارس خالية من التلاميذ، والمستشفيات العمومية مفتقرة إلى الممرضات والأدوات الطبية، ولشاهدنا الصناعات كاسدة، والحكومة تاركة الحبل على الغارب، وقد فقدت كل عناية بالإصلاح. إذ ليس من العقل ولا من الحكمة في المسائل المالية، أن يسن قانونا غير قابل للتغيير، يفرض مصاريف الحكومة في بلد من البلاد خمسة عشر سنتيما على كل ساكن. لا يمكننا الخوض في هذا الموضوع إلى أكثر من أن نقول أن المالية، ككل الأعمال البشرية الأخرى، تخسر كثيراً إذا طبقت عليها القواعد الآلية. إلا أن مثل تلك القواعد تشاهد دائماً كل الأنظمة التي ترمي إلى

---

(١) يراعى أن نابليون طبق ذلك النظام بعد أن أصبح قنصلا مباشرة، أي أن النظام نفسه كان قائماً منذ أيام القنصلية.

ضرورة الاقتصاد في الأعمال في إمبراطورية مركزية عظيمة. ولما كان من المحتم أن تعتبر مثل تلك الحكومة الأفراد كالأرقام، فلا غرابة أن تعتقد أن الحياة نفسها ليست إلا مسألة حسابية.

# الفصل الثامن

## الصدمة الأولى

تسبب عن محاولة نابليون تعميم الحصار القاري، أن اصطدم بأكبر قوتين في المدنية الأوربية، ألا وهما الكنيسة الكاثوليكية والروح القومي. ذلك أنه كان من زمن بعيد يعتقد أن وجود الدولة البابوية مدعاة للخلل في المسائل الأوروبية، على رغم اعتقاد الكاثوليك أن وجودها ضروري، لضمان استقلال البابا في المسائل الدينية. أغضى نابليون عن ذلك الخلل أثناء الاتفاقات السياسية التي عملت سنة ١٧٩٧؛ وظل البابا الحاكم السياسي على إمارة ممتدة في عرض إيطاليا من تراتشينا (**Terracina**) إلى ريميني (**Rimini**)[١]، بعد أن قبل الاتفاقية، وأتى إلى باريس لتبريك حفلة التتويج الإمبراطوري. لقد كان خليقا بأي سياسي رصين حازم أن يصبر على تلك الحالة مهما يعرض في سبيله من المتاعب السياسية، لأن قوة البابا لم تأت من الحكومة الضعيفة القائمة في إمارته الصغيرة الفقيرة في إيطاليا، بل من مقدرته على إثارة ضمائر الكاثوليك في أوربا قاطبة. غير أن نابليون لم يكن رصينا ولا حازما بعد أسترلتز، فما شعر بأنه يلعب دور شارلمان حتى أعلن أنه حاكم روما، وأن البابا تابع من توابع إمبراطوريته، معتقداً أن من السهل ومن السياسة صدع أمارة فقيرة في الموارد المالية، بارعة في المخاتلة. ثم وجد نابليون من امتناع البابا بيوس السابع عن الاشتراك في حرب هجومية ضد انجلترا ذريعة كافية لالتهام إمارته. إلا أن إدماج

---

(١) انظر مصور رقم ٣ إيطاليا.

روما رسميا في نظام الإمبراطورية الفرنسية– الذي أرجئ إلى مايو سنة ١٨٠٩– كان سببا في نشر البابا مرسوما بحرمان سالب الكنيسة من رحمتها. فأجاب نابليون على ذلك بفعلة وحشية شنيعة، حرض على تنفيذها. ثم أنكر اشتراكه فيها، ثم ما لبث أن دافع عن ارتكابها: تلك الفعلة هي القبض تحت جنح الليل في قصر كويرينال (**Quirinal**) في روما على الشيخ الوقور الذي اجترأ على مخالفة الإمبراطور الفرنسي، وإرساله بسرعة مخفوراً بالجنود إلى سجن في بلدة سافونا قرب جنوا.

من المهم هنا ذكر أن فكرة نابليون عن إمارة البابا كانت على طرفي نقيض مع الآراء والعقائد التي لقيت عطف الناس بعد سقوطه. ذلك أنه اعتبرها ولاية من ولايات الإمبراطورية، يمكن حكمها بلا قلق ولا تعب من باريس، وأن البابوية نفسها لا تزيد على أنها أكبر أسقفية، وأن من السخف أن يكون معظم أعضاء جمعية الكرادلة من الإيطاليين، حتى أنه اقترح أن يكون لكل دولة كاثوليكية كرادلة من بين أبنائها بنسبة عدد سكانها. ثم أعلن نابليون أن من اختصاصه دعوة المجالس الدينية، ودفع مرتب البابا، وتأييد الأعمال الدينية في الكنيسة الكاثوليكية بنفوذه السياسي. وعلى ذلك نقلت سجلات البلاط البابوي إلى باريس، ودار على الألسنة احتمال تأسيس بطريركية ألمانية مستقلة عن روما. وفي الحقيقة لو طال أجل الإمبراطورية عشر سنوات أخرى، لكان من المحتمل اضطرار العشائر الكاثوليكية في أمريكا إلى قطع علاقاتها مع كنيسة غيرت معالمها، وامتهنت إلى ذلك الحد.

وبينما كان النزاع بالغاً أشده، وبينما كان كل قس كاثوليكي يصب جام لعناته على رأس نابليون، بدأ هذا يستولي على أكبر الأمم كثلكة. ذلك أنه رأى، لضرورة تعميم الحصار القاري، أن يطبق النظام الفرنسي على شبه جزيرة

أيبيريا، ولاسيما مملكة البرتغال. فلم يكد يتم الصلح مع الروسيا، حتى بدأ يهيئ الأسباب للسيطرة على بلاط لشبونة. ثم أردف بذلك المشروع مشروعا، أكبر قدرا وأكثر خطرا، نحو مملكة إسبانيا وحكومتها الفاسدة الممقوتة، التي استكانت إلى أبعد مدى في خدمة مصالح نابليون، وأمدته بمعونات مالية وسفن حربية، وأعلنت الحرب على انجلترا طوع أمره، وشاهدت تخريب أسطولها عند الطرف الأغر، من أجل حرب لم يكن لها فيها مصلحة حيوية. ولكن أثناء الحرب مع بروسيا، ساد الاعتقاد في مدريد أن نابليون على باب هزيمة منكرة، فعزم جودوا (Godoy) محبوب الملكة ماريا لويزا، والحاكم الحقيقي في المملكة الأسبانية، أن يهب فجأة لتخليص الدولة من قبضة نابليون. ولتنفيذ ذلك صدرت الأوامر بتعبئة الجيش الأسباني، لكن سرعان ما ألغيت تلك الأوامر عند وصول أبناء ينا. كان في تلك الحادثة كفاية لتذكير نابليون بعدم استمرار سلام ثابت بينه وبين ملك الأسبان، ولدفعه إلى سياسة زينها عقله في سنة ١٨٠٥، تتلخص في توجيه ضربة حاسمة إلى تلك الأسرة البوربونية العتيقة، التي استراحت منها فرنسا وبارما ونابلي.

برهن نابليون أنه وماكيافللي (Machiavelli) بنا وطن واحد بعزمه على القضاء على الملكية الأسبانية. ذلك أن التاريخ لا يذكر مؤامرة دبرت بترو وبراعة أكثر مما دبرت به تلك المؤامرة، التي قصد بها حيرة وإرباك أمة تكره أي انقلاب عنيف، مع نزع سلاحها، وإلقاء الرعب في قلوب أبنائها. وقد كانت أول خطوة خطاها نابليون أن طلب من حكومة نادمة فزعة، فرقة حربية مكونة من خمسة عشر ألفا من صفوة الجنود، للخدمة على الحدود الدنماركية. فلما أجيب إلى طلبه؛ وأرسلت الجنود إلى سهل ولاية هلشتين (Holstein) التابعة للدنمارك، عقد اتفاقا سريا عند فونتنبلو (Fontainebleau) قرب باريس،

في ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٠٧، مع إسبانيا لغزو وتقسيم البرتغال. والأهمية الحقيقية لتلك الاتفاقية، أنها مكنت نابليون من إرسال جنود فرنسية إلى إسبانيا. أما ما كان من أمر البرتغال، فقد قبل القائم بالأمر، تحت ضغط نابليون، قفل الموانئ البرتغالية في وجه التجارة الانجليزية؛ فلو كان الحصار القاري هو الغرض الوحيد في رأس نابليون، لكفى ذلك القبول لحماية البرتغال من أي هجوم. إلا أن نابليون كان يرجو حربا يخب فيها، ووجد في امتناع القائم بالأمر عن مصادرة المتاجر الانجليزية جملة ذريعة كافية لغرضه[١]. ثم رسمت الخطة لغزو البرتغال بجيش مكون من قوات فرنسية وإسبانية، حتى إذا ما استولى عليها الجيشان كوفئ جودوا بأمارة في جنوب البرتغال. ولا يفوتنا هنا أن جودوا كان في أشد حالات الرعب، منذ فضح حادثة المنشور العدائي الذي أذاعه في وقت غير مناسب. ولذا كان مستعداً لعمل أي شيء لمصالحة نابليون. لو كان ذكاء ذلك الرجل مساوياً لجشعه، لفكر أن ليس من طرق الإمبراطور أن يكافئ الشر بالخير، وأن مكافأة الصديق الخائن بأمارة برتغالية أمل ضائع. ولقد قدر نابليون قيمة ذلك الأسباني لما قال: "أن ناظر السراي هذا ممقوت من كل الأمة، وسأستعين بخبثه على فتح أبواب إسبانيا".

في ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠٧ عبر جيش جونو المرابط في مقاطعة الجيروند، والبالغ عدده خمسا وعشرين ألفا، الحدود الفرنسية الأسبانية عند نهر البيداسو (**Bidassoa**) في طريقه إلى لشبونة. وكان المتفق عليه أن يعاونه عدد مساو من

(١) كان القائم بالأمر هو الأمير يوحنا، وذلك بسبب اختلال القوى العقلية عند أمه الملكة ماريا الأولى. وكان على اتصال بالحكومة الانجليزية، وقبل إعلان الحرب على انجلترا وإقفال الموانئ البرتغالية في وجه المتاجر الانجليزية بعلم الوزارة في لندن. إلا أنه رفض مصادرة البضائع الانجليزية جملة، فكان ذلك سبب الخلاف بينه وبين نابليون.

القوات الأسبانية تتقدم من ثلاث جهات. وضع نابليون ذلك الاتفاق لإخلاء إسبانيا من الجيوش في وقت من مصلحته أن تكون المملكة خالية من وسائل الدفاع الكافية. وكانت الخطة أنه بينما يستحوذ جونو على الأسطول والأسرة المالكة والخزينة في لشبونة، تسير جنود فرنسية إلى أسبانيا بحجة معاونة الحملة المزدوجة، وعندئذ يمكن إرهاب شارل الرابع ملك إسبانيا الضعيف إلى حد التنازل عن عرشه أو الهروب، ويصبح من السهل القضاء على جودوا، الذي تمقته الأمة، والاستيلاء على المملكة بين استحسان الأهالي أو بموافقتهم على الأقل.

وصل جونو لشبونة في ٣٠ نوفمبر، بعد زحف لقى في أثنائه صعوبات جمة، فوجد أن الأسرة المالكة أبحرت على سفينة من سفن الأسطول الانجليزي، وأن الخزينة والأسطول البرتغاليين قد أفلتا من يده. ومع ذلك كانت القرائن تدل حتى تلك الآونة على أن مشروع نابليون قد نجح: فالبرتغال قد فُتحت، والحدود الأسبانية قد عبرت بواسطة خمسة جيوش فرنسية، تحت ستار الاشتراك في الحملة البرتغالية لمساعدة حلفائهم الأسبان اسما، ولتمهيد الطريق لاحتلال إسبانيا فعلا. وإذا خالج أي إسباني شك في حقيقة مقصد الإمبراطور، فإن كل الريب زالت في فبراير ومارس سنة ١٨٠٨، حينما استولى الفرنسيون على المعاقل الأسبانية المهمة، وهي بامبيلونا (**Pampeluna**) وبرشلونة وسان سباستيان وفيجوراس (**Figueras**)؛ وأيضاً حينما علم الأهالي أن مورا، أحسن قواد الخيالة عند نابليون، يزحف على مدريد بصفته رسول الإمبراطور.

عند ذلك جاء الظرف الذي كان يتحينه نابليون، وهو أن شارل الرابع والملكة ماريا تريزا وجودوا ها لهم التقدم الفرنسي، فعزموا على الفرار، وقرروا الرحيل إلى أشبيلية ومنها إلى أمريكا، للنجاة من صرامة الإمبراطور، وغضب

الأمة الخطير، لازدياد مقتها القديم لحكمهم ولشعورها فجأة أنهم خائنون. إلا أن الهاربين أوقفوا عند آرانجويز (**Aranjuez**)، وهناك قامت ثورة كانت تنذر بإحباط كل مشروع نابليون، لأن الثوار أجبروا الملك على التنازل عن عرشه لابنه فرديناند أمير أستورياس (**Asturias**).

كان ملك أسبانيا الجديد محبوبا من أمته، لا لفضيلة اتصف بها، فإنه كان خلوا من الذكاء والجمال والأخلاق، بل لأنه كان في نظر الأمة عدواً لبلاط جلب العار لبلاده. كان إذن هيئاً على فرديناند، وهو ينعم بتلك المحبة العظيمة بين مواطنيه، أن يلم شعث الأمة الأسبانية ضد الغزاة. ولكن من حسن حظ نابليون كان فرديناند جباناً. فبدلا من أن يعلن الحرب ألحف في طلب الصلح، وبدلا من أن يتراجع إلى مقاطعة أندلوسيا، لجمع أشتات الجيش الأسباني، ذهب إلى مدريد، حيث عسكرت فرقة فرنسية تحت قيادة مورا. وهناك كتب خطاب تذلل لنابليون. رفض مورا، الذي كان يعرف الجبان بمجرد رؤيته، أن يعترف بلقب فرديناند، فجزع الملك وخيل له أن عرشه على شفا جرف، وقبل أن يذهب إلى بلدة نايون في جنوب فرنسا لمقابلة الإمبراطور، على اعتقاد أن مقابلة شخصية مع نابليون. لازمة للاعتراف به ملكا على إسبانيا. فما وصل إليها حتى علم أن نابليون قرر وجوب انتهاء حكم آل بوربون.

قال نابليون في سياق حديثه مع فرديناند: "إن بلادا كبلادكم مملوءة بالرهبان يسهل إخضاعها. لا يخلو الأمر طبعا من بعض مظاهرات، لكن الأسبانيين سيهدءون إذا علموا أنني أكفل لهم بقاء حدود بلادهم على ما هي عليه، ودستورا فضفاضا مع المحافظة على عوائدهم الدينية والقومية".

ولما ظهر أن فرديناند لم يرض بتلك الشروط، أصبح من الضروري مواجهته بأبيه وأمه. وكان بيد نابليون إقرار من شارل الرابع بأنه أرغم على

التنازل عن العرش لابنه؛ ولما كان الرجل لا يريد سوى أن يكون خلوا من الهموم والمتاعب، رؤى أن يحمل هو وولده على التنازل عن العرش، ثم يوقع هو على تنازل آخر. وهكذا مثلت رواية هزلية إسبانية أمام نابليون في ٢٥ مايو، كان الممثلون فيها أميراً حديث السن عبوساً، وأبا غاضبا مسنا مصاباً بالروماتزم، وأما سفيهة ذات لسان بذيء وخلق ذميم. وتفصيل ما حصل أن الملك السن أمر ابنه بالتنازل، فقوبل أمره بالرفض البات، إلا في كنانة بابليون كان فيها سهم أسد من أمر الأب: إذ وصلته أنباء بحدوث ثورة خطيرة ضد الفرنسيين في مدريد، فاتهم الأمير الشاب بالتآمر وأخبره بأنه إن لم يتنازل عن العرش من ليلته، فإنه سيعامل معاملة الخائن العاصي. فكتب فرديناند تنازلا مخافة أن يصيبه ما أصاب الدوق دانجيان. ولما كان والده قد وقع على معاهدة بينه وبين نابليون في اليوم السابق، تنازل فيها عن كل حقوقه في عرش إسبانيا للإمبراطور، فإن الرواية المضحكة المبكية التي مثلت في بايون ختمت على ما يرام. ثم قبل يوسف بونابرت عرش إسبانيا بعد أن رفضه لويس، ولما خير مورا بين البرتغال ونابلي، دله بعد نظره على أن يختار الحكم في إيطاليا.

اعترف نابليون فيما بعد أن السبب في خراب ملكه هو ما سماه بالقرحة الأسبانية. ولا غرابة في ذلك، فإنه أراد إخضاع بلاداً لم يصادف مثلها في كل حياته المتنوعة الحوادث: فإيطاليا والنمسا وألمانيا لم تكن سوى اصطلاحات جغرافية، مكونة من دول متعددة لا تسود فيها عاطفة مشتركة، خاضعة لحكومات لم يكن لها في قلوب الناس أصل ولا قبول. أما إسبانيا فكانت أمة واحدة منفصلة عن الدول الأخرى انفصالا تاماً حتى أصبحت لا تتأثر بالحوادث التي تحرك الأفكار وتغيرها. الدليل على ذلك أن ريح الثورة الفرنسية لم تهب على ما وراء جبال البرانس، ولم تصادف الحريات الدستورية وحقوق

الإنسان والتسامح الديني، وغيرها من العبارات التي حققتها الثورة الفرنسية، هوى في فؤاد الأسباني الذي كان يرى في نابليون عدو دينه، وخاطف مليكه وغازي بلاده. وسرعان ما انتشرت في أنحاء إسبانيا حركة فجائية كانت درسا لكل أوربا؛ ولما سلمت الفرقة الفرنسية بقيادة ديبون (**Dupont**)، في ٢٣ يونيه، لجيش أسباني عند بايلن (**Baylen**)، أدرك نابليون خطأه في تقدير صعوبات مشروعه، وعلم أن إسبانيا لا تغرر بدستور حبر على ورق، ولا يمكن السيطرة عليها بجيش مفكك العرى، مكون من مجندين حديثين لم يدربوا بعد على أصول القتال.

كانت الثورة الأسبانية الحلقة الأولى من سلسلة طويلة من الحركات القومية، التي قضت في آخر الأمر على الإمبراطورية النابليونية القضاء الأخير. في تلك الثورة كانت الصعوبات الهائلة الناتجة من طبيعة أرض إسبانيا: كجدب الهضبة الوسطى، وتقاطع كل السلاسل الجبلية مع طريق الزحف من نايون إلى قادس، وقلة الطرق ورداءتها، ونظام الأنهار الذي كان عقبة لا عوناً في المواصلات– كل تلك الصعوبات– جعلت إسبانيا صالحة جداً لحرب الكر والفر. وازداد سوء حظ نابليون في ذلك النضال، الذي أثاره دون أن يحسب للعواقب حساباً، إذ مهدت حرب شبه الجزيرة ميدانا لجيش انجلترا البري يبلي في أحسن البلاء. ذلك أن وزارة الدوق بورتلاند في لندن قررت، بدلا من صرف قوة انجلترا الحربية في حروب لا طائل تحتها في جزائر السكر(١) الموبوءة بالحميات، أن يشترك الجيش البريطاني في النضال القومي في إسبانيا والبرتغال. كان لذلك القرار شأن عظيم في مصير تلك الحرب: لأنه بينما نتج عن وجود جيش القائد الانجليزي ولزلي (**Wellesley**) شد أزر المقاومة الباسلة، التي قام

(١) جزائر السكر هي مجموعة في جزائر الهند الغربية.

بها الأسبان على سوء نظامهم، كان اشتباك الأسبان مع الفرنسيين، في جهات مبعثرة، عونا كبيراً للحركات الحربية البريطانية. ولقد كان خليقا بنابليون أن يعتبر من الضربة الأولى عند فميرو (Vimiero)، في ٢١ أغسطس سنة ١٨٠٨، حين بددت الجيوش الانجليزية القليلة العدد بقيادة ولزلي جيش جونو، طهرت البرتغال من الفرنسيين.

رفض نابليون أن يعتبر، وظل طول مدة الحرب يستخف بصعوبات أرض إسبانيا، ويصدر إلى قواده أوامر تنفيذها من أرابع المستحيلات. وربما قوى ثقته بحسن المستقبل تلك النتائج الباهرة، التي انقضت بها الحرب القصيرة في شتاء ١٨٠٨ المتداخلة في ١٨٠٩، لما زحف بنفسه على رأس جيش عظيم مكون من ٢٠٠.٠٠٠ مقاتل، وقضى على مقاومة الأسبانيين في الشمال، وأعاد أخاه يوسف ملكا في مدريد، ثم طارد السير جون مور (Sir John Moore) القائد الانجليزي على سهل ليون إلى سفح تلال غاليسيا. غير أنه لم يكن ثمة داع للتفاؤل من وراء ذلك. ولو أن نابليون اتعظ من منذرات بايلن وفميرو، وحصر أعماله الحربية في الأقاليم الواقعة شمال نهر الأيبرو، لكان حكيماً. لكن الذي حصل هو أن تقدمه الجريء أضطره لمواصلة حرب استنفدت زهرة جيوشه، وأضعفت قبضته الحربية على بروسيا، وشجعت كل أعدائه في أوربا.

ليس من شيء يبين خلق نابليون أكثر من أنه فتح باب المفاوضة مع الروسيا للمرة الثانية، والمشروع الأسباني يختمر في رأسه، لاقتسام تركيا، ولتسيير حملة مزدوجة عن طريق نهر الفرات لمهاجمة الممتلكات الهندية التابعة لانجلترا. رأى نابليون إسبانيا بساحلها الطويل وموانيها الكثيرة مصدر قوة بحرية بعد إيطاليا في القيمة، فالاستيلاء عليها، كالاستيلاء على إيطاليا، يساعد على كسر شوكة انجلترا، على اعتبار أن قادس مفتاح كلكتا. غير أن الثورة الأسبانية غيرت

وجه الأشياء وعكست دورة السياسة، فزال مشروع اقتسام تركيا، الذي راوغ به الروسيا والنمسا، وزال معه المشروع الهندي، من صفحة السياسة العملية، وحل محلهما غرض نابليون الأصلي، وهو تجديد تحالف تلست لتبقى النمسا ساكنة، حتى يمكنه أن يصفي حسابه مع أهل إسبانيا المذبذبين. لذلك دُعى القيصر إلى مؤتمر في ألمانيا، عقد خصيصاً لإظهار نابليون في دوره الجديد، كحسيب الأمراء الألمان وحاميهم. وذهب إسكندر إلى إرفرت (**Erfurt**)، في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٠٨. غير أن تحمسه الشديد نحو نابليون أضحى تشوبه بعض الريبة. ومع ذلك وقع على اتفاق سري وعد فيه بالمساعدة في حالة ما إذا بدأت النمسا بامتشاق الحسام. بذلك سُدت منافذ الخلاف بينهما مؤقتاً؛ ولكن لم يخف على أي بصير أن حالة أوربا تغيرت عن أيام تلست؛ وأن التحالف الفرنسي الروسي أخذت تبلي جدته، وأنه بينما واجهت نابليون صعوبات جديدة، ازدادت قوة القيصر بالاستيلاء على فنلندة وإمارتي الأفلاخ والبغدان على مصبات الدانوب.

كان لفشل نابليون في إسبانيا نتيجة حتمية، وهي فتح باب النزاع القديم مع النمسا من جديد: ذلك أن موقف فرنسيس إمبراطور النمسا لم يقتصر على الدهشة لخلع آل بربون في إسبانيا، لأن بين الرءوس المتوجة رابطة ملكية، كأنها نقابة يتأثر أعضاؤها بمصائب الملوك إخوانهم. هذا، ومن يدري إذا كان خلع الملوك، الذي نجح في تيورين وبرنزويك وكاسل وفلورنس ونابلي وبايون، لا يطبق بنجاح لآخر مرة في فينا؟ وقد ظهر في المسألة الأسبانية، أن أطماع نابليون لا يوقفها ضعف فريسته، أو استعدادها لإجابة ما يريد. ثم إذا كان الإمبراطور لم يتردد في خلع حليفه في الحرب، فلا مجال إذاً للظن أن يفلت المحايد من يده. وبالاختصار قد بدأ روح جديد يسري في النمسا، ظهرت بوادره في تكوين

قوات حربية أهلية، وضاعفت تكوينه أبناء الثورة الأسبانية. وفي ديسمبر سنة ١٨٠٨ قر الرأي على انتهاز اشتغال نابليون بالحرب في إسبانيا للاستعداد من أجل إعلان الحرب في الربيع التالي. كان أقطاب تلك السياسة ثلاثة وهم الأرشيدوق شارل، والكونت ستاديون (**Count Stadion**) رئيس الوزارة، وسفير حديث السن عرف نابليون في باريس، وقُدر له أن يلعب دوراً كبيراً في القضاء عليه: ذلك الشاب هو مترنيخ (**Metternich**)، الذي صار اسمه رمزاً للقوة الرجعية أكثر من جيل من الزمان، مع أن السفينة السياسية التي ركب متنها أُنزلت لأول مرة في وقت المد الذي أحدثته الحركات القومية في بحر السياسة.

في تلك السنة بلغ نابليون التاسعة والثلاثين من عمره. نعم إنه أضحى بدينا، إلا أن صحته كانت جيدة، ولم يعتور نشاطه وتحمله المصاعب شيء. يبرهن ذلك أنه عبر أثناء تعقبه السير جون مورجبال الجواداراما (**Guadarrama**)، على رأس جيشه سيراً على القدم، في وسط عاصفة ثلجية أعمت الأبصار؛ وقطع ٢١٤ ميلا في أثني عشر يوما في جو ديسمبر، متجشما الجليد والثلج؛ وعاد من فلادوليد (بلد الوليد) إلى باريس في أقل من ستة أيام، فكان في تلك المرة لا يقل في المهارة عن المرات الكثيرة التي قام بها بأسفار كلها عقبات بسرعة الطبر. ثم أن ثقته بالمستقبل كانت عالية كعلوها أيام الحملة المصرية. وكان جيشه يبلغ ٨٠٠.٠٠٠ مقاتل حسب الإحصاءات الرسمية. وبالرغم من اضطرار ٣٠٠.٠٠٠ للبقاء في إسبانيا، فإن عوامل ثلاثة جعلته يشعر أن ليس ثمة ما يخيفه من النمسويين، وهي "جنوده الإجباريون، واسمه الرنان، وأحذيته الطويلة"، وهذه الأخيرة على الخصوص هي التي أمنته.

يرجع السبب في عدم تحول حرب سنة ١٨٠٩ إلى حرب عامة لتحرير

ألمانيا إلى السرعة المدهشة التي انقض بها نابليون على النمساويين في الوادي الأوسط للدانوب، والتي طاردهم بها إلى فينا قبل أن تشتعل نار الثورة في الشمال. ذلك أنه رأى بثاقب نظره، وبقدرته على توجيه كل الهمة إلى جلائل الأمور، أن العمود الفقري للمقاومة في وسط أوربا هو الجيش النمسوي، فإذا كسر ذلك الجيش بحيث لا تقوم له قائمة بعدها، شُلت الوطنية الألمانية والتيرولية. إلا أن الحرب كادت في أول أمرها تعود بالخسران، من جراء خطط برتييه (Berthier)، الذي كان ماهراً كأركان حرب لا كقائد. ذلك أن نابليون أمر بتجميع كل فرق الجيش حول راتزبون (Ratisbon)، وأضاف تعليمات تقضي بأنه في حالة عبور النمسويين نهر الأن (Inn) قبل ١٥ ابريل، يجب على الجيش الفرنسي أن يتراجع إلى نهر لخ (Lech). نفذ الجزء الأول من التعليمات تقريباً، وزحفت فرقة دافو (Davoust) إلى راتزبون في ١٦ ابريل، أي في اليوم الذي نجح فيه الأرشيدوق شارل في عبور نهر الأيسار (Isar)، على رأس ١٢٦.٠٠٠ مقاتل. بلغ الخطر بمركز الفرنسيين أشده، لأن دافو كان في راتزبون، وبرتييه في أجزبرج على مسافة ٧٦ ميلا غربا، وكانت هناك بين جناحي الجيش فرقة بافارية ضعيفة معسكرة عند آبنسبرج (Abensberg). ولو كان الأرشيدوق من مهرة القواد لهزم فرقة دافو المكونة من ٦٠.٠٠٠ مقاتل قبل أن تصل إليه الإمداد، ولتقدم بعد ذلك وقضى على فكرة برتييه. لكن بينما الأرشيدوق في غفلته، إذا بنابليون ينهب الأرض "بأحذيته الطويلة" نحو ميدان القتال؛ لأنه سمع بإعلان الحرب في الساعة الثامنة من مساء ١٢ ابريل وهو في باريس، وعند الساعة الرابعة صباحا من اليوم السابع عشر كان في دوناوفورت (Donauworth) يهيمن على أعمال الميدان. ولقد حازت الحركات الحربية التي قام بها تلك المرة إعجاب معظم النقاد الحربيين، واعتبرها نابليون أحسن أعماله الحربية، على الرغم مما كان ينقصها من دقة في بعض

تفاصيلها. ذلك أنه جمع أشتات جيشه بإصدار الأمر إلى دافو بالتراجع مع الجناح الأيسر، وإلى مسينا بالتقدم مع الجناح الأيمن. ثم زحف لكسر عدوه فرقة فرقة، فضرب الجناح الأيمن النمسوي ضربة ألقت وحداته صرعى عند آبنسبرج. ثم أجبر الجناح الأيسر إلى التقهقر بلا نظام حتى عبر نهر الأيسار عند لاندشوت (Landshut)، وأخيراً سارع نابليون نفسه لنجدة دافو، الذي كان يحارب القوات الرئيسية، التي كانت تحت إمرة الأرشيدوق عند إجمهل (Eckmuhl)، وبذلك تغيرت مواضع كفتي الميزان. فارتد النمساويون إلى راتزبون، واشتبكوا في موقعة يوم ٢٧ ابريل، ثم انسحبوا بانتظام عابرين الدانوب، وقد خسروا خمسين ألف مقاتل في تلك الحرب، التي دامت خمسة أيام، حيث كانت الغلبة لقوة الابتكار السريع على التردد في ساحة القتال. ثم علم نابليون في ابريل، أن الأرشيدوق بعد عبور الأيسار انحرف شمالا عن طريق التقدم المستقيمة، "فاستوى قائما، وتألقت عيناه، وظهرت على نظرته وصوته وإشارته نشوة الفرح". ثم قال: "الآن وقعوا في يدي! لقد ضاع جيشهم! سنكون في فينا في ظرف شهر". كان نابليون معتدلا في آماله: إذ لم تمض ثلاثة أسابيع، ألا وهو نزيل قصر شونبرون (Schönbrunn) بالعاصمة النمساوية.

مثل الفصل الثاني من تلك الرواية على ضفاف الدانوب السريع الجريان، على بعد ثلاثة أميال من فينا، حيث تشطر النهر شطرين جزيرة لوباو (Lobau) الكبيرة المكسوة بالغابات. قال نابليون فيما بعد يصف ما كان أمامه من الأعمال الحربية في تلك المرة: "إن عبور نهر كالدانوب أمام عدو يعرف المكان جيداً، ويملك عطف السكان لهو أكثر الأعمال الحربية خطراً". ولما كانت النمسا تجني كثيراً وفرنسا تخسر كثيرا بسبب الإبطاء في العبور، تحتمت محاولة تلك العملية الصعبة. وفي ليل ٢٠ مايو عبرت فرقة القائد

**مسينا، وفرقة الحرس والخيالة الخفيفة تحت إمرة القائد لان، النهر من الجزيرة إلى الضفة الشمالية، حيث قوبلوا مقابلة كافية لإلحاق الوهن بأي جيوش عادية: إذ لبث جيش فرنسي مكون من ٣٦.٠٠٠ طول النهار حول قريتي أسبرن (Aspern) وإسنج (Essling)، يحارب قوات متفوقة عليه، سدت في وجهه السبل، وقطعت عنه الإمداد، بتهديم الجسور. وفي ليلة ٢٢ أرسلت أمداد، ولكنها لم تك من القوة بحيث تغير أوضاع كفتي الميزان، وبعد انقضاء يوم آخر، في حرب سجال حمى وطيسها، سحب نابليون جيوشه إلى الجزيرة، وخسر في وسط معمعة أسبرن– إسلنج القائد لان، الذي كان أشجع الشجعان. عند ذلك أدركت أوربا بأن قهر نابليون ليس عليها بمستحيل.**

**بعد ذلك بثلاثة أسابيع، وقعت الواقعة التي ختمت بها الحرب، وهي المعروفة للتاريخ بواقعة فاجرام (Wagram). عبر نابليون نهر الدانوب في ليلة ٥ يوليو بجيش عرمرم يزيد على عدوه بنسبة عشرين في المائة. وفي اليوم التالي تأهب للقتال. برهنت تلك الواقعة أن الشجاعة النمسوية ليست حادثا عرضيا، وأن التفوق الفرنسي ليس من ضرورات النظام الطبيعي. ذلك أنه بعد قتال عنيف، بدأ في فجر يوم من أيام يوليو، واستمر حتى بعد الظهر، انسحب الأرشيدوق شارل من الميدان مغلوباً، لكنه غير مفلول القوى، وبدون أن يترك أسيراً أو علما في يد العدو. فكان المهزوم هو الأرشيدوق شارل حقا لا الجندي النمساوي، وكان المنتصر رجال المدفعية الفرنسية لا مشاة الجيش الأعظم، الذي لم يعد بعد الأداة الفاخرة، كما كان في أيامه الأولى. وسبب ذلك أن زهرة الجيش كانت تهلك في أسبانيا. هذا وقد برهن الذعر الشائن، الذي استولى على الجيوش أصيل الواقعة، لما ذاع خبر اقتراب جيش الأرشيدوق جون، أن هناك بونا شاسعاً بين المجندين الأحداث الذين حاربوا في فاجرام وبين الجنود**

المدربين الذين حاربوا في أركولا واسترلتز.

عقدت هدنة بين الإمبراطورين مداها أربعة شهور، ظل في أثنائها كلا الفريقين يتتبع باهتمام المنازعات القائمة في الجهات الأخرى من أوربا، أملا في ابتسام الحظ مرة. وكان الخطران الرئيسيان أمام نابليون أن تعلن بروسيا الحرب، أو يقر رأي القيصر، الذي كانت مساعدته الحربية من أضعف المساعدات، على نقض التحالف مع فرنسا. وكان هناك خطر آخر بعيد الاحتمال، وهو حصول هزيمة منكرة في إسبانيا، أو نزول الانجليز على شاطئ البحر البلطي، في وقت ما كان أنسبه لإثارة العناصر الثورية، التي تحتشد في شمال ألمانيا. لكن كل تلك الغيوم انقشعت بانقضاء الصيف وحلول الخريف، فالبروسيون لم يعلنوا الحرب، وظل التحالف الروسي قائما مؤقتاً، على أن تأخذ الروسيا جزءا من غاليسيا من النمساويين. ثم وردت أنباء من إسبانيا اعتبرت أعظم ما تكون في صالح الفرنسيين، وهي أن ولزلي تقهقر إلى البرتغال بعد موقعة تالافيرا (**Talavera**)، وأن حملة انجليزية، وجهتها الاسمية مهاجمة أنفرس، سارت إلى حيث تنفذ قواها في مستنقعات والشرين (**Walcheren**) الموبوءة بالحميات، فلم تنل أربا، سوى أن نابليون اتخذ وجودها ذريعة لتجنيد جيوش جديدة. ثم قامت في شمال ألمانيا ثلاث ثورات طائشة لا اتصال بينها، أخمدت الواحدة تلو الأخرى. أمام كل ذلك، ونظرا لتفشي الأمراض في الجيش النمساوي، جاء فرنسيس يطلب الصلح صاغرا.

ذكر نابليون علنا في أثناء المفاوضات أن الأجدر بفرنسيس أن يتنازل عن العرش، إذ قال للأمير لشتنشتين (**Lichtenstein**) المفوض النمسوي: "أريد أن أتفق مع رجل أعتمد على اعترافه بالجميل، فلا يعود إلى مناجزتي مدة حياتي. كثيرا ما برهنت السباع والفيلة على قوة العاطفة وتأثيرها في القلب، لكن

سيدك لا تحركه العواطف". لا غرو أن إمبراطور النمسا، الذي كان عدوه نزيل قصره، عجز عن أن يحذو حذو العجماوات، التي تعترف بالجميل. لذلك سلبه نابليون إقليما يبلغ سكانه أربعة ملايين، بما فيه ميناء تريست العامرة والساحل الشمالي للبحر الأدرياتي. هذا فضلا عن الإهانة التي لحقت بالنمسا في تلك المعاهدة، التي عقدت في فينا نفسها، في ١٤ أكتوبر سنة ١٨٠٩، من جراء ترك التيروليين الشجعان، الذين بذلوا كل مرتخص وغال في سبيل الرجوع إلى حظيرة الوطن، لانتقام نابليون.

حدث بعد الصلح بمدة يسيرة، أن عقد أشهر زواج سياسي يذكره التاريخ الحديث: ذلك أن نابليون طلق جوزفين بعد رجوع إلى باريس، وطلب يد أرشيدوقة نمساوية، ونال موافقتها. كان محالا أن يحوله عن السبب الأعلى، الذي من أجله أقدم على ذلك، دموع وتوسلات امرأة جميلة، أحبها مرة ملء قلبه، وبقي يشعر نحوها بعاطفة الحب. والسبب في ذلك أن جوزفين لم تعقب منه نسلا، ولما كانت الإمبراطورية في حاجة إلى وارث للعرش، قرر مجلس الشيوخ الخاضع لكل أوامر الإمبراطور، انحلال عقد الزواج. ثم أفتى مجلس الأساقفة في باريس بجرأة أعظم، أن الزواج لم يحصل أبدا.

كان اختيار بديل صالح موضع أخذ ورد ردحا من الزمن؛ وفتحت مفاوضات عدة في وقت واحد مع بلاطي فينا وسان بطرسبورج. وأخيرا قرر نابليون التزوج من ماري لويز النمساوية، لأنهاكانت في سن الزواج من جهة، ولأنها كانت كاثوليكية من جهة أخرى، وأنه أحس بعدم رضاء البلاط الروسي به، واعتقد أنهم سيرفضونه من جهة ثالثة. ولما قال لاكويه (**Lacuée**) وزير الحربية،وكان معارضا في الزواج النمساوي، إن النمسا لم تعد دولة عظيمة، رد عليه نابليون: "إذن يخيل إليّ أنك لم تحضر واقعة فاجرام". من الطبيعي أن

يستشهد نابليون بحوادث الحرب الماضية، ليحمل على الاعتقاد أن التحالف النمساوي سيكون دعامة قوية يستند إليها هيكل الإمبراطورية الفرنسية المختل. هكذا تزوج القورشيقي الصغير من أعرق أسرة في أوروبا. ولقد تلبدت بسبب ذلك الزواج غيوم من الشر: فإن المرأة لم تكن بالمخلصة، وانقلبت دولتها عدوة، وعاش وليد ذلك الزواج الهابسبورجي البونابرتي عيشة رديئة تعسة، بين أعداء اسم أبيه.

# الفصل التاسع

## انهيار البناء

يقع سقوط نابليون في ثلاث روايات متصلة الحوادث وهي موسكو وليبزج وفونتنبلو، يتلوها فصل ختامي في واترلو. وقد امتازت المجهودات التي بذلت، والضحايا التي ذهبت في ذلك النضال الأخير، بالجسامة والتهور إلى مدى جعل الخلف يعتقد بزيادة ما بذل عن طاقة ذلك العصر المخضب بالدماء. فالدول التي اشتركت في الحرب اشتراكاً فعلياً كانت أكثر عدداً، والجيوش أكثر نفرا، والخسائر التي لحقت المتحاربين من جراء القتال ونفاد المؤن أكثر هولا، مما رأته حرب سابقة. بلغ عدد القتلى في واقعة بورودينو (**Borodino**) وحدها ثمانين ألفاً، وعدد جرحى ليبزج مائة وعشرين ألفا. غير أن نابليون على الرغم من اضطراره إلى الارتداد وراء نهر الرين بخسارة ما يقرب من مليون رجل، لم يذعن لفكرة اعتزال الملك إلا بعد الاشتباك فيما يقرب من عشرين واقعة. والسبب أن ذلك كله حدث في عصر لا عهد له بالتلغراف، أو التليفون، أو الطرق الحديدة، أو بأي تأثير جدي من الصحافة في عقول الجمهور. فكانت الأمم لا تثار بسرعة، وكانت الأفكار بطيئة التغيير، والناس أصعب قياداً عند إثارتهم وتنظيمهم للأغراض الحربية. إلا أن ذلك العصر، الذي كانت الأسفار فيه بطيئة، والمواصلات رديئة، رأي أوربا جمعاء تسلس قيادها طوعا لتأثير قوة إرادة واحدة، سيرت الفلاحين الفرنسيين إلى موسكو، وأتت بفرق القوازق والكالموك الروسية إلى باريس للالتحام في نضال سداه ولحمته مصالح وأطماع الأمم العشرة الكبرى في الدنيا القديمة.

لا ريب أن مغزى تلك المأساة الثلاثية الهائلة انتصار الروح القومي على السيطرة الأجنبية، تلك السيطرة التي تدرب وتشجع بلا قصد الوسيلة التي تقضي عليها. ففي إسبانيا والروسيا وانجلترا، وفي بروسيا أخيرا، اصطدم نابليون بقوة لم تخطر نتائجها على باله، وتمتاز، كما برهنت الحوادث، بالقدرة على التجدد والرجوع دائماً لسيرتها الأولى. نعم كان نابليون يعرف مظاهرات الشوارع، وكيف يمكن تفريق المتظاهرين بإطلاق حفنة من البارود، كما حصل في باريس[1] وبافيا[2] والقاهرة[3]. إلا أنه أخطأ لما اعتبر كل الحركات القومية من ذلك النوع لا قيمة لها، ولا شجاعة فيها، وسهل إخمادها بشيء من الصلابة الحربية. فحسب مثلا أن ليس من خطر في إسبانيا إلا الجيش الانجليزي، وأنه يكفي لإخماد ثورة الكالابريين في جنوب إيطاليا إضرام النار في بعض المباني، وإعدام بعض الأفراد رميا بالرصاص. ولقد قال في شيء من الاستخفاف في إحدى رسائله: "يجب علينا أن نميت الروح القومي في ألمانيا"، كأن من الممكن

---

([1]) حادثة باريس تقدم ذكرها. انظر ص ٢٥– ٢٦.

([2]) تفصيل حادثة بافيا أن نابليون لما دخل ميلان ظافراً في مايو سنة ١٧٩٦، إبان الحرب الإيطالية الأولى، جمع كثيراً من النفائس، بناء على تعليمات حكومة الإدارة، وأخذ جميع مواشي فلاحي لمبارديا لتموين الجيش. فثار الفلاحون، وهاجموا بافيا، وقتلوا كل من لقوا من الجنود الفرنسية. أخمدت تلك الثورة بشدة بإطلاق البارود على الثوار، ثم استبيحت بافيا فنهبها الجنود.

([3]) بعد واقعة أبي قير البحرية، زعم الفرنسيون أنهم سيعمرون في مصر طويلا. ولكنهم أتوا بأعمال استفزت المصريين، كهدم بعض الأماكن من أجل تنظيم الشوارع، والتشديد في جباية الضرائب بنظام أوربي، وسوء معاملة نابليون لبعض العلماء الذين أبوا وضع الشارة الفرنسية على صدورهم. وفوق ذلك تواترت الإشاعات بأن السلطان يعد جيشا عظيما لطرد الفرنسيين، فكان كل ذلك سبباً لقيام ثورة في القاهرة. لكن سرعان ما أخمدها نابليون؛ فوضع المدافع على ربي المقطم، وهدد مراكز الثورة في الأزهر وجهة الحسينية؛ ودخلت الجنود الفرنسية الأزهر بخيلها فانتهكوا حرمته؛ وما زال نابليون بالمصريين حتى طلبوا منه الأمان.

تدريب أمة عظيمة على نسيان مدنيتها القديمة بسهولة، كما يدرب الجندي الجديد في "التابور"، على ترك عادة السير المسترخي البطيء. قد يكون السبب في وقوع نابليون في ذلك الخطأ طول وجوده في مركز الآمر الناهي، لأنه ليس من شيء أكثر خطراً على الذكاء من الاسترسال في الأمر. ولا شك أن الانفراد بالحكم، وما يترتب عليه من ثقيل الأعمال، أضر بعقل نابليون، وآذاه في أخلاقه، إذ أصبح أقل إنصاتا للنصيحة، وأسرع غضبا وأقل احتمالا لمخالفة أوامره، وإن في تتابع وزراء الخارجية من تاليران إلى شامباني (**Champagny**)، إلى ماريه (**Maret**)، الذين كان كل منهم يقل عن سابقه في المقدرة واستقلال الرأي، لأحسن دليل على اتساع شقة الخلاف بين سياسة الإمبراطور ومصالح فرنسا.

كان سقوط نابليون النتيجة المنطقية للنظام القاري، الذي وجه إليه أكبر جزء من نشاطه في السنتين التاليتين لموقعة وإجرام. ذلك أن مشروع إغلاق كل موانئ أوربا في وجه المتاجر الإنجليزية أو مستعمراتها لم يستلزم توسيع دائرة فتوح نابليون فقط، بل نتج عنه أن ضم نابليون لفرنسا هولندا والمدن الهنسية[1]

---

([1]) يرجع تاريخ المدن الهنسية للقرون الوسطى، وقد أطلق هذا الاسم على مجموعة من المدن الألمانية، التي كونت فيما بينها عصبة تجارية اسمها الهنسية (**Hanseatic League**) سنة ١٢٤١، لحماية الموانئ الألمانية، التي تستعملها تلك المدن في متاجر هامن قرصان البحر الدنماركيين والسويديين. ثم أخذت العصبة في الاضمحلال لما ابتدأت التجارة تتحول في أواخر القرن الخامس عشر إلى المحيط الأطلسي. وجاءت حرب الثلاثين سنة (١٦١٨–١٦٤٨) فكانت نتيجتها انتشار عقد المدن الهنسية، ولم يبق منها إلا ثلاث مدن ألمانية حافظة لظل العصبة القديمة، وهي هامبورج (**Hamburg**) ولوبك (**Lubeck**) وبرمن (**Bremen**)، وهي التي استولى عليها نابليون لأحكام السياج. الذي أراد قامته في وجه التجارة الانجليزية.

ودوقية أولدنبورج (**Oldenburg**). وبصرف النظر عن الاستياء والفزع العامين، اللذين نتجا عن تلك الأعمال، فإن الحصار البحري جر صنوف الفاقة وويلاتها على رأس كل فرنسي.

وصف جيته[1] الشاعر الفيلسوف الألماني نابليون بأنه أحد الرسل المبعوثين لإقامة مدنية أعلى من المدنية التي قامت في أوربا في آخر القرن الثامن عشر. لكن إذا كان من مقتضيات الرسالة أن يبلغ ثمن الطباق ما بلغ، وأن يندر وجود البن والسكر في الأسواق، وأن تبقى السفن في الموانى حتى تبلي، وأن تصرف المحال التجارية الكبرى الواحد بعد الآخر عمالها، وتغلق أبوابها، فإننا نعرف أن أناساً أقل فلسفة وشاعرية من جيته لم يروا في أعمال نابليون إلا الاستبداد القاسي والإسراف بلا مبرر: فالحصار القاري تمخض عن الخسائر في كل مكان، وأصبحت البلاد التجارية مثل هولندا ودوقية برج خراباً؛ والحق أنه لم يوجد في سياسة نابليون– إذا استثنينا التجنيد الإجباري– ما جعل حكمه مكروهاً في أوربا أكثر من الحصار القاري.

لا يخفى أنه لو أمكن تنفيذ المشروع بدقة، لجاز أن ينتج عنه الأثر المطلوب. لكن ثروة انجلترا الطائلة لا تعتمد اعتمادا كليا على التجارة، كما زعم نابليون، لأن معظمها عبارة عن ثمرة نشاطها الصناعي. أما نقطة الضعف في

---

[1] ولد يوهان ولفجانج فون جيته (**Johann Wolfgang von Goethe**) سنة ١٧٤٩، وهو أعظم شعراء الألمان في العصر الحديث، ومن أكبر رجال الأدب في عصره. وحدث أنه وقع في حب فتاة مخطوبة هام بها وكتب كتابه "آلام فرتر" يصف لواعج حبه. وبعد ذلك اشتغل بالأدب، ومازال ينقلب بين الأدب والسياسة، ويخرج كتبا عدة منها رواية فاوست (**Faust**) الشهيرة وكتاب الشعر والحقيقة. ولقد عمر اثنتين وثمانين سنة ممتعاً بشهرة عالمية فائقة ومات سنة ١٨٤٢.

حالتها الاقتصادية، فهي أن سكانها نموا نمواً سريعاً، حتى أصبحت بحاجة من آن لآخر إلى استيراد القمح من أوربا. ولو أن كميات الغلال الأجنبية قُطعت عن السوق الانجليزية، لكان من المحتمل أن تقع الدولة في مجاعة أليمة تضطرها لطلب الصلح. لكن ذلك النظام لم يتبع، بل سُمح للمصدرين الفرنسيين برخصات خاصة لإرسال غلالهم لانجلترا. ليس غريبا إذاً أن يفشل الحصار في تحقيق ما وضع له، بسبب التجارة الواسعة التي سمح بها بمقتضى تلك الرخصات الخاصة، وبسبب النشاط العظيم بين المهربين. إنما الغريب أن يظل نابليون معتقداً أن إصدار القرارات، التي كان كل منها أشد تضييقاً من سابقه، والتي يستحيل تنفيذها بالدقة، سيمكنه من إرغام انجلترا على الخضوع.

حمل ذلك السبب نابليون، وأسباب أخرى أهمها مسألة زواجه، على أن يعدل عن عزمه الأول، وهو العودة لأسبانيا؛ لأنه اقتنع بعض الشيء بأنه إذا أدار اللولب الضاغط على التجارة الانجليزية دورة أخرى، فإن حرب شبه الجزيرة يقضي عليها من جذورها. لذلك أناب عنه مسينا، أقدر قواده، لغزو البرتغال. إلا أنه لم يفرده بقيادة الجيوش الفرنسية في إسبانيا، ولم يزوده بجيش كاف، ولم يترك له الحرية التامة في العمل.

ولقد رأى مسينا وهو يعسكر على مرتفعات بوساكو[1] (**Bussaco**)، وأمام خطوط توريس– فدراس (**Torres- Vedras**)، وفي معسكره الشتوي عند سنتاريم (**Santarem**)، ما لم يدر بخلد نابوليون قط: وهو إمكان تدريب البرتغاليين على مواجهة النار. رأى مسينا أيضاً أن خطة التخريب العام، التي قام بها ولنجتون في أنحاء البرتغال، كانت صدمة شديدة للنظام الفرنسي القاضي بتموين الجيوش

---

(1) انظر مصور أسبانيا للتحقق من ميادين حرب شبه الجزيرة.

الفرنسية بميزة البلاد التي تحتلها. لذلك كله نكص الغزاة على أعقابهم، ونجت البرتغال: إذ عبر مسينا في ابريل سنة ١٨١١ الحدود الأسبانية بجيش ساخط متمرد، مختل النظام، خالي الوفاض، بادي الأنفاض، بعد أن خسر ثمانية وثلاثين في المائة من رجاله؛ فبرهن بارتداده المشهود على مهارة ولنجتون وعدم حكمة نابليون، وعلى الفشل النهائي في محاولة إجبار البرتغال على دخول حلقة الحصار القاري.

كان يتهدد الحصار مصيبة أدهى من الطرف الأوربي الآخر نتيجة سياسة نابليون، التي أدت إلى إضعاف التحالف الفرنسي الروسي. وتفصيل ذلك أن القيصر كان غير مستريح من أول الأمر للمعاملة القاسية التي خصت بها بروسيا، ولتشجيع الآمال القومية بين البولنديين بانشاء دوقية فارسو. ثم إنه قبل التحالف مع فرنسا على رغم عدم رضاء الأشراف والدوائر التجارية في الروسيا، تحت تأثير شخصية نابليون من جهة، ولينتهي من جهة أخرى من مشادة مؤقتة قامت بينه وبين انجلترا. هذا وكان القيصر يعتقد أن مصادقة نابليون تعينه على تنفيذ أطماعه في الشرق. لكن سرعان ما أذهبت الحوادث الزبد جفاء، وشفت عما تحته من حقائق، إذ أخرت الثورة الأسبانية اقتسام تركيا إلى أجل غير مسمى. لذلك دخلت الروسيا حرب سنة ١٨٠٩ مضطرة، وعلى غير رغبتها ضد النمسا، وأمدت فرنسا بمساعدة فاترة. أدرك نابليون بسرعة أن أوربا على باب انقلاب سياسي. تفصيل ذلك أنه على الرغم من مكافأة القيصر على خدماته بجزء من غاليسيا، فإنه أعطى الجزء الأكبر من ذلك الأقليم، بمقتضى معاهدة شونبرون، إلى البولنديين بقصد الاعتماد عليهم في حالة وقوع حرب مع الروسيا. وقد عدت وزارة خارجية روسيا توسيع رقعة دوقية فارسو نذيرا بالويل، فطلبت من نابليون وعدا صريحا بأنه لن يوافق على

إحياء مملكة بولندا[1]. لكنه أبى أن يقطع على نفسه ذلك العهد، لاعتقاده باحتمال وقوع حرب مع الروسيا، حيث تكون الوطنية البولندية عونا له على النصر. لو كان نابليون بلا حليف في أوربا لسار في سياسته بشيء من الحذر، لكنه، وهوزوج ماري لويز، أحس بأنه ليس مضطرا للتراضي مع الروسيين.

لم يكن ليؤدي ذلك التوتر إلى حرب، لولا أسباب مالية جعلت من المحال على الروسيا البقاء على سياسة الحصار القاري: وهي أنه لما طلب نابليون من القيصر، في منتصف أكتوبر سنة ١٨١٠، أن يمنع من السفر جميع السفن الانجليزية الراسية في المياه الروسية والرافعة أعلاما محايدة، قوبل طلبه بالرفض، لأن الروسيا لا تستطيع الاستغناء عن حاصلات المستعمرات الانجليزية، ولأن المراكب التي تحملها لموانيها ترفع أعلاما محايدة. وفي أواخر سبتمبر سنة ١٨١٠، صدر أمر عال روسي لتسهيل دخول المراكب المحايدة إلى الموانئ الروسية، ولفرض ضرائب جمركية باهظة على الأنبذة والحرائر التي كانت أهم الصادرات الفرنسية. وبالاختصار رأى نابليون أن ذلك الانقلاب في نظام الروسيا المالي إعلان للعداء.

قال بعض المؤرخين إن الحرب كانت واقعة لا محالة، وألقى بعض آخر اللوم على القيصر. والحقيقة أنه لا سبيل لاتقاء الحروب، وإذا اعتبرنا أخلاق وأعمال مثيريها جزءا من نظام ثابت في الطبيعة. والدليل على ذلك أن ما نعلمه

---

(1) كانت بولندا حتى عام ١٧٧٢ مملكة مستقلة واقعة بين الروسيا والنمسا وبروسيا؛ وفي تلك السنة اقترح فردريك الأكبر ملك بروسيا على ماريا تريز إمبراطورة النمسا، وكترين الثانية قيصرة الروسيا إقفال باب التزاحم بين الدول الثلاث بتقسيم بولندا الضعيفة فيما بينهم، وبذا تم ما يسمى في التاريخ بتقسيم بولندا الأول الذي قضى على استقلال تلك الدولة الضيقة، حتى كانت الحرب العظمى، إذ أرجعت معاهدة فرساي إلى البلاد استقلالها، وهي الآن جمهورية.

عن نابليون وعن القيصر، وعن أحوال التجارة والمالية الدوليتين في ذلك الوقت، لم يترك مجالا للشك في قرب وقوع الحرب. إنما ليس في تغيير الرسوم الجمركية في دولة ما- في ذاته- ما يدعو إلى نشوب حرب: إذ كان للروسيا كل الحق، بعد أن رأت ما لحق ميزانيتها من العجز، في تعديل رسومها الجمركية إلى ما يناسب حاجاتها الداخلية؛ ولم يكن لنابليون أي حق في التدخل. فالتصادم لم ينشأ لأن القيصر كان يبحث عن مشكلة، بل لأن نابليون اعتبر أن أي تهاون في تنفيذ نظام الحصار القاري يكون بمثابة طعنة في إمبراطوريته ومركزه.

كانت حالة نابليون العقلية، سنة الاستعداد التي سبقت الحرب الروسية، برهانا قاطعاً على أنه لم يهتم لاجتناب الحرب. ذلك أنه لم يعتبر النضال القريب عائقا قد ظهر لتعكير صفو السلام الأوربي تجب إزالته، بل كان مملوءا حماسة وطربا يشبهان ما يجيش في صدر القرصان عندما يظهر له باب للسطو والنهب. قال نابليون في ذلك الصدد: "يريد الناس أن يعرفوا إلى أين نحن مسوقون. إنا عازمون على القضاء على البقية الباقية من أوربا، وعلى أن ننقض كاللصوص على لصوص أقل منا جرأة، لنصبح المسيطرين على الهند". وبدأ فعلا يجهز الحملات إلى القطر المصري ومستعمرة الرأس، وقال لناربون (**Narbonne**)[١] عن موسكو إنها محط رحال القاصد إلى الهند، وعن الحرب الروسية إنها ليست إلا الدور الافتتاحي لزحفه المظفر في أصقاع الشرق. ليس شيء من ذلك غريبا، فقد اعترف نابليون منذ عام ١٨٠٤ أنه مل أوربا العتيقة، والآن يقول إنه

---

(١) ولد الكونت لويس دي ناربون (**Comte Louis de Narbonne**) سنة ١٧٥٥، وهو أحد ساسة فرنسا المشهورين، ووزير الحربية في عهد لويس السادس عشر. وكان وزيراً قديراً، غير أن المشاحنات الحزبية بين اليعقوبيين والجيرونديين أدت إلى عزله سنة ١٧٨٤، وتوفي سنة ١٨١٣.

سيسيطر على العالم في ثلاث سنين.

مما أخذ على مقدرة نابليون في وضع الخطط الحربية، أنه حاول جديا فتح دولة كالروسيا، حيث تنهزم الجيوش الصغيرة، وتموت الجيوش الكبيرة جوعا بسرعة أكثر مما حصل في إسبانيا. غير أن حادثا سبق وقوعه قبل ذلك وترتب عليه نجاح، وليس من المستحيل وقوعه مرة أخرى فتكون نتيجته كسابقه، أي نصر كبير على الحدود يتبعه صلح سريع[1]. ولم يترك نابليون شيئاً في السياسة أو الحرب إلا استعد له؛ واعتمد على ضعف القيصر لتخليصه من صعوبات القتال في أرض كالصحراء. إلا أنه أخطأ في تقدير طباع خصمه، ولم يلبث أن وجد نفسه أمام خطة سداها اجتناب الحرب وحرمانه من القتال، ولحمتها استدراج جيشه الجرار إلى قلب مهمة قفر. ومع ذلك لم ينصت نابليون لصوت حكمته ورويته، وعزم على اقتفاء أثر الجيش الروسي، حتى وصل موسكو. ولو أن القيصر أنصت لمطالبه من موسكو، لما شهد العالم سلسلة المآسي الحربية الطويلة، التي لا تفتأ تذكر كلما ذكر نابليون.

غير أن الحملة الروسية سنة ١٨١٢ ستبقى دائما البرهان القاطع على ما ينتج عن انفراد دولة واحدة بالقوة الحربية في أوربا، بقطع النظر عن عيوب الخطط الحربية التي سار عليها القتال. ذلك أن الحرب لم تكن مسألة تنازع بين أمتين، بل مسألة تنازع للبقاء بين أطماع رجل واحد، وبين وطنية قوم أمجاد على جانب عظيم من التدين. أما الشعب الفرنسي، الذي لم يعلم بوقوع الحرب إلا بعد عشرة أيام من نشوب القتال، فقد تلقى الأخبار بالرضاء المعهود. في وسط كل ذلك وقف نابليون هادئا صامتا، معتمدا على أنه على رغم فشله في ضم

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى موقعة فريدلاند.

**السويديين والأتراك إلى جانبه، قد أعد الوسائل لإثارة حماسة البولنديين، وحصل من النمساء وبروسيا على جيش لحماية جناحي جيش بلغ عدده ستمائة ألف مقاتل، لم يسبق لنابليون أن قاد مثلهم، بعد أن جندهم بطرق لا تختلف عن غارات العبيد: إذ كان ثلثا عددهم من الأقاليم التابعة أو المتحالفة مع الإمبراطورية، لاشتغال زهرة جيوش فرنسا بالخدمة في إسبانيا. ومع ذلك فقد حارب من أجل نابليون ذلك الجمع المتنوع الوحدات، من ألمانيين وإيطاليين وهولنديين وبولنديين، وأراق الدماء تحت إمرة ضباطه الفرنسيين، ولم يحدث عصيانا، ولم يمتنع عن مواصلة القتال. ولا شك أنه لو فني الجيش الأعظم عن آخره في محاولته، فلا يرجع ذلك إلى الجنود أنفسهم، بل إلى أسباب نقشت نقشا عميقا على وجه الطبيعة، ليس في مقدور أي قوة بشرية مهما تعظم أن تتغلب عليها.**

**كانت خطة نابليون الأصلية مرتبة على استمرار الحرب سنتين، فيقاتل الروسيين في السنة الأولى في ليتوانيا[١]، ثم يتقدم في الثانية من سمولنسك إلى موسكو. بناء على تلك الخطة كان لديه متسع من الوقت للعناية بالاستعداد العناية الواجبة، ولأرجاء القتال حتى شهر يونيه، حين تكون سهول ليتوانيا صالحة لإمداد خيله بالعلف. ولو أن القيصر انتظر في الخنادق التي أشير عليه بعملها عند دريسا (Drissa)، تقليدا أعمى لخطوط ولنجتن في تورس– فدراس، لكسب نابليون الحرب. غير أن التفوق العددي العظيم، الذي امتاز به الجيش الفاتح، أضر بالفرنسيين، ونفع الروسيين، على عكس ما كان منتظرا. السبب أن القواد الروسيين، على رغم تطلعهم لمنازلة العدو، كانوا مضطرين إلى التقهقر دون الاشتباك مع جيش عدده أكثر من ثلاثة أضعاف القوات التي**

---

(١) انظر مصور الروسيا لمعرفة ميادين الحرب الروسية.

تحت إمرتهم. ثم أن جيش نابليون البالغ ٦١٠.٠٠٠ مقاتل، عدا سرايا المؤن، لم ينجح في حركات التطويق، ولم تكن فيه الخفة اللازمة للقيام بحركات المطاردة. والنتيجة أن الإمبراطور وجد نفسه في منتصف أغسطس في سمو لنسك، عند الطرف الشرقي من أرض جرداء قاحلة، وقد فقد من جيشه مائة ألف مقاتل، بدون ظفر حاسم يمكن التحدث به. وفي خرائب سمولنسك المحترقة، وفي مستهل الخريف، عزم نابليون على الزحف على موسكو. ذلك أنه فضل أن يقامر بكل ما لديه، فيخسره أو يكسب مثله، على أن يواجه تقهقراً غير مشرف، أو خسارة تعود على جيشه من سكونه في الشتاء الليتواني. عند ذلك وقف الجيش الروسي في طريق نابليون بقيادة كوتوسوف (**Kutusoff**) الوطني المحنك، الذي لبى صوت الأمة لإنقاذ الوطن، واشتبك في موقعة بورودينو (**Borodino**)، التي وصفها تلستوي وصفاً خالداً بأسلوبه البديع. ولقد فتحت مذبحة بورودينو لنابليون الطريق إلى موسكو، ولكنها لم تأت بشيء لإخماد العزيمة الصادقة في قلب عدوه. ثم ترك كوتوسوف موسكو، وانسحب إلى نقطة في الجنوب غير بعيدة عن العاصمة، أملا في الانقضاض فجأة على الجيش الفرنسي المفكك. غير أن استيلاء الفرنسيين على موسكو لم يجد شيئا، اللهم إلا أنه زاد حنق الروسيين، إذ وجد نابليون المدينة لدى دخوله خاوية على عروشها، وقد أسلمها للتدمير الغل الوطني، المتأجج في قلب حاكمها، بإشعال النار التي اندلعت ألسنتها من كل صوب، بشكل حير الكل في أمر مصدرها. وعلى الرغم من ذلك بقي نابليون في موسكو، بين كتلة كئيبة من الخرائب المحترقة السوداء، حتى ١٨ أكتوبر، أملا في أن يأتي الإسكندر صاغراً. ووضع في أثناء تلك الفترة قانونا للمماثل والملاهي الفرنسية. ولما بدأ يتقهقر كان الأوان قد فات بشهر كامل؛ إذ على الرغم من تأخر هطول الثلوج في ذلك الخريف، فإن ما هطل منها في وقت تقهقره كان كافيا لإيقاع خسائر فادحة بجيش بالي الأطمار، دامي

الأقدام، يجر أذيال الخيبة، مهر ولا أمام حراب القوازق. ولما كف الروسيون عن المطاردة عند نهر نيمن (**Niemen**)، الذي كان إذ ذاك الحد الغربي للإمبراطورية الروسية، كان الجيش الأعظم قد فقد خمسمائة ألف أو يزيدون.

مثلت الرواية الثانية في ألمانيا. وبينا يظهر فيها نابليون بدور عظيم خطير من أدوار حياته، إذا بها نفسها فصل مهم في تطور الأمة الألمانية. لا يخفى أنه أصبح من الضروري تكوين جيش كبير يقوم مقام الجيش، الذي قضى عليه قضاء مبرماً في الروسيا، لحماية المراكز البعيدة في الإمبراطورية. ولقد كان بين سكان فرنسا، البالغ عددهم ٣٦ مليوناً، ما لا يقل عن مليونين ونصف من الرجال الصالحين للخدمة الحربية، على رغم ما تكبدته فرنسا من الخسائر في الحروب الأخيرة. إلا أننا نتساءل كم من هؤلاء يمكن تجنيدهم بسرعة، وإعدادهم باللوازم الكاملة لحرب بعيدة المزار؟ أمكن نابليون، في أربعة شهور، وبدون الوسائل الحديثة التي تساعد على التعبئة السريعة، أن يعد للقتال في ألمانيا ٢٢٦.٠٠٠ مقاتل و٤٥٧ مدفعاً. وتم ذلك العمل، الذي يكفي لإذاعة صيت وزير من وزراء الحربية في العصر الحاضر، بعد حرب طاحنة، ومع العلم بأنه جزء من برنامج أعمال الإمبراطورية. أسرع نابليون بعد ذلك إلى الميدان، وباشر أعمالا حربية شاقة جدا. لأنه فضلا عن الجيش، الذي سيره القيصر للانتقام، كانت بروسيا قد انضمت لأعدائه، وأصبح معنى هزيمته خروج النمسا عن حيدتها وكف اتحاد الرين عن مساعدته.

كانت الواقعتان الأوليان انتصارين مزيفين لنابليون. ذلك أنه التقى عند لوتزن (**Lutzen**)[1] قرب ليبزج، ثم عند بوتزن (**Bautzen**) في سيليسيا،

---

(1) انظر مصور أوربا الوسطى للتحقق من ميادين القتال في تلك الحرب المدهشة.

بقوة تفوق جيشه عدداً، مكونة من البروسيين والروسيين، ولم يوفق في أحدهما إلى انتصار حاسم. لم يكن السبب في ذلك فتور مواهبه الخاصة، لأن بوادر الملل، التي ظهرت على نابليون في الأدوار الأخيرة لتلك الحرب، لم تتطرق إليه في الأدوار الافتتاحية. ولا سبيل إذاً إلى استنباط السبب مما تقدم. غير أن أول ما يجب على القائد الوصول إلى ساحة القتال بجيش يفوق عدوه عدداً، والإسراع إلى الاشتباك والفرصة في جانبه. قام نابليون بتلك العملية التي هي أصعب العمليات الحديثة في لوتزن وبوتزن خير قيام: فكان تخيره للأرض الصالحة، ومواهبه في القيادة، كما هو معهود فيه. وحدث، أثناء تراجع الفرقة الثالثة من جيشه أمام الهجوم عند لوتزن، أنه ركض بجواده على رأس حرس من الأحداث، فكان منظراً بديعا تجددت به شجاعة الفرقة المكسورة. ولا شك أن في حمل جيش من المجندين الأحداث، الذين كان تدريبهم الحربي الوحيد مكتسبا من سيرهم إلى الميدان، على تلقي ضربات تلك الواقعتين الهائلتين لدليلا على قوة تلك الإدارة الحديدية. أما الواقعتان فكانتا سجالا، لأن خيالة نابليون كانت من الضعف بحيث لم تقو على مطاردة الأعداء.

لم يكن لمثل ذلك الانتصار قيمة. وبالرغم من أن نابليون أجلى العدو عن سكسونيا وسيليسيا، وكسب موقعتين، كان عالماً أنه لا يمكنه إنفاذ ضربة قاضية بلا إمدادات كبيرة لاسيما من الخيالة، وأن قواده ملوا الحرب، وأن جيشه الذي لم يدرب بعد أنقصه الموت أو المرض أو الهرب إلى نصف قوته. ثم إنه لم يعد يعتمد على النمسا وصداقتها، واعتقد أنه إذا لم يتخذ احتياطات سريعة تهديدية، فمن المحتمل أن تصبح النمسا في صف أعدائه. وسبب ذلك الاعتقاد أن النمسا كانت مهتمة بتعبئة جيوشها في بوهيميا، بيد أنها كانت مستعدة لمسالمة نابليون إذا تنازل عن الولايات الألليرية وعن فتوحه البولندية والألمانية.

غير أنه رفض تلك الشروط، واعتبرها إهانة كبرى، وعزم على تسيير جيش من إيطاليا إلى لايباخ (**Laybach**)، حتى يعدل النمساويون عن سخافتهم. بناء على تلك الأفكار، وقع نابليون في ٤ يونيو في بلاسفتز (**Plaswitz**) على هدنة تستغرق شهرين. ولم يفكر في التنازل عن فتوحه؛ وإنما كان يبغي بتشجيع الكلام في الصلح كسب الوقت، لأعداد مجندين جدد يقذف بهم إلى حيث يهلكون. والدليل على ذلك ما جاء في مذكرات مترنخ، مبيناً كيف ألح السفير النمساوي على نابليون في ٢٦ يونيو في قبول شروطه وإقامة السلام في أوربا، وإلى رد نابليون بغضب. إذ قال: "ماذا تنتظر مني؟ أتنتظر أن الحق العار بنفسي؟ ذلك محال. سأعرف كيف أموت، ولكني لن أنزل عن شبر من الأرض. أن ملوككم الذين ولدوا في الملك يمكن أن ينهزموا عشرين مرة، ومع ذلك يؤوبون إلى عواصمهم. أما أنا فلا قبل لي بذلك، فقد بلغت الملك عن طريق الحرب". ثم سأله مترنخ ماذا هو صانع، إذا حل بجيشه المكون من المجندين الأحداث، ما حل بالجيش الأعظم أثناء الحملة الروسية. فعلت وجه الإمبراطور صفرة، ثم عبس وقال بعنف: "إنك لست جندياً، ولا تعرف ما يجيش بصدر الجندي. لقد نشأت في ميادين الحرب، ومثلي لا يعبأ إلا قليلا بضياع حياة مليون رجل". وبينا هو يلفظ هذه الكلمات بصوت عال قذف بقبعته في زاوية من زوايا الغرفة. عند ذلك قال له السفير، بعد ما استأذن بالخروج: "مولاي على ملكك العفاء! لقد كنت أشعر بذلك عندما وفدت، وها أنا واثق كل الثقة لدى ارتحالي عنك".

أجمع النقاد الحربيون على ضرر عقد الهدنة؛ لأنها وإن مكنت نابليون من جمع الإمدادات، كانت أكثر نفعاً لأعدائه. الدليل أنه لما ابتدأت الحرب في أغسطس، كانت النمسا والسويد قد انضمتا إلى صف الحلفاء، فأصبح جيشهم

٨٦٠.٠٠٠ يقابلهم ٧٠٠.٠٠٠ من الفرنسيين، بما فيهم من الجنود الأسبانية والإيطالية. وإنا لنتساءل عما إذا كان في استطاعة أي قائد حازم في ظروف نابليون أن يتنبأ في يونيه بتلك النتيجة. تلك مسألة تفتح مجالا للتشكك، وكل ما نعرفه بالتأكيد، هو أن الحرب عادت والظروف أقل ملاءمة لنابليون، فكانت جيوشه كتلة قوامها أحداث غير مدربين، وكان أعداؤه أوثق تماسكا وأعز نفراً، ولم تكن عزائمهم بأقل قوة مما كانت قبل.

تقع درسدن عاصمة سكسونيا على نهر الألب، على مسافة عشرين ميلا شمال الحدود الجبلية لبوهيميا. هناك عزم نابليون على الوقوف بجيشه، لا لحماية خط نهر الألب فقط، بل ليتمكن من المحافظة على ولاء حلفائه السكسونيين، وثقة حلفائه البولنديين، ولاعتقاده أنه بوقوفه في ذلك المكان الملائم يقابل جمع الهجمات، التي يوجهها إليه الجيوش الثلاثة المتحالفة الزاحفة، من بوهيميا وسيليسيا وبراندنبرج. لكنه اعترف فيما بعد بسوء اختياره، لقرب درسدن من الجبال، حيث يمكن تمزيق الجيش الذي يتقهقر إلى بوهيميا، قبل أن يتمكن من الوصول إلى المضايق والممار ليحتمي فيها.

كانت واقعة درسدن مفعمة بالنكبات حقاً. إذ اتفق الحلفاء على أن يجتنبوا ما استطاعوا ملاقاة نابليون نفسه، وأن يهاجموا قواده بنشاط كلما التقوا بهم. نجحت تلك الخطة، وذاقت فرق القائدين أودينو[١] وناي[٢]، اللتان كانتا

---

(١) ولد شارل يكولا أودينو (Charles Nicolas Oudinot) سنة ١٧٦٧. وهو من أعظم قواد الإمبراطورية المعدودين في فرنسا، وقد ظهر في مواقع عدة على البروسيين والنمساويين، وحضر واقعتي أسترلتز وينا، وكان السبب في انتصار الفرنسيين في واقعة فريد لاند.

(٢) ولد ميشيل ناي (Michel Ney) سنة ١٧٦٩. وهو من أعظم قواد الإمبراطورية النابليونية، ومن أشدهم إخلاصاً لنابليون، الذي منحه وسام الشرف لانتصاره انتصاراً مبيناً في واقعة فريد

أرسلتا لمقابلة جيش الشمال، مرارة الهزيمة عند بلدتي جروس بيرن ( Gross Beeren) ودنفتز (Dennewitz)، حيث وقعت واقعتان خالدتان في التاريخ الحربي البروسي، برهنتا على بعث العظمة البروسية من جديد. وفي الطرف الشرقي من ميدان الحرب الواسع هزم بلوخر قائد جيش سيليسيا القائد الفرنسي ماكدونالد عند نهر الكاتزباخ (Katzbach). أما الواقعة الوحيدة التي شذت عن سلسلة الهزائم الشنيعة المتقدمة، فحدثت في أول أدوار القتال. والسبب أن زحف الجيش البوهيمي على درسدن في ٢٢ أغسطس، كان مبنياً على الاعتقاد الراسخ أن المدينة ستضطر للتسليم، نظراً لرداءة تحصينها، قبل أن يتمكن نابليون من الرجوع لحمايتها، ولانشغاله ضد بلوخر في سيليسيا. إلا أن الحوادث برهنت على خطأ ذلك التقدير، لأن شفارزنبرج (Schwarzenberg) كان بطيء الزحف بقدر ما كان نابليون سريعا في الرجوع. وفي أثناء الواقعة، التي نشبت خارج أسوار درسدن، كان الدفاع أحسن حالا، لوجود القيادة في يد الإمبراطور: فبعد حرب استغرقت يومي ٢٦ و٢٧ أغسطس ارتد الجيش البوهيمي إلى الحدود. ولو تابع نابليون ذلك الظفر بنشاطه القديم، لأصبحت درسند في صف ينا، كواحدة من انتصاراته الحاسمة. ولكن التاريخ حافل بأمثلة حوادث عظيمة، كان للصحة والعافية أثر فعال وخطة مقطوعة في تكييفها: أظهر نابليون في أول أدوار تلك الموقعة من ونته

---

لاند، وسماه أشجع الشجعان (Le Brave des braves). ويلاحظ أنه لما نفي نابليون إلى جزيرة إلبا سنة ١٨١٤ خضع ناي للبوربونيين؛ ولما فر نابليون إلى فرنسا، بعثت الحكومة ناي على رأس أربعة آلاف جندي، للقبض على ولي نعمته القديم. غير أنه سلم جنوده لنابليون، وانضم إليه، وحارب معه في واترلو. ثم لما انهزم نابليون في تلك الواقعة، حاول ناي الهروب إلى سويسرا، فلم يفلح. وقبض عليه. وحكم عليه بالإعدام، أمام مجلس الأعيان الفرنسي، وأعدم رمياً بالرصاص سنة ١٨١٥.

وسرعته وقوة عزيمته المعهودة، فرجع بالحرس إلى درسدن بسرعة تسعين ميلا في اثنين وسبعين ساعة. وفي اليوم الأول للواقعة، أجلى جيشا مؤلفا من خمسة عشر ألفا عن مراكزهم بقوة تقل عن نصف ذلك العدد، فاقتصد اقتصاداً حكيما في صفوف الاحتياطي. وفي اليوم التالي، أخذ الهجوم الفرنسي يقل عن نشاطه العادي، على رغم وصول إمداد عظيمة إلى الإمبراطور أثناء الليل، حتى أن قلب الجيش النمساوي ظل سليما، في حين عزم شفارزنبرج على التقهقر، عندما وصلت إليه الأخبار، في الساعة الخامسة صباحا، تنبئه بهزيمة الجناح الأيسر من جيشه. فلو أن نابليون في أوج قوته، لكان في مقدوره مطاردة فلول النمساويين، وإلحاق العطب بصفوفهم، لأن الجيش البوهيمي كان الجيش الرئيسي للحلفاء، وكان يحتوي على نمساويين وروسيين وبروسيين، ويرافقه ملوك تلك الدول الثلاث، وفي إلحاق الدمار به تأثير على أوروبا لا يمكن تقديره. كان الواجب أن يكون ذلك التدمير الغرض الأصلي من تلك الحرب، لاسيما وأن الحظ والمهارة اجتمعا لنابليون، وأفلح بعد لأي في إكراه شفارزنبرج على التقهقر. وكان قمينا به هنا ألا يترك أي فرصة لتحويل التقهقر هزيمة، والهزيمة تسليما. لكن الأمطار هطلت كالسيل يوم ٢٧، وأصاب نابليون برد، وأنهكه التعب بعد بقائه على صهوة جواده خمسة أيام. فلما ابتدأ العدو يلين تحت ضغطه اعتبر أن مهمته انتهت، وأرسل في طلب جواده. ثم ركب إلى درسدن والمطر يتساقد من معطفه الرمادي. وفي الساعة السابعة مساء كتب إلى القائد برتييه أن العدو لم يتقهقر بعد، وأن كل القرائن تدل على أن واقعة عظيمة ستنشب في اليوم التالي، وعلى رغم ما أتى به الغد من تكذيب النبوءة، ترك نابليون أمر المطاردة للقواد، وبقى في درسدن، في حين أن فرقة القائد فاندام (**Vandamme**)، التي أرسلت لقطع خط الرجعة على العدو، أحيط بها. ودمرت عند كولم (**Kulm**).

وفي أواسط سبتمبر نقص عدد الجيش الفرنسي في سكسونيا من ٤٠٠.٠٠٠ إلى ٢٥٠.٠٠٠ مقاتل، وتفشي الهروب، وغصت المستشفيات بالمرضى والجرحى، وازدادت مصاعب التموين بسرعة خطيرة، ولاسيما بعد هزيمة ناي في ٦ سبتمبر. وكان الأمل الوحيد أن يقع أحد الجيوش المتحالفة في شباك نابليون، فيقضي عليه قبل أن يصل الاثنان الآخران لإنقاذه. غير أن ذلك الأمل كان بعيد الاحتمال، وظل الإمبراطور شهراً يروح ويغدو بجيشه متخذا درسدن مركزاً له، فأجهد نفسه وجيشه ابتغاء الالتحام مع العدو، ولم يوفق إلى بغيته. هنا ابتدأ يستولي عليه شيء من التردد، فلم يقطع بالتقهقر؛ لكنه أكره آخر الأمر بفعل الحلفاء. ذلك أن بلوخر خرج من سيليسيا في الأسبوع الأخير من سبتمبر، وعبر نهر الألب، واتصل في ٧ أكتوبر بالجيش البروسي السويدي تحت قيادة برنادوت، منعطفاً من الشمال إلى خط رجعة نابليون، بينما برز شفارزنبرج من الجبال البوهيمية، ودار دورة بطيئة من الجنوب لمقابلته. رأى نابليون لما علم بتلك الحركة التطويقية، أن يرسل مورا إلى ليبزج لإيقاف شفارزنبرج، إذ يحاول هو بالجيش الرئيسي أن يلحق الدمار بجيش بلوخر. لكن سرعان ما ظهر أن بلوخر لا يقع في الشرك. لذلك عكست الخطة، وفي يوم ٢ أكتوبر، بعد أيام انقضت في حيرة مؤلمة، عزم نابليون على الانضمام بقوته إلى مورا، وعلى هزيمة الجيش البوهيمي الزاحف من الجنوب على ليبزج، قبل مجيء بلوخر وبرنادوت لنجدته. دخل الإمبراطور ليبزج ظهر يوم ١٤ أكتوبر؛ غير أنه انقضى يومان قبل أن يكون جيشه مستعدا للقتال في صبيحة اليوم السادس عشر.

واقعة ليبزج من الملاحم التي يحارب فيها جيش ذو عدد محدود جيشاً تصل إليه الأمداد تباعا بعد ابتداء الواقعة، فيظفر الأخير ظفرا مبيناً بسبب

تلك الإضافات المتتابعة لكتلته. بدأ نابليون القتال بجيش يبلغ عدده ۱۹۰.۰۰۰، ضد خصم عدد رجاله ۲۰۰.۰۰۰ على ذلك كان عنده في اليوم الأول، وبالأخص في الساعات الأولى من النهار، فرصة صادقة في النجاح. فلو أنه وجه قواته إلى ليبزج– كما كان واجبا عليه أن يعمل– بحيث يلتحم بجيش شفارزنبرج يوم ١٥، لقابل جيشا يقل عن جيشه بكثير، لعدم تكامل جموعه، ولكان من المحتمل الانتصار؛ أو لو لم يترك نابليون ۳۰.۰۰۰ مقاتل في درسدن، تحت قيادة الجنرال سان سير (**St. Cyr**)،– تلك الخطوة التي رفضها مرة لنفسه– لتحسنت آماله في النجاح. مع ذلك، وعلى الرغم من فتور الهمة، وتضارب الخطط، التي امتازت بها الأدوار الأولى في زحفه غربا، فإن ذكاءه عاد إليه. وفي ١٢ أكتوبر سبق النمساويين، ووقف برجاله في الميدان بالسرعة المعهودة. إلا أنه أخطأ التقدير في مسألة حيوية، ملخصها أنه بينما كانت الحرب مستعرة في القرى الواقعة جنوب ليبزج ضد شفارزنبرج، سمع نابليون فجأة دوي مدافع من شمال المدينة، فركض إلى مصدر الصوت، ووجد مارمون مشتبكا مع بلوخر البروسي الهرم، الذي تقدم بسرعة نحو ليبزج من الشمال الغربي، وابتدأ يصب جام ناره على المراكز الفرنسية بنشاط، حتى أصبح مستحيلا على نابليون أن يسحب رجلا واحدا لاستخدامه في الملاحم العنيفة ضد شفارزنبرج، التي اعتمد عليها للحصول على تفوق حاسم.

كان يوم ليبزج يوما عصيبا، ومذبحة لا تنسى. وماجن الليل على نابليون حتى كان رجلا مقهوراً، إذ فشل في تحطيم قلب الجيش البوهيمي، أو بالحري أخفق في اختراق أي نقطة في دائرة أعدائه. ولا غرابة في ذلك، فإنه بينما بلغت خسائر نابليون مبلغا جسيما وصل شفارزنبرج مدد قوى بعد الظهر. في مثل ذلك الظرف تعد الضربة غير الحاسمة بمثابة هزيمة، والقائد الحازم هو الذي لا

يضيع دقيقة في تخليص جيشه من مأزق يزداد خطورة ويأسا من وراء التأخير. ولشد ما كانت دهشة القواد لما لم يصدر نابليون أي أمر للتقهقر. وفي اليوم التالي- يوم أحد ماطر- كتب نابليون وهو في فسطاطه للإمبراطور النمساوي يقترح هدنة، ويشير إلى التسليم. إلا أن أعداءه أدركوا أنه أصبح في النهاية في قبضتهم، فعولوا على ألا تفلت الفريسة من أيديهم، ورفضوا المفاوضات. وما استؤنف القتال في اليوم التالي، وهو الثامن عشر، كان كل الاحتياطي النمساوي في الميدان؛ وكان برنادوت قد زحف بجيش يبلغ ٦٥.٠٠٠، لمساعدة بلوخر في الجهة الشمالية. ثم انجلى الجيش الفرنسي كرها عن ليبزج، بعد أن طوقته جيوش متفوقة، وبعد الاستبسال في الدفاع عن كل شبر من الميدان. وفي الساعة الرابعة بعد الظهر أصدر الإمبراطور أوامره للتقهقر العام، وظلت الجيوش الفرنسية تتدافع طول تلك الليلة نحو المدينة، لكي تعبر نهر إلستر (**Elster**) في صباح اليوم التالي. وفي ذلك اليوم وقعت الطامة الكبرى، واندفع سيل الهاربين في هرج لا يوصف نحو الجسر الوحيد. هناك قابل القائد شاتو (**Chatcau**)، حوالي الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم، رجلا "غريب البزة" وسط جمع صغير، وعليه سيما أهل المدينة مطرقا رأسه، سابحا في بحر من الفكر، يردد أنشودة "ما لبروك ذهب يحارب"[١]. ذلك الرجل الغريب البزة هو الإمبراطور بعينه، يردد الأنشودة القديمة، بينما يمر سراعا في مخيلته ذلك المنظر المؤلم منظر جيشه المحطم المفلول.

لم يبق بعد ليبزج إلا التسليم للظافر، لأن هيكل الإمبراطورية تقوض من

---

(١) أنشودة فرنسية مشهورة مطلعها:

**"Malbrouck s'en va-t'en guerre'**
**Mironton, mironton, mirontaine".**

جراء تلك الهزة المركزية. إذ هبت ألمانيا لتطرح نير نابليون، وانقلب البافاريون من أحلاف إلى أعداء، وحاربوا الجيش المتقهقر؛ وأعلنت هولندا ولاءها لآل أورنج، وعقدت نابلي معاهدة مع النمسا؛ وتبدد حلم المملكة الفرنسية في إسبانيا، لما طارد ولنجتن القائد سولت على جبال البرانس. وكانت الرغبة في الصلح شديدة في جميع أنحاء فرنسا، لأن الطبقات الغنية والمتنورة من الأمة نظرة منذ سنين لأعمال نابليون بعين القلق والاستهجان. أما وقد فني جيشان عظيمان في سنتين، وتعطلت المصانع، وخلت خزائن الحكومة، وأصبحت الدولة مهددة بالغزو من الخارج، أحس كل عاقل إحساساً شديداً بالنقمة الناتجة عن العبودية السياسية. ثم على الرغم من أن كتلة الفلاحين والجنود كانت تميل لفكرة الإمبراطورية، فإن الطبقة المفكرة من الأمة بدأت تستسلم للآراء الحرة، وتنادي بصلح مشرف، وبسيطرة الأمة على السياسة العامة. وقد صرحت بلا وجل الهيئة التشريعية، المكونة من رجال عاديين من الطبقة الوسطى، بعدم ثقتها بالحكومة، وبرغبتها في الحرية الدستورية، فأوقف نابليون المجلس الجسور عند حده بتأنيب عنيف. بيد أن الدول المتحالفة لمحت أنه لم يعد بين نابليون وفرنسا وفاق.

هناك صنف من الناس يأبى التفكير أو الاعتراف بالإهانة. ولكن نابليون اعترف في ساعاته الهادئة[1] بأن اتحاد الرين كان "مشروعا رديئا" وبأن الحصار القاري كان "وهما فارغا" وبأن الإمبراطورية العظمى نعيم زال ولا يمكن استرداده أبدا. ولكن عزة نفسه أبت أن تقبل تحكيم ضميره لما قال يوما، وهو إمبراطور، لمجلس الدولة، وهو يحاوره: "أتريدون الهبوط من السماء التي رفعت فرنسا إليها، وتصبحون ملكية بسيطة مرة ثانية بدلا من إمبراطورية فاخرة؟" عز عليه أن يترك

(١) وهو في جزيرة سنت هيلانة.

فرنسا أضعف مما جعلها، أو مما وجدها.و لما جالت في فكره مسألة تخلي أحلافه استولت عليه سورة الغضب، وأقسم أن لابد من الانتقام، إذ قال: "لتحرق ميونخ، ولتحرق على يدي"[1]. وكان عازما في حالة اضطراره إلى التسليم ألا يستكين للإهانة زمنا طويلا، بل يستعد في ظرف عامين للحرب ثانيا. وما دام هناك بصيص نجاح في ميدان الحر فسيتجنب ذلة المصالحة، ويعتمد على الغلطات الحربية التي يحتمل وقوع أعدائه فيها، وعلى احتمال تخلي النمسا، وعلى البسالة التي تنفجر عندما ترى الأمة الفرنسية بلادها تغزى. لذلك كانت خطته التسويف والمماطلة في المفاوضات، حتى يظهر أمام الشعب الفرنسي بمظهر المستعد للصلح، بينما يتربص للنكاية بأعدائه عند أول فرصة.

كان ذلك التصلب في طبعه هو السبب في خرابه، لأن خطة الحلفاء لم تطلب في الأصل تنازل نابليون عن العرش، أو تغيير الأسرة المالكة. والدليل على ذلك أن الحلفاء بعثوا، في نوفمبر سنة ١٨١٣، من فرنكفورت رسولا إلى باريس ليعرض المفاوضة مع نابليون على قاعدة الحدود الطبيعية لفرنسا: وهي نهر الرين وجبال الألب وجبال البرانس. وفي ٤ فبراير سنة ١٨١٤، بعد أن اجتيحت فرنسا، ووقعت أول هزيمة بالجيوش المدافعة، كان في مقدور نابليون أن يحفظ عرشه، لو أنه قبل التنازل عن بلجيكا وسافوي، والموافقة على حدود الملكية القديمة. كان الواجب على نابليون أن يصيخ لصوت فطنته الشخصية، ويستمع لنداء الواجب الوطني لعقد الصلح.

حدث بعد هزيمة نابليون عند لاروتيير (**La Rothiere**)[2]، أن ظهر

---

(1) ميونخ عاصمة بافاريا التي انقلبت على نابليون بعد واقعة ليبزج.

(2) كانت الهزيمة التي لحقت بنابليون عند تلك البلدة الواقعة في فرنسا نفسها، على نهر أوب (**Aube**) أحد فروع السين، في فبراير سنة ١٨١٤، هزيمة منكرة، إذ وقع من جيشه ٣٠٠٠

على نابلوين كأنما قر رأيه على أن يطاطئ الرأس: إذ خول القائد كولانكور (Caulaincourt)، في ٤ فبراير، سلطة غير محدودة للمفاوضة مع الحلفاء. لكنه كان في صبيحة اليوم التالي ممتداً على أرض غرفته، يرقش مصورا بالدبابيس. والسبب أنه بلغه في المساء أن الحلفاء قسموا قواتهم إلى فرق، وأن شفارزنبرج سيزحف بالجيش الرئيسي إلى باريس، متبعا الطريق الجنوبي المحاذي لنهر السين، بينما يسير بلوخر على رأس قوة أصغر، مكونة من البروسيين، شمالا إلى وادي المارن. فلما جاء ماريه، وزير الخارجية، للتوقيع على التعليمات الصادرة للسفير، لمح بريق الحرب في عين سيده الذي قال: "إني عازم على هزيمة بلوخر". لكن على الرغم من تحقيق ظنه، وإحراز ثلاثة انتصارات باهرة، فإن هزيمة بلوخر أفقدت نابليون عرش فرنسا.

كانت الحرب الدفاعية التي قام بها نابليون في وديان السين والمارن[1] موضع الإعجاب، إذ ظهر فيها كيف يتمكن جيش صغير، يدير حركاته قائد ماهر واسع الخبرة، يتحرك على خطوط داخلية، من إلحاق الهزيمة تلو الهزيمة بعدو يفوقه عددا، تعوزه قيادة موحدة. من ذلك الانقضاض السريع على بلوخر عند تروي (Troyes)، والثلاث الضربات المتوالية عند شامبوبرت (Champaubert) ومونميراي (Montmirail) وفوشان (Vauchamps)، التي أفنت مقدمة الجيش البروسي على طول نهر المارن، ثم الانتصار على الطلائع الجنوبية عند مونتيرو (Montereau). كانت كل تلك الأعمال التي استغرقت من ١٠ إلى ١٧ فبراير كافية للدلالة على أن

---

في الأسر، وخسر ٧٣ مدفعا، فضلا عن ٥٠٠٠ جندي بين قتيل وجريح من جيش يبلغ عدده أربعين ألفا فقط.

(1) انظر مصور فرنسا للتحقق من ميادين تلك الحرب الهائلة.

الإمبراطور لم يفقد شيئا من فنه القديم. ولكنها على رغم إيقافها لتيار التقدم مؤقتا كانت غير كافية لتقرير انتصار أحد الفريقين. عند ذلك عزم أحد أعداء نابليون أن يفتح لجيشه طريقا مهما يكلفه الأمر. ذلك هو بلوخر، الذي لم يكن نابغة، بل جنديا غليظ القلب أميا، يتأجج قلبه الوطني بالانتقام للمذلات التي لحقت بروسيا. فلم يأبه للاضطراب الذي ساد المعسكر النمساوي، ووقف لا يتزعزع، لأنه كان من هؤلاء الذين لا يستكينون للهزيمة، بل تقدم ثانية نحو الشمال الغربي، وانضم إلى جيش بروسي روسي قادم من بلجيكا تحت قيادة بولو (**Bulow**). وبتلك الإمدادات صد بلوخر نابليون إلى كراؤون (**Craonne**) ولون (**Laon**)، فأصبح بذلك في مركز يسمح له إما بالزحف على باريس وإما بالانضمام إلى الجيش الجنوبي. اختار بلوخر الطريق الأخير، وبينما تقهقر نابليون شرقا، ليهدد خطوط مواصلات العدو، اصطدم عند أرسيس– سير– أوب (**Arcis- Sur- aube**) بالجيش الرئيسي لأعدائه. ومن المستحيل على ثلاثين ألف مقاتل، قد أعياهم التعب، أن يظهروا على مائة ألف كانوا نسبياً على أتم استعداد. لذلك صُد نابليون، لكنه على الرغم من ذلك، واصل سيره شرقا بضعة أيام، بدت فيها قدرته العظيمة. إذ يقول بعض النقاد باستحالة إتباع أية خطة أكثر ملاءمة من الخطة التي هيأها نابليون في الأيام السابقة مباشرة لواقعة أرسيس: لأنه بجمعه حاميات الألزاس واللورين، يمكنه تكوين جيش قوي يقطع به مواصلات الحلفاء، ويزيد في انقسامهم. إلا أن الخطة نفسهاأهملت، وبمجرد سماعه أن الغزاة يزحفون على باريس عزم على الاشتباك في آخر واقعة له قرب العاصمة، لكن العدو سبقه إليها بثلاثة أيام، وسلمت لقيصر الروسيا قبل أن يتمكن نابليون من دخولها.

ولما حيل بين نابليون وبين العاصمة على ذلك الوجه ارتد إلى قصر

فونتنبلو (**Fontainebleau**) قرب باريس، متشوقا– لو وافقه قواده– إلى استمرار النزاع ضد سلام أوربا، والمصالح الحيوية في فرنسا. لكن القواد سئموا حالة قل فيها الرجاء، فأرادوا الاطمئنان على مستقبلهم قبل ضياع الفرصة. وليس من الممكن أن نعتبر هؤلاء الرجال القادرين المخلصين مجرمين، لما أشاروا على نابليون بالتنازل، لعلمهم أن ملوك أوربا أرادوا ذلك، وأن مجلس الشيوخ قرر نفس الطلب، وأن جمهور الباريسيين متفق معهم. وكان أملهم أن يسمح للإمبراطور بالتنازل لولده، وأن تبقى الأسرة النابوليونية الحاكمة في فرنسا. لكن القيصر، الذي استولى تاليران على أذنه للتشفع لآل بوربون، قرر أن يطلب من نابليون التسليم بلا شرط. ثم قبل القواد القرار بعد أن حاولوا تعديله بلا جدوى. وفي ٦ ابريل ألحوا على سيدهم لكتابة تنازل عن عرشي فرنسا وإيطاليا؛ وبعد ذلك بخمسة أيام أمضيت معاهدة تمنح نابليون السيادة على جزيرة إلبا، وحرساً خاصا، ومخصصا ماليا. قيل أن نابليون تجرع سما ليلة رحيله من فونتنبلو إلى جزيرة إلبا. ولكن التاريخ يكذب تلك الرواية، فمثل ذلك القنوط لم يكن من خلق رجل عرك الدهر، ودرس كثيراً من مصادفات الأقدار، وشعر في أشد الأيام محنة أن عمله لم ينته بعد، إذ قال يوما: "سأظل دائما رجلا فوق مستوى البشر".

بينما يسير نابليون جنوبا مخترقا ولاية بروفانس الملكية تشيعه اللعنات، إذا برجل هرم شرس دميم مثقل بداء النقرس، أقام مدة في مزرعة جميلة بين المراعي الخضراء في مقاطعة بكنجها مشير بانجلترا، يتأهل لتولي الحكم في باريس[١].

---

(١) يشير المؤلف إلى لويس الثامن عشر ملك فرنسا بعد نابليون.

## الفصل العاشر

# الدور الأخير

تعتبر الحلقة التالية في حياة نابليون أغرب حوادث التاريخ. مضى نابليون في أوائل تلك الحلقة عشرة شهور يحكم مملكته الصغيرة، ثم ما لبث أن أنسل فجأة بطريق البحر، ونزل إلى شاطئ فرنسا على رأس ١٢٠٠ رجل، وسار متجنبا أهل بروفانس الملكيين، مخترقا الممار الجبلية حتى جرينوبل (**Grenoble**)، ومنها أسرع إلى باريس دون وقوع حرب أو مناوشة، وبدون تبادل إطلاق النيران، أو إراقة قطرة من الدماء، فوصلها وتسلم مقاليد حكم الدولة. وهنا لا يفوتنا أن نذكر أن الجيوش التي أرسلت لرده عن باريس انضمت إليه بتأثير شخصيته السارحة. وتفصيل ذلك أنه لما وقف رجال الفرقة الخامسة في طريقه عند ممر لافريه (**Laffray**) الضيق، في الجهة الجنوبية لبلدة جرينوبل، جاء إليهم نابليون فاتحا معطفه الرمادي، وطلب إليهم أن يطلقوا النار عليه، قال: "أيها الجنود! يمكنكم أن تطلقوا ناركم. ألا ترون في عاهلكم؟ ألست قائدكم القديم؟ ليس الطمع هو الذي حدا بي إلى هنا، وإنما طلبني من جزيرة إلبا الخمسة والأربعون رأساً المتولية أمر الحكم في باريس، وقد وافقت الثلاثة الدول الأولى في أوروبا على رجوعي". عمى الناس عما ورد في قوله من الأضاليل، وقابلوه على طول الطريق بحماسة شديدة. فلو كان الأب البار بشعبه، وقضى السنين الطوال في السهر على حل ضائقة العسر عن الفقراء، لما كان من الممكن مقابلته بأكثر تهليلا، كأنما نسى الناس فجأة ضرائب أيام الحرب والحصار، وضحايا النفوس. وبالاختصار افتتن الناس على اختلاف

أصنافهم وطبقاتهم بحديثه معهم، لاسيما عند ما خرج من عربته ليعانق حداداً جمهوريا كهلا، وليحاور تلميذا في تاريخ بلده؛ وليتكلم مع أديب باهتمام عن ترجمة سترابون[1]، ومع بعض المحامين عن عزمه على إصلاح قوانينه. ولما تسربت إلى باريس أخبار تقدمه الناجح، وعدم القبض عليه، انقلب غضب الملك قلقا وفزعا وقنوط. وما وصلت عربة نابليون إلى قصر التويليري، مساء ٢٠ مارس، الممطر حتى كان الملك الهرم قد غاب وحاشيته عن باريس، وترك المدينة لرجال الإمبراطورية.

لا يرجع السبب في تلك المعجزة إلى مؤامرة مدبرة. وإنما فر نابليون من إلبا، لأنه كان يحفظ بين جوانحه من النشاط ما لم يكن في الحسبان، ولم يجد في الأمور التافهة الخاصة بمملكته الصغيرة ما يستنفد ذلك النشاط. ونجح في الوصول إلى باريس، لأن طبقتين من الناس– الجنود والفلاحين– كانتا تودان أن تريا الحكومة البوربونية تجازي جزاء وفاقا على ما اقترفت من أعمال. وليس معنى ذلك أن حكومة لويس الثامن عشر كانت فاسدة أو مستبدة، بل أن سياستها كانت قائمة على توطيد السلام وتخفيض النفقات، فمنحت بمقتضى دستور مكتوب نصيبا من الحرية السياسية والمدنية، أكبر مما تمتع به الناس على عهد نابليون. إذن لا يحق لأحد أن يتهمها بسوء النية، أو تعطيل نهوض الأمة. لكن عدم استنادها من أول الأمر إلى تأييد الأمة، جعلها تثير الشعور القومي ضدها، بسبب سلسلة من الأعمال غير الحكيمة. فمثلا أغضبت الجيش بإتباع

---

(1) ولد إسترابون (Strabon) الجغرافي الإغريقي الشهير حوالي سنة ٦٤ ق.م بمدينة أماسيا (Amasia) بإقليم بونتس (Pontus) جنوبي البحر الأسود. ومات في أول حكم الإمبراطور طيباريوس (Tiberius). وله مؤلفان عظيمان أحدهما تاريخي، ويشتمل على ٤٧ كتابا لم يصلنا منها إلا القليل، والآخر جغرافي ويشتمل على ١٧ كتابا، وصف فيها بلاد الدولة الرومانية، وأتى بنبذ عن أخلاق أهلها وعاداتهم ونظام أممهم وتقاليدهم.

سياسة متطرفة في تقليل النفقات، وأغضبت الفلاحين بترويج الإشاعات القائلة بأن نظام توزيع الأرض، الذي أحدثته الثورة، سينسخ عما قريب.

بإزاء تلك الحكومة الرجعية الجامدة، التي تولتها عصبة من الملكيين، لاح نابليون كبطل الثورة الفرنسية: إذ علم كل فلاح، أن "الأونباشي القصير" لن يطلب منه أن يرد الأرض التي كان يملكها الملتزم ورئيس الدير قبل الثورة؛ وأنه مهما تكن الخسائر التي تنتج عن حكمه، فلا خوف على الأقل من القسيس والمهاجر في ظل نابليون، ابن الشعب، الذي يفهم عقولهم، ويعرف ما تكنه قلوبهم، والذي كانت صورته معروفة في كل دار، وأحاديث انتصاراته تروى وتردد في كل مكان، حتى أصبح مثل شارلمان جزءاً من الأساطير القومية، يدعى بألقاب إعزاز طريفة، وتؤلف حول شخصه قصص لا تحصى. أما حكامها المستجدون فكانوا على عكس ذلك، لا تعرف عنهم فرنسا سوى أنهم عاشوا خمسة وعشرين سنة منفيين محتجين على أعمال الثورة الفرنسية، وقد عميت أبصارهم عما أتته الإمبراطوري من الأعمال الجليلة. وعلى الرغم من كل ما أوتي شاتوبريان (**Chateaubriand**)[1] من البلاغة في أسلوبه، الذي يأتي في المرتبة الثانية بعد أسلوب روسو أكبر ملوك البيان في النثر الفرنسي- فإن الأسرة القديمة لم تصادف هوى في قلوب الناس: إذ كرهها البعض لسالف تاريخها، واحتقرها البعض الآخر لماضيها السيئ، وخشيت الأكثرية ما عساه أن

---

([1]) ولد فرنسوا رينيه شاتوبريان (**Francois Rene Chateaubriand**) سنة ١٧٦٨. هاجر من فرنسا إبان الثورة الفرنسية، وظل عدة سنين يعيش عيشة ضيقة في لندن ثم تمكن من العودة لباريس سنة ١٨٠٠، واشتغل بالكتابة والتأليف، حتى أصبح ممن يشار إليهم بالبنان. وفي أثناء ذلك دخل في خدمة نابليون، ثم استقال من منصبه بسبب إعدام الدوق دانجيان، وأخذ يتنقل بين دول الشرق. ولما سقط نابليون رجع إلى فرنسا، ثم عين سفيراً لفرنسا في انجلترا في عهد لويس الثامن عشر، ومات عام ١٨٤٨.

تعمل إذا هي تسلمت مقاليد الأمور. أجل! لم يكن هناك خوف على الدستور في عهد لويس الثامن عشر؛ لكن الكونت دارتوا أخا الملك، والوارث للعرش، كان متعصباً دينياً ضيق الأفكار، مبدؤه السياسي الحكم المطلق، الخاضع لأشد طبقات الكنيسة تعصبا.

وجد نابليون ضالته في تلك الحالة، التي كان عليها الرأي العام من الريبة والسخط. لذلك كان يجوس خلال الديار، يتكلم أحيانا بلغة اليعقوبيين، وأحيانا بلغة الأحرار، مما يروق سامعيه. فكان يقول للفلاحين إنه يقف حياته على درء خطر المبادئ الإقطاعية والدينية؛ ويقول لأهل المدن إنه فاتح اعتزل الحرب، قد ندم على ما فعل، وامتلأ قلبه بحب الحرية والسلام. ولما وجد أن لا شيء يخشاه الناس بوجه عام أكثر من ذكر الحرب مرة أخرى، صور نفسه للناس رجلا ارتكب بلا شك أغلاطا أوحى بها الطمع، غير كلف في الحقيقة بحياة كلها فتوح خارجية، أو بسياسة تخمد أنفاس الناس في الشئون الداخلية. ثم أبان أن المثل الأعلى الذي سعى لتحقيقه مدة حياته، هو تكوين اتحاد أوربي بقيادة فرنسا، وأنه ليس من العدل أن يحكم الناس عليه بما أقامه من النظم في وسط مشاغل الحرب وأهوالها، أو على السياسة التي كانت قسوتها نتيجة ضرورية لظروف متقلبة. وقال إنه كان يتوق لجعل فرنسا سيدة أوربا، لكن النكبات التي حلت به علمته أن ذلك المطمع الذي سبقه إليه الكثيرون فوق المستطاع. على أن جزءاً لم يتحقق بعد من برنامجه، لا يزال ممكنا إنفاذه، وهو إعطاء فرنسا تلك النظم الحرة، التي تأجلت بسبب صعوبات الحرب. بتلك التصريحات، التي فاه بها، حمل كارنو (**Carnot**) الجمهوري القديم على قبول وزارة الداخلية، ودعا على الفور بنجامان كونستان (**Benjamin Constant**)، كبير علماء شرائع الأمم، من حزب الأحرار، لرسم دستور جديد.

لو كان في استطاعة الإمبراطورية أن تتمشى حقا مع الحرية والسلام، لما وجدت الأمة الفرنسية حكومة أوفق لحاجاتها منها. وليس أدل على ذلك من أنه بعد وفاة نابليون، بزمن طويل، ظلت نظم الكنيسة والقوانين النابليونية والجامعة كما تركها مهندسها الأعظم، كما ظلت التقاليد الفرنسية نابوليونية تحت حكم ولاة نبذوا نبذ النواة ما للإمبراطورية من الحقوق. إنما الذي قلل من عظمة نابليون هو الشك، الذي تحول اعتقاداً راسخاً بين الفرنسيين، أن الحرب والاستبداد جزءان لا يتجزآن ولا يتغيران من طبيعة نابليون. وقد كان محو ذلك الاعتقاد أول ما يمليه الحزم؛ ولذلك عزم نابليون على إحاطة مبادئه الحرة الجديدة برضى الأمة من طريق الاستفتاء العام، وبالهيبة التي تنتج عن الاحتفال في باريس بنزوله على إرادة الأمة. وفي أول يونيه، وسط جمع كبير دُعي إلى شان دي مارز (**Champs de Mars**) بباريس، أقسم الإمبراطور يمين الطاعة للدستور الجديد، الذي ضمن حرية الصحافة، ومسئولية الوزراء، والحكم النيابي. ولكن الرسميات والاحتفالات لا تغير الحقائق، التي منها أن وجود مجلس نيابي حر ووجود نابليون أمران لا يتفقان. والدليل على ذلك أن الإمبراطور على الرغم من قبول القانون الإضافي كان عازماً– كما نوه في سنت هيلانه– أن يحل الهيئات النيابية في أول فرصة يوفق فيها للانتصار في الميدان.

ثم إذا كان هناك أمل أن أوربا سترضى رضاء سلبياً عن رجوع نابليون، بعد ما قضت السنين الطوال، وبذلت المهج، في سبيل إخضاعه، فقد أضحى الأمل سراباً: إذ لم تكد أنباء فراره تصل إلى فينا، حتى اجتمع المفوضون عن الدول الثمانية الكبرى، وقرروا أن نابليون أصبح طريد القانون. بعد ذلك مباشرة تعاقدت بريطانيا والروسيا والنمسا وبروسيا على أن تجهز كل منهما ١٥٠.٠٠٠ جندي إلى الميدان، وإبقائهم تحت السلاح "حتى يصبح بونابرت

عاجزاً تماماً عن تكدير صفو الأمور من جديد". بيد أن نابلوين على الرغم من ذلك كله، لم يعدم الأمل من فصل انجلترا والنمسا عن حلقة أعدائه. وقوى ذلك الأمل في قلبه علمه أن مشادة وقعت في مؤتمر فينا بخصوص مصير بولندا وسكسونيا، كانت الروسيا بإزائها في جانب، وانجلترا والنمسا وفرنسا في جانب آخر. وعلى الرغم من تسوية المسألة بسلام، حسب نابليون أن الشعور بالتباغض والارتياب لم يزل قائما. على ذلك أرسل إلى النمسا وبريطانيا كتبا يؤكد رغبته في إقامة السلام، وقبوله الحدود المقتضبة، التي أصبحت لفرنسا، فلم تقبل إحدى الحكومتين وعوده. الحقيقة أنه لو كانت هناك فرصة لتغير موقف النمسا، فإن تلك الفرصة ضاعت في ابريل، لما قام يواقيم مورا ملك نابلي من تلقاء نفسه، وخرج من نابلي، وغزا الولايات البابوية، داعيا الأمة الإيطالية إلى الثورة، وإلى قبوله ملكا على إيطاليا كلها.

فصل في النزاع بين نابليون وأوربا في بلجيكا، حيث اجتمعت طلائع جيوش الحلفاء، المكونة من جنود انجلترا وهولنديين وبلجيكيين وألمانيين تحت قيادة الدوق ولنجتن، ومعها جيش بروسي بحت، كان بلوخر مصدر قوته، وجنيسناو (**Gneisenau**) رأسه المفكر. كان من المحتم أن يطلب نابليون عدوه في البلجيك، حتى ولو اضطر إلى ذلك بجيش قليل العدد. إذ من الحمق من الوجهة الحربية، ومن الخطر من الوجهة السياسية، أن ينتظر في وسط فرنسا، حتى تعبر جيوش الحلفاء الحدود. ولقد كان خير الطرق بلا شك أن يهزم نابليون البروسيين والانجليز، قبل أن تتأهل جموع الروس والنمساويين للنزول إلى ميدان القتال. وعلى الرغم من أن القوة، التي كانت معه، لم تزد كثيرا على نصف عدد جنود العدو- إذا استثنينا الجنود التي خصصت للاحتياطي ضد قيام فتنة في لافنديه ولحماية الحدود- فإن هذا الجيش على صغره كان مكونا

من جنود لا يقلون في دربتهم ولا في نفسيتهم، عن أي جيش قاده نابليون. ولذلك لم يكن مستحيلا أن يهزم نابليون بذلك الجيش أعداءه هزيمة منكرة، وأن يستولي على الأراضي المنخفضة، وأن يثبت ثقة فرنسا به. لذلك أيضاً أعدت منشورات محررة في بروكسل، لإرسالها من هناك بعد الانتصار.

لم تنشر تلك المنشورات. غير أنه لو انتصر نابليون في واترلو، لما أمكن تلافي النكبة، التي لم يكن لوقوعها بد. ذلك أن الكتلة العامة لجيوش الحلفاء– وكانت القوات المرابطة في بلجيكا جزءاً صغيراً منها– بلغت ٨٠٠.٠٠٠ مقاتل، تظاهرهم قوات احتياطية لا حد لها من الأمم الأوربية الحاقدة، حيث كان الشعور شديداً، لدرجة أن فرنسا مهما تحافظ على حماستها المتأججة، التي جاشت بها إبان الثورة الفرنسية، ومهما يملك نابليون من النشاط النادر، الذي ملأه في حداثته، فمن المحتم أن يخسر الحرب. هذا وقد تغيرت الحال غير الحال؛ ففي سنة واترلو كانت فرنسا (إذا استثنينا جيشها المنظم الصغير) أمة زالت عنها الأوهام؛ وكان نابليون اليوم غيره بالأمس. نعم أنه ظل مدهشاً في نشاطه وحسن تصريفه؛ لكنه كان أقل ثقة بنفسه، وأقل شدة، وأقل تدقيقا عنه من قبل. ثم لم يكن من المنتظر أن تشايعه أمة أصبح الرأي السائد بين الطبقات الوسطى فيها المناداة بالسلم والحرية بمثل ما كان يشايع به قديما من الثناء. ولم يكن الرديف، الذي جنده بسرعة من البحارة والشرطة والحرس الأهلي وحرس الجمارك، يصلح لإمداد جيش منظم– مع العلم أن نابليون لم يستطع، على رغم ما بذل من المجهود، أن يحصل على أكثر من ٨٤.٠٠٠ رجل. ظاهر إذن أن واقعة واترلو ليست إحدى الوقائع العالمية الحاسمة، التي لو كانت نتيجتها غير ما كانت لتغير مجرى التاريخ. فإن نابليون كان رجلا مقهوراً قبل أن تدوي أول طلقة. غير أن الواقعة معروفة بحق بأنها الحادثة الوحيدة، التي وجد نابليون نفسه

في مواجهة الأستاذ الانجليزي العظيم في حرب المشاة، وبأنها الواقعة التي انتهت عندها سيادة فرنسا في أوربا، والتي ختمت ذلك النزاع الطويل، الذي قام بين مبادئ الثورة الفرنسية وبين التقاليد الأرستقراطية والكنيسة، الموروثة عن القرون الوسطى.

كان التفوق العددي الهائل في جيوش الحلفاء هو العامل الأكبر في واقعة واترلو، حيث كان من المستحيل على الفرنسيين الانتصار على قوات بلوخر وولنجتن مجتمعة. على ذلك كانت خطة نابليون أن يقطع وسط الخط البروسي الانجليزي، الممتد على طول الحدود البلجيكية، وأن يقضي على ما يأتي في طريقه من أيهما. امتازت الأدوار الأولى في تلك الخطة بالسرعة والتكتم والدقة: ففي مساء ١٤ يونيه اجتمع الجيش الفرنسي بجوار شارلروا[١]، في حين أن القوى الانجليزية والبروسية ظلت مبعثرة على خط يبلغ طوله مائة ميل، من لييج إلى غنت. هنا حدث تأخير لم يكن بذي خطر كبير على آمال نابليون في النجاح، إلا أنه كان ذا قيمة عظيمة لأعدائه. ذلك أن عبور نهر السامبر (**Sambre**)، الذي وجب القيام به بعد ظهر يوم ١٥، لم يتم إلا ظهر اليوم التالي. والنتيجة أن نابليون لم ينزل للقتال في اليوم السادس عشر، حتى كان الحلفاء قد أحاطوا بالخطة علما. فأسرعت الجيوش الانجليزية والبروسية للاتصال بعضها ببعض لمنع تقدمه؛ ولم يحن ظهر ذلك اليوم إلا وقد جمع بلوخر عند ليني (**Ligny**) ثلاثا من الفرق الأربع المؤلف منها جيشه (البالغ عدده ٩٠.٠٠٠ تقريباً)؛ بينما أرسل ولنجتون الإمداد بسرعة إلى كاتربرا (**Quatre Bras**)، على مسافة ستة أميال تقريباً غربي الخطوط البروسية، الممتدة على طريق بروكسل- شارلروا. هذا وكان الدوق قد قابل القائد البروسي في الصباح،

---

(١) انظر مصور رقم ٧- البلجيك- للتحقق من ميادين آخر الحروب النابليونية.

ووعده بالتقدم لمساعدته إن هو لم يهاجم.

من خصائص القائد العظيم أن يهيمن على حركات جيشه، بحيث يتمكن بسرعة من أن يجعل مركزه ملائما لأي ظرف من الظروف الفجائية المحتمل وقوعها. رجع نابليون إلى معسكره عند شارلروا الساعة الثامنة مساء اليوم الخامس عشر منهوكا، لبقائه على صهوة جواده سبع عشرة ساعة. غير أن قلبه دق طربا، لعلمه أنه نجح في عبور نهر السامبر، وأنه رد إلى الوراء المراكز العسكرية الأمامية، التابعة لفرقة زيتن (**Zieten**) البروسية، والتي أرسلت لستر موقف الحلفاء. وفيما عدا ذلك لم تكن لدى نابليون معلومات وثيقة، سوى أن الفرق البروسية الأربع مبعثرة على مساحة واسعة، وأنه لا يحتمل التئامها بسرعة للقتال في اليوم التالي. ولذلك قسم جيشه قسمين، نصب القائد ناي على الجناح الأيسر، والقائد جروشي (**Grouchy**) على الجناح الأيمن، وأبقى تحت قيادته احتياطيا يمد به أحد الجناحين حسبما تستدعي الظروف. صدرت الأوامر إلى القائد ناي ليكون على تمام الأهبة للتقدم نحو بروكسل عن طريق شارلروا، وأعطيت تعليمات إلى الجناح الأيمن للزحف على فلوريس (**Fleurus**)، ولمهاجمة من يجد هناك من البروسيين. اعتقد نابليون أن البروسيين لن يتيسر لهم الوقوف أمام زحف جروشي بأكثر من أربعين ألف مقاتل، وأن ناي سيلقي صعوبة قليلة في اختراق المراكز الأمامية الشرقية، التابعة للجيش الانجليزي الهولندي. ومن ثم تتحول الحال العامة بطبيعتها إلى أحسن ما يرام. إذ بعد تحطيم الفرقة البروسية غير المحمية عند فلوريس، بفضل تفوق الفرنسيين، يتحول الإمبراطور غربا لمساعدة ناي، ويدخل بروكسل في صبيحة اليوم السابع عشر، ومن هناك يتقدم للقضاء على الجيش المختلط تحت قيادة الدوق ولنجتن.

وعلى الرغم من إخفاق ذلك التقدير إخفاقا تاما، بسبب سرعة التئام

جيش بلوخر، فإن خطط كانت موضوعة بحيث يمكن تسويتها مع كفالة نجاحها أكثر في الأحوال الجديدة. ذلك أنه لما وجد نفسه عند ليني أمام الجيش الرئيسي البروسي، المؤلف من تسعين ألف مقاتل– لا أمام جزء منه مكون من أربعين ألفاً– قر رأيه على تطويق عدوه؛ وأرسل إلى ناي يأمره أن يترك بجيشه، أو على الأقل بجزء منه، الطريق المؤدية إلى بروكسل، وأن ينقض على جانب البروسيين ومؤخرتهم؛ وقرر أيضاً أنه بينما يقوم ناي بذلك، يشتبك هو على رأس ستين ألفاً مع البروسيين ليحيط بجناحهم الأيسر، ثم ينقض على جناحهم الأيمن وقلبهم. بدأت تلك الخطة في الساعة الثالثة، حين قال الإمبراطور لجيرار (**Gerard**)[1]: "من الممكن أن يقرر مصير الحرب بعد تلك اللحظة بثلاث ساعات. وإذا نفذ ناي أوامري بدقة، فلن يفلت من يده مدفع واحد من مدافع الأعداء".

كاد يتقرر مصير الحرب في ميدان ليني، الذي كان آخر انتصارات نابليون وأشدها في العنف، مما نقش في قائمة الملاحم العنيفة التي اشترك فيها. إذا انجلى البروسيون عن مراكزهم في الساعة العاشرة "مدحورين اندحاراً لا يتصوره العقل"، كما تنبأ لهم الدوق ولنجتن. غير أنهم ظلوا قوة منظمة، قادرة على التقهقر بتماسك وانتظام. وعند الغروب وجه نابليون فرقة الحرس نحو قلب الجيش البروسي، حتى أجلاه عن الميدان. لكنه لم يحرز النصر المنشود، ويرجع السبب في ذلك إلى سلسلة طويلة من الغلطات اضطرته إلى الاشتباك في

---

([1]) ولد الكونت إتين موريس جيرار (**Comte Etienne Maurice Gérard**) سنة ١٧٧٣. دخل الجيش متطوعا وأظهر مهارة فائقة. ولما عاد نابليون من جزيرة إلبا، قاد جيرار فرقة في ليني وجرح في وافر. وبعد سقوط نابليون، أبعدت الحكومة الجديدة جيرار عن فرنسا، ولم يتمكن من العودة إليها حتى عام ١٨١٧. وظل جيرار حتى عين مارشالا في الجيش الفرنسي. سنة ١٨٣٠، واختاره الملك لوي فيليب وزيراً للحربية. وتوفي في باريس عام ١٨٥٢.

المعركة، دون أن تصله مساعدة رجل واحد من مركز قيادة ناي. وأول تلك الغلطات أن القائد ناي الشجاع المملوء نشاطا، الذي كان أركان حربه عبارة عن ياور عسكري فقط– تقدم على طول طريق بروكسل بتأنيه المعهود، الذي جر عليه تلك المرة النكبات. فبدلا من اقتحام مراكز العدو في كاتربرا، في الساعة التاسعة أو الحادية عشرة، حين كان أمير أورانج لا يملك سوى ٧.٨٠٠ مقاتل تحت إمرته، فإنه أجل القتال إلى ما بعد الظهر، حين وصلت الإمداد لعدوه، الذي بلغ عدده أربعة أمثال عدده في المساء. ولذلك كان ناي غارقا إلى منكبيه في كاتربرا، لا يستطيع أكثر من منع ولنجتن عن مساعدة بلوخر. على الرغم من ذلك كان هناك عامل لو استخدمه نابليون لنال النصر الكامل الذي ابتغاه لتقرير مصير القتال. ذلك أن فرقة القائد ديرلون (**D'Erlon**) المؤلفة من عشرين ألفاً، والتابعة لقيادة ناي، كانت تسير متأخرة نحو كاتربرا، حتى أتى في الساعة الرابعة وربع الساعة ياور عسكري من قبل نابليون بتعليمات مكتوبة، تأمر الفرقة بالسير فوراً نحو ليني. اتجهت الفرق الأربع شرقا، حتى أصبحت على مرأى من نابليون في مكان غير منتظر. إلا أن أمراً من ناي وصل إليها يلح في طلب العودة فوراً إلى كاتربرا. أطاع ديرلون أمر رئيسه المباشر، فدل بذلك على عدم تبصره؛ وبذلك مضت تلك الفرقة، المؤلفة من عشرين ألفا، في طريقها جيئة وذهابا بين الميدانين، دون أن تعمل شيئا؛ وكان من المحتمل أن تقرر مصير القتال في أحدهما.

كانت قيادة نابليون في الميدان حتى تلك النقطة ممتازة بعزم ومهارة. فقد أدهش أعداءه بالسرعة والتكتم في زحفه، وأصاب موضع الضعف في مكان الاتصال بين الجيوش المعادية، وأجلى البروسيين بعد أن حملهم خسارة خمسة عشر ألفا. إلا أن عدم التمكن من القضاء على بلوخر، قضاء سريعا مبرما،

يرجع إلى أسباب لم يكن لنابليون عليها سلطان، مثل زداءة التعاون بين فرق ناي، وغلطة ديرلون، وفساد أعمال أركان الحرب في كلا الجناحين. لكن في صبيحة ١٧، وقع نابلوين في غلطة خطيرة، لا تقل عن تراخي ناي في زحفه إل كاتربرا، أو غياب ديرلون عن ميدان ليني. ذلك أنه استنتج بناء على خليط من التهاون واعتلال الصحة والإعياء، لا بناء على تمحيص الحقائق تمحيصا كافيا، أن البروسيين لم تعد فيهم قوة للقتال، وأنهم يجرون أذيال الخيبة في حيرة مرعبة تاركين ولنجتن، متتبعين طرق مواصلاتهم عن طريق نامور ولييج. لذلك تخلل حركاته الحربية ساعات كلها سكون كان فيها حتفه: فمثلا طاف راكبا حول ميدان القتال لترويح النفس، وتحدث مع قواده عن الحالة السياسية في باريس، بل وفكر في تسريح جيشه للراحة يوما كاملا. ولم يصدر التعليمات النهائية إلى جروشي إلا عند الظهر، ليتعقب البروسيين على رأس ٣٣.٠٠٠ مقاتل و٦٩مدفعا؛ ولم يذهب لنجدة ناي إلا الساعة الثانية بعد الظهر. فلو أنه قام بذلك الزحف قبل ذلك بأربع ساعات، لأمكنه مهاجمة الدوق ولنجتن بجيش يبلغ ضعف عدد جيش الدوق. إنما الذي حصل أنه جاء متأخراً قليلا ليفسد حركة التقهقر، الذي سببه المطر الهاطل كالسيل، وما قامت به الخيالة البريطانية من الأعمال الباهرة[1]. في تلك الليلة الممطرة من يوم السبت اتخذ الدول مركزه على مون سان جان (**Mont St. Jean**)، وهي أكمة واقعة على مسافة أحد عشر ميلا جنوب بروكسل، اختارها الدوق بثاقب نظره لصلاحيتها لأساليبه في الدفاع. وفي مواجهته، على بعد ١٣٠٠ ياردة، مرتفع معروف باسم لابل

---

(١) علم الدوق ولنجتن بواقعة ليني في الساعة السابعة صباحا. أما نابليون فلم يصله شيء من أخبار القائد ناي، ولم يكن في مقدوره حينئذ، بعد تلك الواقعة، أن يتحرك قبل الساعة الثامنة صباحا. (المؤلف).

ألالايانس (**Le Belle Aliance**)– نسبة لاسم مزرعة واقعة على قمته– كانت تصل طول الليل كتائب متتالية من جيش متعب جائع يقوده نابليون. إلا أن الإمبراطور كان أثقل مدفعية وأكثر رجالا: إذ كان يمكنه أن ينصب ٢٤٦ مدفعا مقابل ١٨٤، وكان يمكنه أن يسير ٧٤.٠٠٠ مقاتل مدربين مقابل ٦٧.٠٠٠ منهم أربعة وعشرون ألفا فقط من الانجليز.

حصل الاتفاق على الدفاع عن مون سان جان بعد التحقق من إرسال مساعدة بروسة. وفي باكورة يوم ١٧، تلقى ولنجتن خبرا مؤداه أن البروسيين يتقهقرون، لا شرقا كما كان يتوقع نابليون، بل شمالا في اتجاه الوافر (**Wavre**)– وهي قرية على بعد ثلاثة عشر ميلا تقريبا من ميدان واترلو. رد الدوق على الضابط، الذي حمل إليه ذلك النبأ، أنه إذا أمكن الاعتماد على المساعدة، ولو بفرقة بروسية واحدة، فإنه يظل في انتظار نابلوين عند مون سان جان، ويشتبك معه في القتال، وإلا يكون مضطرا لتضحية بروكسل، وللتقهقر إلى ما وراء نهر الشلت. ثم وردت رسالة، في ساعة متأخرة من مساء السبت إلى مركز القيادة البريطانية العليا، أدت إلى تقرير الانتظار. ومؤدي تلك الرسالة، أن جيش بلوخر يتجمع عند الوافر، وأن في إمكان الدوق أن يعتمد على مساعدته. وعلى ذلك لم يكن من سوء التقدير، مع اعتبار الأوحال التي تملأ مفترق الطرق، أن تصل المدافع البروسية حوالي الظهر، فتصوب نيرانها على الميمنة الفرنسية، وتخفف الضغط الواقع على المراكز البريطانية.

كان ولنجتن هو المنتظر في تلك اللعبة، بينما كان الدور على نابليون. وكانت الخطة الانجليزية تنحصر في الدفاع عن أكمة مون سان جان، حتى تصل الفرقة البروسية الوحيدة، التي انتظرها ولنجتون، والتي قال بدقته المعهودة إنها الشرط الأساسي للنجاح. غير أن نابليون تأخر حتى الساعة الحادية عشرة

والدقيقة الخامسة والثلاثين صباحا لبدء الهجوم، مع أن الحالة كانت تستلزم الاهتمام بالدقائق والثواني. وقد عُلل ذلك التأخير بوصول بعض الإمداد الفرنسية بعد الأوان من جهة، وبحالة الأرض، التي جعلتها الأمطار أوحالا تعذر منها نقل المدفعية والخيالة من جهة أخرى. ومهما تكن أهمية تلك الاعتبارات، فإن نابليون لم يكن ليحفل بها، لو أنه ظن أن تسعين ألفا من البروسيين، على مسيرة أربع ساعات من معسكره، قد عقدوا النية على الانضمام لولنجتن في أثناء اليوم. إلا أن نابليون، على الرغم من وصول خبر من القائد جروشي في الساعة الثانية صباحا ينبئه باحتمال زحف البروسيين نحو الوافر، استبعد احتمال إفساد بلوخر عليه كل حركاته الحربية، على اعتقاد أن الجيش البروسي قوة قهرت وخارت عزائمها، لا تزيد على أربعين ألفا، ولت الأدبار، وشطرت شطرين: انساب الأول شرقا نحو لييج، والثاني شمالا نحو بروكسل. وعلى ذلك أرسل في الساعة العاشرة صباحا رسالة إلى جروشي لمهاجة البروسيين عند الوافر؛ ولم يهلع كثيراً لما عرف، عند الساعة الأولى بعد الظهر، أن فرقة بولو القائد (**Bulow**) البروسية على مدى البصر: إذ عدها فرقة واحدة لا تزيد على ثلاثين ألف مقاتل، وليس وراءها ما يظاهرها؛ فلو تحرك جروشي بسرعة من جمبلو (**Gembloux**)، لأصبحت تلك الفرقة بين نارين ولقضى عليها القضاء الأخير. في ذلك الوقت قال نابليون للقائد سولت: "كان بيدنا في هذا الصباح تسعون بنطا في صالحنا، والآن لا يزال عندنا ستون مقابل أربعين".

بذلك التفاؤل الذي يترتب طبعا على الشجاعة والحيلة، والذي يكون أحيانا حليف الرأي العنيد، أزدري نابليون ولنجتن ورجاله. فقد قال لسولت، الذي أسف لفصل قوة كبيرة كتلك التي ذهبت تحت قيادة جروشي، لأنه عرف الانجليز في الحروب الأسبانية: "أؤكد لك أن ولنجتن قائد رديء وجيشه رديء

مثله". ثم أنه لم يصدق ري (**Reille**)، وهو قائد آخر شهد الحرب الأسبانية، في قوله أن المشاة البريطانية لا يؤثر فيها الهجوم المباشر، ولا يمكن التغلب عليها إلا بالخدع العسكرية؛ بل عقد النية على استخدام خطط المفاجأة السريعة، التي خدمته في كثير من وقائعه، والتي توجت بالنصر حديثا عند ليني؛ فيباغت الصفوف الانجليزية الضعيفة، ثم يخترق قلب الجيش البريطاني بهجوم أمامي عام، بعد أن يصليه ناراً حامية من مدفعيته المركزة. ولقد كان المزمع أن يستعين نابليون في إنفاذ تلك الحركة بعملية تضليل قصيرة نحو مزرعة هوجومنت (**Hougoumont**) الواقعة بقرب خط تقدم الجناح البريطاني الأيمن. وبعد أن أتم نابليون كل شيء، جلس إلى خوان صغير وأمامه مصوراته، وتوقع أن يوم الواقعة الستين من وقائعه سيكون يوما مجيدا.

اتخذت واقعة واترلو إجمالا شكل سلسلة من الهجمات الهائلة، تظاهرها نار حاصدة من المدافع عن يمين قلب الخط البريطاني ويساره، وسلسلة من المقاومات المستبسلة من الجيوش البريطانية والألمانية. حصل في توجيه تلك الهجمات المشهورة غلطتان مهمتان، ربما كان نابليون بريئا من ارتكابهما: ذلك أن الهجوم العظيم الذي بدأته فرقة القائد ديرلون على قلب الجيش الانجليزي، في الساعة الواحدة بعد الظهر، كان مكونا من أربعة أقسام ضيقة الجبهة عظيمة الطول (بالنظر إلى أن القسم كان مكونا من ثمانية أورط مصطفة الواحدة تلو الأخرى). فكانت فرقة ديولون هدفا بديعاً لنيران المشاة البريطانية، في حين كانت قوتها على إجابة تلك النيران غير وافية. غير أنه جرت عادة نابليون أن يترك الحركات الحربية الصغيرة لقواده، ولذلك فالنظام الرديء الذي سارت عليه هجمة ديرلون، غلطة يسأل عنها القائد دون رئيسه. أما الغلطة الثانية فكانت أشد خطراً من الأولى، إذ ترتب عليها كل الأدوار النالية في القتال.

وتفصيل تلك الغلطة أنه في منتصف الساعة الرابعة، والمشاة البريطانية لم تتزعزع بعد من مراكزها، أسرع ناي مخترقا عرض الوادي- لو صح أن نسمي المنخفض القليل العمق الواقع بين المرتفعين بذلك الاسم- على رأس قوة كبيرة من الفرسان لمهاجمة المشاة في أرضهم. حين إذ ذاك ابتدأت سلسلة من الهجمات الراكبة العنيفة، التي ضاعت سدى، ضد البسالة المتينة التي أظهرتها المربعات البريطانية والألمانية. ومعنى ذلك أن الهجمة الأولى كانت بلا شك سابقة لأوانها، ولم تعززها قوات كافية. إلا أن هؤلاء الذين يعتبرون أن كلمة تخرج من فم نابليون، أو حركة حربية يأمر بها، منزهة عن الخطأ يعتقدون أن الهجوم ابتدأ بدون علمه.

كسبت الواقعة بفضل مهارة ولنجتن وشجاعته، وثبات الجيوش الانجليزية والألمانية، وبفضل زحف البروسيين، الذين بدأوا يؤثرون في مراكز نابليون بعد الساعة الرابعة مباشرة، ولم تأفل شمس اليوم حتى حولوا ارتداد نابليون هزيمة منكرة. ولو أن جروشي توخى السرعة، لأمكنه تأخير الزحف البروسي، غير أنه كان من المستحيل عليه منعه: إذ كان عند بلوخر ما يكفي لمحاصرته، وفوق ذلك فرقتان لمساعدة ولنجتن. ولكن هل كانت تتغير نتيجة الحرب، لو أن نابليون اقتصر على إرسال ثلة من الفرسان بدل فرقة كاملة لتعقب العدو المتقهقر من ليني؟ أو لو أنه أرسل الحرس القديم أكثر تبكيرا ودفعة واحدة؟ ذلك محتمل، ولكن لا يمكن الجزم بما كان يحصل. ربما ارتكب نابليون غلطات ولكن عقله كان صافياً ونشيطاً كعادته. وعلى رغم توعكه صبيحة يوم ١٧، كانت أعماله في أثناء القتال فوق طاقة رجل عادي: فإنه استيقظ يوم واترلو- وكان يوم أحد- الساعة الواحدة صباحا، وطاف بالمواقف الأمامية؛ ثم عاد في الساعة الثالثة، فسمع تقارير الكشافة والعيون، وأصدر أوامر جديدة. وفي

الساعة التاسعة ركب إلى ميدان القتال، حيث بقي حتى الليل مشرفا على مجرى الحركات الحربية، مصدرا الأوامر بمهارة وعزم ومثابرة. ولما انكسر الجيش انكسارا لا يجبر، بذل كل ما في وسعه سدى ليلم شعث الهاربين؛ ثم ركب مسرعا، حتى وصل إلى شارلفيل (**Charleville**)، الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي. ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن نابليون لم يسترح أكثر من أربع وعشرين ساعة، وأنه بقي ممتطيا جواده أكثر من سبع وثلاثين ساعة، أثناء أربعة الأيام الحرجة التي استغرقها القتال.

ظل نابليون يغالب القدر المحتوم حتى بعد واترلو، وذلك من خصائص نفسه الوثابة. كتب من فيليبفيل (**Philippeville**) إلى أخيه يوسف يقول إنه مازال من الممكن تعبئة ٣٠٠.٠٠٠ رجل، وإنه مع المثابرة والشجاعة يحتمل إنقاذ كل شيء. وفي النشرة التي حررها لجريدة المونيتور (**Le Moniteur**) يوم ١٩ يونيه، صور النكبة كنتيجة فزع مجهول السبب في ساعة الانتصار. ولما وصل باريس يوم ٢١ يونيه، كان أول ما جال برأسه أن تمنحه الهيئة التشريعية سلطة ديكتاتورية لإنقاذ الدولة. لكنه لم يعد رجل أيام انقلاب برومير. ولما أصرت الغرفتان التشريعيتان على تنازله في الحال لم يقو على الامتناع. وفي ٢٢ يونيه وقع على التنازل؛ وبقي بضعة أيام في باريس، والرعاع تهتف له عند قصر الأليزيه (**Elysee**)، يفكر هل يثير الروح اليعقوبية، ويذكي نار فتنة داخلية. إلا أن النفس الإمبراطورية، التي جعلته قديما يزدري الرعاع، أنقذته من خاتمة غير مشرفة كهذه. وبينما هو ينسحب إلى قصر ماليزون (**Malmaison**)، ابتدأ فكره يتحول إلى حياة جديدة في أمريكا يصرفها في الكتابة والإنشاء. وفي ٢٥ يونيه كتب رسالة وداع إلى الجيش الفرنسي، تعد من أعلى صحف الأدب، إذ ضرب فيها بأسلوبه النثري الجلي على نغمة الثقة بالنفس وعواطف الرجولة. ثم

جاءت الأنباء، بعد ذلك بأربعة أيام، بأن الروسيين تحت قيادة بلوخر صاروا على مقربة من باريس، فاتخذ طريقه نحو البحر، بعد أن رفضت الحكومة المؤقتة بخشونة ما عرض هو عليها من خدمة فرنسا كقائد تحت أوامرها.

ولما رأى أخيراً أن الأرض لم تعد آمنة، وأن البحر يموج بالطرادات الانجليزية، أظهر فضيلة اقتضتها الضرورة، وكتب إلى الأمير القيم في انجلترا كتابا يعلن "أنه أتى مثل ثيميستوكليز[1]، ليحتمي بكرم الأمة البريطانية" وليطلب الحماية تحت قوانينها. قد ياسلف قارئ التاريخ أن حياة حافلة بمختلف الأعمال وأبهرها، مثل حياة نابليون، لم تصادف خاتمة سارة بين الأشراف الانجليز، أو في جو الجمهورية الأمريكية الحرة. لكن الحكومة البريطانية، لما عليها من الواجب نحو السلام العام في أوروبا، ولعهدها مع الحلفاء، كانت مضطرة للعمل على ألا يعود نابليون لإزعاج العالم بدوي مدافعه مرة أخرى. لذلك أرسل إلى جزيرة صخرية، في مهب العواصف، في أقاصي المحيط الأطلسي. وهناك في الخامس من مايو سنة ١٨٢١، كان نابليون "يرى كغليون هائل محمل بالكنوز، ناء بأثقاله، قائمة أدقاله في وجه الأفق الغربي". وبعد مرض مبرح طويل تحمله بشجاعة، استغفر نابليون الاستغفار الأخير عن تلك الخطيئة القديمة، التي لو بحثنا عن أصلها، لألفيناها ترجع إلى النزاع بين الثورة الفرنسية، والنظام الأوربي القديم. وقضى وهو في السنة الثانية والخمسين من عمره، وكان

---

[1] ولد تيميستوكليز (Themistocles) في أثينا حوالي ٥١٤ ق.م. وهو سياسي كبير، أصبح الزعيم الأكبر في أثينا، وإليه يرجع الفضل في إنقاذ البلاد من حكم الفرس. ثم تغيرت الحال، وأصبح مكروها من قومه لصلفه وكبريائه. وفي علم ٤٧١ ق.م. اتهم بالاختلاس في أموال الدولة، فحكم عليه بالإبعاد، فرحل إلى بلدة أرجوس (Argos)، حيث اتهم بالتآمر على الحكومة القائمة، فهرب إلى آسيا خوفا على حياته، ونزل على ملك الفرس فأكرم وفادته؛ وعاش هناك في رغد من العيش في بلدة مغنيسيا (Magnesia) حتى مات.

أكبر من ولنجتن بثلاثة أشهر.

يتمنى كل شخص لو أن نابليون وقع في واترلو، وهو يقود حرسه القديم، وشفق الليل ينتشر في عرض السماء الصيفية. غير أن الأسر في سنت هيلانة، مع ماشف عن الجانب الحقير من حلق مختلط، لم يخل من الأهمية التاريخية، ولا من ثمرات السمو الفكري. ذلك أن حياة نابليون العملية لم تنته بصعوده إلى ظهر السفينة بليروفون (**Bellerophon**) التي حملته إلى منفاه، ولا بنزوله إلى ميناء جيمستون (**Jamestown**) في جزيرة سانت هيلانه، بل بقيت في رأسه سياسة يريد إتباعها، ودور يريد أن يلعبه. قال في سانت هيلانه: "ستبرهن الأيام أن واقعة واترلو خطر على الحريات الأوربية، كما كانت واقعة فيلبي (**Philippi**)[1] خطراً على حريات الدولة الرومانية". وفي وسط الظلام الرجعي الذي تنبأ نابليون بحلوله، أبصر من بعيد بارقة أمل للابن الصغير الذي لقبه يوما ملك روما. ولقد وضع أمله في قيام فرنسا يوما ضد أسرة نصبت عليها بقوة الجيوش الأجنبية، أسرة تميل إلى نظام بائد ومذهب عتيق؛ واعتمد على أنه بمجرد بزوغ شمس ذلك العصر الحر، سيذكر الفرنسيون الإمبراطورية وحكومتها، التي قامت على أكتاف الشعب تدعمها الأنظمة الحديثة، وتحيط بها هالة من الفخار. لذلك وضع نابليون في محادثاته ومذكراته في سنت هيلانه تلك الأوجه من حياته وسياسته، التي كانت أكثر قبولا في عصر حر؛ وأملى ملخصات عن الحروب الأولى في إيطاليا ومصر والشام، حينما بنى أساس مجده في خدمة الجمهورية؛ وقال عن نفسه في بعض تلك المحادثات إنه الصديق المخلص للسلم

---

(1) فيلبي بلدة قديمة في مقدونيا، بناها فيليب أبو الاسكندر الأكبر، وكانت مشهورة بمناجم الذهب والفضة وفيها انتصر أوكتافيوس وانطونيوس، سنة ٤٢ ق.م، على الثائرين الذين قتلوا سيدهم يونيوس قيصر، فانتقما له؛ وقبضا على أزمة الأمور من بعده.

والحرية والحقوق القومية. وكذلك كانت وصيته السياسية خليطا من الحقيقة والرياء، مكتوبة بروح عصر مستقبله قريب. ولقد عاش على اسم تلك الوصية ابن أخي نابليون، الذي تولى إمبراطورا على الفرنسيين يوم ذكرى مرور السنة السادسة والأربعين على واقعة استرلتز، وبعد ذلك بقليل كان من مؤسسي الوحدة الإيطالية.

حدث نابليون يوما عن نفسه في سنت هيلانه قال: "أني جلمود صخر قذف في الفضاء"، فصور شروده الجنوني في التاريخ بشهاب ثاقب. ولا عجب فإنه لما استعرض بإعجاب حياته المدهشة، اعتقد أنه ليس من المخلوقات التي تسلك المعابر الضيقة المحدودة، بل قوة عنصرية من قوى الطبيعة، مجردة عن الحب والكراهية، أخرجت للعالم، وسيرت بحكم تنازع البقاء الكامن فيها. ورأى أن كثيراً ما علق صغار الرجال حياتهم على مبدأ واحد، وتمسكوا بنظريات قديمة، واحترموا تقاليد شعوبهم، فكانوا نظريين مقيدين بوساوس الطبقات المفكرة التي عاشت بين ظهرانيهم. أما عظماء الرجال فيعملون كوميض البرق. ومن لوازم عظمتهم أن يسيروا إلى الأمام بقلب ثابت، وأن يتجردوا من الإحساس بالتعب الناتج من المضي في الأمور، وأن يكونوا ممن لا يشعرون بفعل الإرادة حتى في أشد الحالات. قال نابليون في ذلك الصدد: "الرجل القوي هو الذي يكون كل شيء عنده معناه العقل والحركة في وقت واحد، بحيث يقرر بسرعة ما يرتأيه بعد تفكير عميق؛ وحينئذ فشجاعته كلها قطعة واحدة". ذلك ما جعل حياة نابليون عجيبة؛ لكن الذي يدعو إلى عجب أكثر أنه اعتقد في كثير من الأحيان أن حياته كانت من لزوميات العصر للقضاء بدقة وحزم على تقلب الظروف وشدة الأحوال.

دلت الماسات التي وجدت مخيطة بالمعطف، الذي تركه نابليون في عربته

بعد واترلو، على الروح التي سار بها في حياته الجريئة، وهو يشعر دائما، حتى في أوج عظمته، أنه يمشي على شفا جرف. أجل! يعرف كل مطلع كيف كان نابليون وهو إمبراطور، ينسل من قصره، ليتحدث إلى العمال وأرباب الحوانيت، ليعرف الشعور السائد في المدينة. وكذلك ما كان للقوة أن تنتج أمانا، أو أن تهدئ الإحساس بالخطر الذي يأتي مع حياة منصرفة إلى الأشياء العظيمة. وهكذا ظل نابليون طول حياته كالقرصان يترقب أعداءه، ويشتم أقل ريح للخيانة في الجو.

ولقد ملئت كتب بذكر أعماله الطيبة وكلماته الحسنة، وكلها تدور حول أن نابليون، فيما عدا الظروف التي تضاربت فيها الأطماع، كان دائما مملوءاً لطفا ونجدة. نعم إنه أراق دماء بلا حساب، غير أنه لم يرقها جزافا، بل استخدم القسوة بقدر ما استلزمت الظروف، مع الاهتمام بوضع السيف في موضع السيف. مثل ذلك أنه وافق متكرها، وهو قائد صغير، على إعدام ٢٥٠٠ استر تركي، سلموا لضباطه بشرط ضمان حياتهم. ومن الغريب أن يدافع بعض النقاد عن ذلك العمل، حتى في العصر الحديث، على مبدأ استحالة الوثوق من الأسرى إذا أخلى سبيلهم، واستحالة إطعامهم إذا أبقوا. ثم بمضي الزمن صيرت الحروب نابليون لا يهتز للمذابح، يشهد بذلك أنه كتب في وصف المذبحة الشنيعة التي حدثت عند بورودينو يقول إنها "أبهى موقعة" رآها[1]. ما أوسع الفرق بين ذلك وبين وصف ولنجتن عندما حدث اللادي شلي ( **Lady Shelley**) بعد موقعة واترلو! قال: "أطلب من الله أن تكون هذه آخر موقعة أشترك فيها. لما أكون في وسط المعمعة، أكون مشغولا بدرجة أني لا أحس

---

(1) نقلا عن خطاب تحت يد اللورد كروفورد اقتبس المؤلف منه تلك العبارة:–

**"C'est le champ de bataille le plus beau que j'ai encore vu".** (المؤلف)

بشيء. لكني أشعر بالحزن بعد ذلك مباشرة، حتى لا أستطيع التفكير في العز والفخار، لأن العقل والعواطف تكون منهوكة. وأني أشعر بالشقاء حتى في ساعة الانتصار؛ وأعتقد أن أكبر شقاء بعد شقاء الهزيمة هو النصر".

على رغم أن نابليون كون بعض أصدقاء مخلصين، وظل طول حياته قادراً على المصارحة والملاطفة في أحاديثه مع كل أصناف وطبقات الرجال، إلا أنه كان لا يُعتمد عليه في حسن الذوق أو الصدق أو عمل الخير. كذلك لا يمكن اختياره كمثل للفضيلة في الأمور الداخلية. وإن قائمة المحبوبات، اللائي كان يجري وراءهن بدون احتشام وبدون عواطف في أوقات فراغه، تكفي للدلالة على أنه لم يكن أعلى أو أحط من المستويات المعتادة في عصره بين أمثاله. على ذلك لم يكن نابليون طاهر الذيل، إلا أنه لم يكن عبد شهواته، ولم تقم السياسة الفرنسية على التنزه عن المحسوبية والدسائس مثلما قامت في أيامه، منذ أيام سان لويس: إذ وقف نابليون يدير شئون الدولة، ودليله أطماعه الهائلة، لا يحيد قيد أنملة، في وسط ممتلئ بأحداث النعمة المتزاحمين النهمين.

ولقد كان قلب نابليون يتهيج لجمال الأماكن ذات الاتساع العظيم، وللصوت الغامض الذي يصدر من تموج البحر، وللجمال الصافي المنبعث من الليالي المتألقة بالنجوم. أما ما خفي من صغائر محاسن الطبيعة مثل ميل زهرة، أو حسن لونها، وتغريد طير، ونقش الشتاء على شجرة، فلم تسترع نظره؛ وإن استرعت، فإنها تنبذ كما تنبذ روايات راسين، التي كان يعتبرها صالحة فقط للشبان. وتفسير كل ذلك أنه كان من ضروريات ذوقه في الجمال أن يكون الشيء عظيما، ومن ضروريات ذوقه في العظمة أن يكون الشيء مما يرفع الأخلاق، ويقوي الإرادة. أمام جلائل النيات. ذلك أيضا هو تفسير عدم ميل نابليون للخيال والفكاهة والطرب، وخفة الروح، وحب الجمال من أجل

الجمال، وغير ذلك من العناصر اللازمة لحياة الفنون وتقدمها. قال في ذلك الصدد: "آه! أيها الذوق الجميل: توجد إحدى عباراتك القديمة لا أعتقد بها. إن ما يسمى أسلوبا سواء أكان حسنا أم رديئا لا يؤثر فيّ.إني لا أتأثر إلا بقوة الفكر". على ذلك لم يكن قياسه للآداب والفنون قياس الرجل الذي يحب الجمال، بل الذي يحب العمل، ويحكم على قصة بموضوعها وأشخاصها، وعلى صورة بمغزاها لا بفنها. قال عن صورة ترموبيلي (Thermopylae)[١] تصوير دافيد[٢]: "إن موضوعها رديء. ألا ترى أن ليونيداس[٣] هُزم؟". ذلك أن نابليون لمي فهم بأي حق يخرج مصور عن حدوده، ويخلد هزيمة قائد عادي، فكان الأجدر في نظره أن يكون ميدان الفنون والآداب مكافأة الجدارة وزينة النجاح.

وعلى الرغم مما تقدم، ليس من الحقيقة القول بأن الأشياء العظيمة في الآداب لم يكن لها معنى عند نابليون، أو القول بأنه كان عاجزاً عن تحرير قطع أدبية ذات قيمة. فالرجل الذي قال لجمعية محبي الله والبشر، وهي طائفة

---

(١) ترموبيلي ممر شهير بين إقليمي تساليا ولوكويس في اليونان القديمة. وعند هذا الممر وقف ليونيداس ملك إسبارطة لصد الفرس سنة ٤٨٠ ق.م. نجح ليونيداس؛ غير أن يونانيا يكره الإسبارطيين دل الفرس على طريق فوق الجبل، فسلكوه. وانقضوا على مؤخرة الجيش الإسبارطي، وأفنوه عن آخره، ما عدا واحداً تركته يد المقادير ليقص القصة. وقد خلدها المصور الفرنسي جاك لوي دافيد (Jacques Louis David) الذي ولد في باريس سنة ١٧٤٨. وهو من أشهر المصورين، وكان من أعوان الثورة، ومن أكبر المعجبين بنابليون وأقرب أصدقائه. فلما سقط نابليون نفى المصور، فذهب إلى بروكسل وأقام بها حتى مات سنة ١٨٢٥.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

سخيفة مدعية: "هل تبحثون عن السناء؟ إذا كنتم فإني أدلكم: اقرءوا صلاة الإله". مثل ذلك الرجل كان يحس بلا شك بتأثير الجمال الساذج. ثم أن بعض نشراته، التي كان يحررها بعد ثوران القتال مباشرة، تعد نماذج بديعة في الأسلوب الفرنسي، الموجز المتوقد، الملطف هنا وهناك بمس خفيف من الخيال الشعري، والمفخم في بعض العبارات بنفثة بلاغة حقيقية. ولقد أخذ كثير من النقاد الممحصين على نابليون بعض سقطات في علم البيان، وحكموا على رسائله بالابتذال، وقلة الذوق في الزخرفة. لكن نابليون لم يطلب حكمهم. والواجب هنا ذكره أنه لم يقصد في نشراته وإعلاناته مخاطبة الطبقة الوسطى، ذات الأردية السوداء، بل جنود فرنسا وعامتها. قال نابليون مرة: "ما نجح العظماء الذين غيروا العالم، بواسطة التسلط على الزعماء أبدا، بل بالتأثير على العامة". ولذلك كانت كتابات نابليون للعامة؛ ولم يسبق أبداً أن ضربت تلك النغمة الجامعة بين الوطنية والفخار، من أجل استهواء العامة، في أي دولة قبل دولة نابليون. ومثل كتابات نابليون مثل فلسفة روسو، كلاهما معدود في صف لغة قواد العامة. وعلى ذلك فنابليون أمير الصحفيين، وأبو المراسلين الحربيين، وممهد الطريق في فن تكييف الرأي العام باستخدام الصحافة؛ فهو أستاذ الشركات الصحفية العظيمة، التي تنشر في العصر الحاضر غباوتها المطبقة على جيل متألم. قال تاليران، وهو ناقد قاس بسبب ما لحقه من الأذى، إن نابليون ذو رأي ثاقب دائما في ساعة الروية، وإنه في حياته المفعمة بالحوادث ارتكب ثلاث غلطات سياسية خطيرة فقط، وهي إسبانيا والبابا والروسيا. ولو سلمنا جدلا بأن بحث المؤرخين الحديثين سيضيف إلى قائمة الغلطات المتقدمة، فلن نستطيع البخل بالإعجاب لمهارة نابليون في استخدام الظروف، تلك المهارة التي حلت مسائل كثيرة في السلم والحرب، والتي قضت على كثير من الأخطار، والتي حولت عدة مرات الهزيمة انتصارا. مع ذلك ستبقى مسألة، إلى أي حد

كانت نهاية أعمال نابليون متفقة مع سمو الأخلاق، موضوع المناقشات: إذ لا يخفى أن الغزو من أجل الغزو هو المثل الأعلى في نفس المتوحش؛ وأن الواجب قبل التماس الأسباب التي تدعو للحروب، أو تكوين الإمبراطوريات، إثبات الغرض الذي من أجله تنشب الحروب، وتقام الإمبراطوريات، أمام محكمة العدل العام. وإذا بحثنا الأمر، فأي حكم أكثر شناعة وتوحشا من السيطرة على الدنيا بالسيف، بصرف النظر عن هدر الدماء والشقاء والخراب الناتجين مباشرة عن تلك العملية؟ أي نتيجة طيبة، أو ذات قيمة، يمكن الحصول عليها من إذلال شعب؟ لا نعرف رأي نابليون هنا، فهو لم يناقش هذا الموضوع. إلا أننا نعرف أن الفخار كان غايته، وأنه وجد الطريق الموصل لتلك الغاية في الفتح، وأنه كان يميل غالبا لقياس الفخار بمقدار ما يحدثه من الدمار. ولذلك فعلى الرغم من خدمات كثيرة وعظيمة في القانون، وطرق الإدارة، وفي التقدم الأدبي والعقلي في فرنسا، سيبقى نابليون المثل الحديث العظيم لتلك الجرأة، التي كانت السبب في المآسي قديما، والتي لا تتفق أبداً مع مناسبات الحياة البشرية.

## بعض كلمات نابليون

- القوة موضع الاحترام دائما.
- حب الوطن أول فضيلة في الإنسان المتمدين.
- لا تصبح الأمم حكيمة إلا بالتجارب.
- المحنة مدرسة لتخريج العظماء؛ فواجب الملوك إثارتها ونشرها، لأنها تثير النفوس وتحرك القلوب، وفي استطاعتها حقا تكوين الأبطال.
- الناس كالأرقام الحسابية، قيمتها بأوضاعها.
- يجب أن يكون قلب السياسي في رأسه.
- تبين الأمر يتم لك بلا عناء.
- نقص نظمنا الحديثة في خلوها مما يثير الوجدان؛ مع أن الإنسان لا يساس إلا من طريق الوجدان، ولو أمكن سياسته من غير ذلك الطريق لكان حيوانا أعجم.
- اختيار الموضوعات للأحداث طريقة فاسدة، وجدير بهم أن يقرءوا الكتب المطولة، ليحيط خيالهم بجلائل الأعمال.
- التاريخ مرآة لعقول البشر.
- الحب مشغلة الخامل، ومضيعة الجندي، وعثرة الملك.
- التجنيد الإجباري أساس نشأة الأمم، فبه تقوم أخلاقها وتتكون عاداتها.

- التعليم والتاريخ ألد أعداء الدين القويم.

- لا أرى في الدين سر تقمص الروح، بل سر النظام الاجتماعي؛ لأنه يقول أن الناس عند الله سواء، وذلك يمنع الفقير من اغتيال الغني.

- وحدة القيادة أول لزوميات القتال.

- أعد نفسي أجرأ رجل حربي ظهر في الوجود.

- أول صفة القائد العام التفكير الهادئ.

- ما زلت مغرما دائما بالتحليل. وإذا قُدر ووقعت في شرك الحب، أحلل عاطفتي بالدقة التامة، فإن محاسبة النفس منفعة مهما تطل.

- مهما تبلغ من الذكاء فلست بفاهم سر قلبك. وإن كل ما تعرفه عنه أنه قطعة من جسمك، يخترقها عرق ضخم يجري فيه الدم سريعاً إذا ركضت.

- جلال الأشراف وسحرهم وليدا القدم والثبات، وهما الشيئان الوحيدان اللذان عجزت عن خلقهما.

- القائد العبقري لابد أن يكون متصفا بالفضائل، لأنها السبب في طاعة الجند واحترامهم إياه.

- لندن هي مصدر شرور العالم وأضراره.

- الضابط العظيم هو الذي يبلغ به الحرص أن يكون مستعداً لصد مفاجآت عدوه من أي جهة، فإذا عجز عن ذلك دل على سوء مركز جيوشه.

- لو نجحت لأصبحت انجلترا من ملحقات فرنسا، فإن الطبيعة كونتها

لتكون جزيرة فرنسية مثل أولرون[1] أو قرشقة.

- الدستور الذي لا يعترف بالأشراف يشبه الكرة في مهب الرياح.

- قيام الأشراف (الأرستوقراطية) نظام ثابت، فإذا قضى عليه بين النبلاء، تحول مباشرة إلى البيوتات الغنية ذات الجاه والنفوذ من الطبقة الوسطى، وإذا قُضي عليه من بين هؤلاء، بقى واجتمع في ظل زعماء المصانع والشعب.

- العمل ديدني. وُلدت ورُبيت للعمل. لقد أحطت بوظيفة رجلي وعرفت مدى بصري، ولكني لم أدرك بعد حدود عملي.

- كان غرامي في التأسيس لا في الامتلاك. إنما أردت امتلاك ناصية الفخار والشهرة.

- العالم اثنان: الشرق والغرب، والدليل على ذلك أن فرنسا وانجلترا متماثلتان في العادات الدين والأفكار.

- فلان كذوب، ولا حرج عليه أن يكذب أحيانا إن لا يكذب دائما.

- إراقة الدماء تدخل في عناصر الأدوية السياسية.

- فكرت كثيراً في مشروع تقسيم فرنسا إلى عشرين أو خمس وعشرين إقليما حربياً كل بجيشه.

- أنا لا أعرف بالضبط معنى تدخل الحب في السياسة.

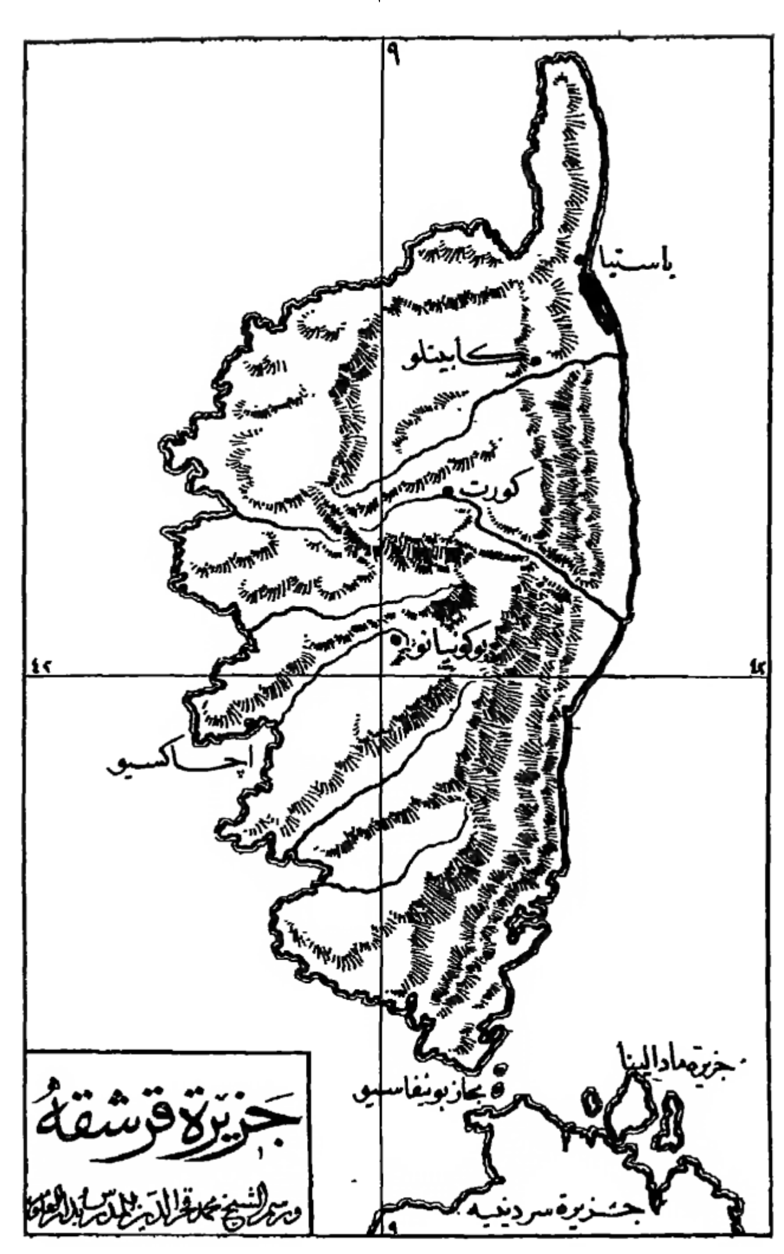
- خطابك يدل على حذق عظيم، وهذا ليس ضروريا في الحرب، وإنما

(1) جزيرة أولرون (**Oleron**) واقعة قرب الساحل الفرنسي شمال خليج بسكاي.

الضروري الدقة ومتانة الخلق والنشاط.

- الديانة مادة مهمة في النظام العامة لتهذيب الفتيات، إذ الواجب تدريبهن على الاعتقادوالطاعة.
- العلماء وأولو النهى كالنساء المتدللات في نظري. انظر إليهم وحدثهم؛ ولكن إياك أن تستوزر أحداً من العلماء، أو تتزوج إحدى النساء.
- إذا كنت حاكما فلا تنقض ما أبرمت.
- هناك أناس يجيدون القول، ولكنهم يعجزون عن أضعف الأعمال.
- يعتبون على فقرنا في الأدبيات، ولكن ذلك ليس من شأني.
- إذا اتصف ملك بالرحمة فنصيب حكمه الفشل.

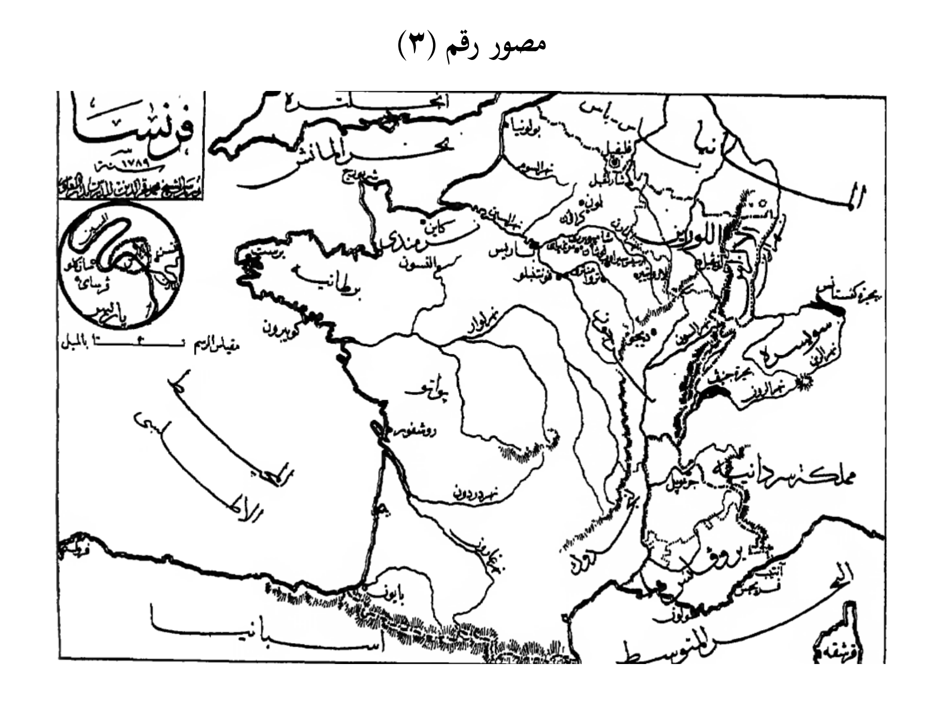
مصور رقم (١)


باستيا
كابينلو
كورت
بوكوينانو
اجاكسيو
جزيرة قرشقة
جزيرة مادالينا
بحاز بونيفاسيو
جزيرة سردينيه

مصور رقم (٢)



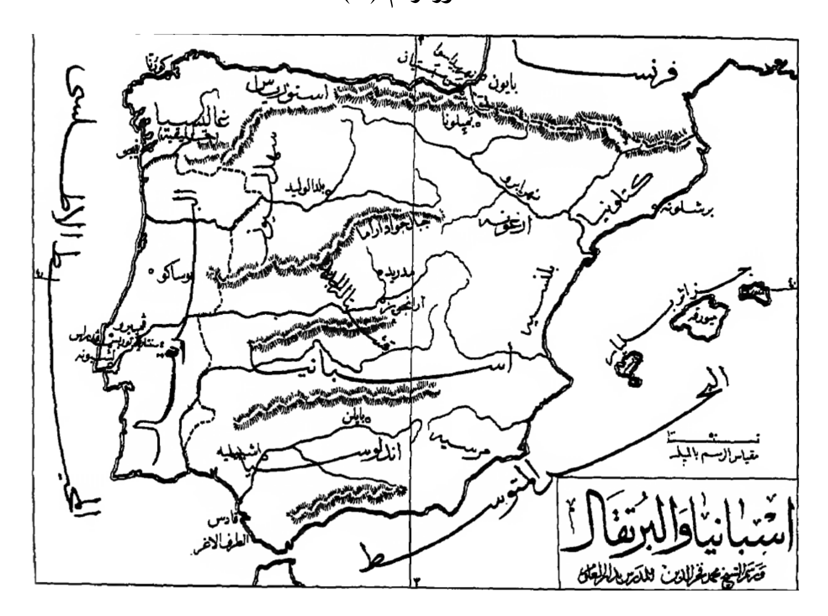
مصور رقم (٣)


فرنسا
سنة ١٧٨٩
بحر المانش
برطانية
باريس
فونتنبلو
كاين
برست
بولونيا
روشفور
بواتو
ديجون
جونيول
طولون
سويسرة
بحيرة كنستانس
بحيرة جنيف
نهر الرون
مملكة سردانية
اسبانيا
بايون
البحر المتوسط
قورشقه
مقياس الرسم بالميل

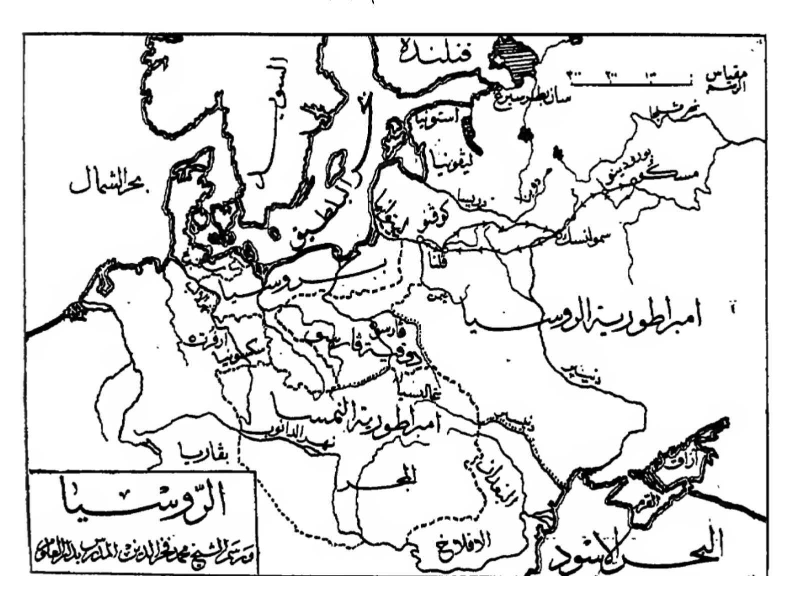
مصور رقم (٤)


النمسا
والأراضي الألمانية
السويد
بحر البلطيق
بحر الشمال
غاليسيا
موراڤيا
سويسرا
ايطاليا

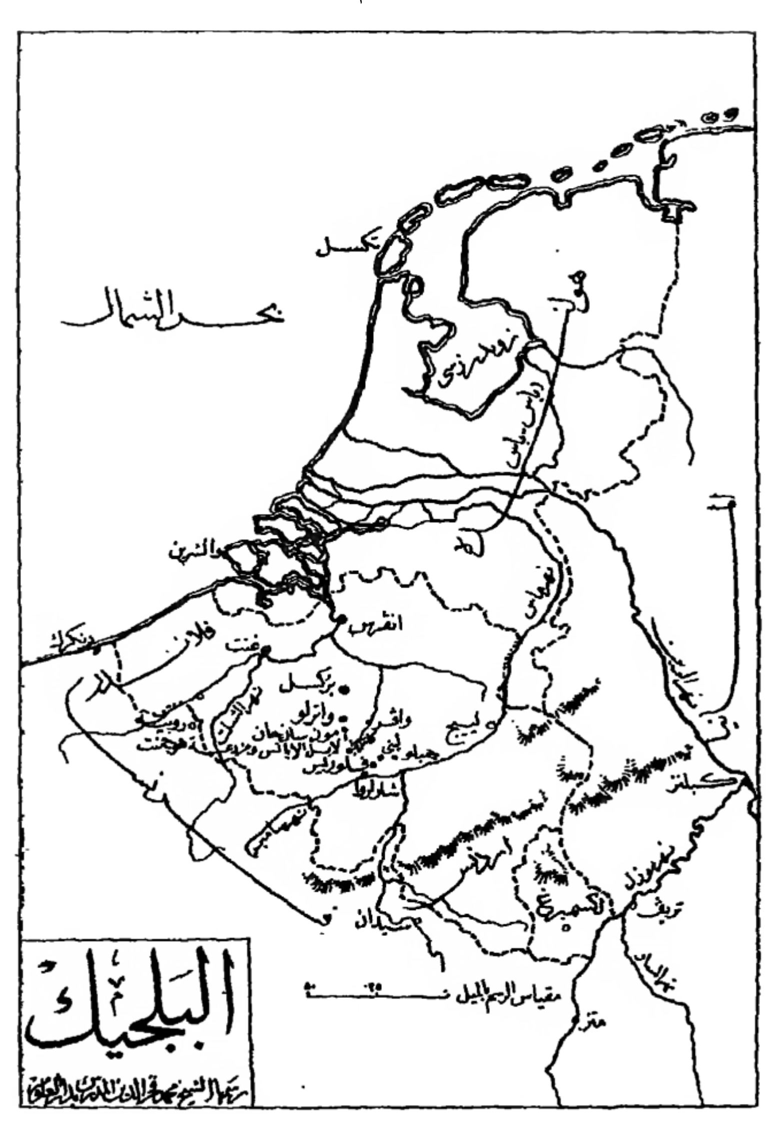
مصور رقم (٥)




مصور رقم (٦)



مصور رقم (٧)


بحر الشمال
تكسل
انفرس
غنت
بركسل
واترلو
لييج
شارلروا
كبلنز
البلجيك

# الفهرس